شهريّات

بقلم رئيس التحرير

١ . مفهوم مغلوط للوطن ..

خلال هذين الشهرين ، عشنا في لبنان جوا رهيبا فرضه علينا حدثان خطيران ، اولهما الاعتداء الاسرائيلي في قلب بيروت على ثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينيه ، والثاني اشتباك الجيش اللبناني مع المقاومة الفلسطينية في مناطق عدة بلبنان .

ولا شك في ان هناك خيطا يربط بين الحدثين ، بل الاصح أن يقال أن الحدث الثاني نتيجة منطقية للحدث الاول .. ذلك أن الاهمال ، العفويّ أو المتعمّد ، الذي ظهر من السلطة لدى اعتداء الكومندوس الاسرائيلي على زعماء المقاومة الفلسطينية في بيروت ، كان نذيراً للمقاومة ومنبِّها في الوقت نفسه الى أن الدفاع عن ارواح زعمائها ورجالها ، اينما كانوا وحيثما وجدوا ، انما هو منوط بالمقاومة نفسها ، وان الاعتداء عليها لا يصدر بالضرورة عن العدو الاسرائيلي وحده ..

ولعلّ هذا المظهر الدفاعي الذي تلبّس المقاومة الفلسطينية منذ تشييع زعمائها كان الفرصة المناسبة لقيام السلطة بالضربة المبيتة منذ وقت طويل . وهكذا انفجرت الازمة وحدثت المواجهة .

والبيانان اللذان أصدرهما اتحاد الكتاب اللبنانيين يعبّران اعمق التعبير عن رأينا بهذين الحدثين وموقفنا منهما . فليسمح لنا بان نورد هنا نصَّيهما :

جاء في البيان الاول الذي صدر في اليوم التالي للاعتداء :

« اذا كان العدوان الاسرائيلي المذهل الذي وقع في بيروت امس يدل على شيء جديد فعلى أن تخاذل السلطات اللبنانية اصبح من الاستهانة بكرامة لبنان بحيث يشجع الوحشية الاسرائيلية على ارتكاب افظع الاعمال وانكرها .

ونحن لا نفهم اطلاقا ان تتمكن قوات الكوماندوس الاسرائيلية من أن تهبط بمثل هذه السهولة في قلب العاصمة وان تتغلغل حيث تشاء فلا يكون التصدي لها الا بهذا الشكل الذي مكنها من الانسحاب وقد عاثت خرابا وتدميرا واغتيالا ... ولا شك في أن جميع المواطنين اللبنانيين قد اصيبوا بالذهول والدهشة حين سمعوا البيان الذي تطلب فيه السلطات منهم ان يقدموا معلوماتهم وارشاداتهم عما حصل .. أيكون هذا هو الان دور المواطن ؟ وما عساه يكون دور السلطة التي يأتمنها الفانون على ارواح الناس وحمايتهم ؟ .

أننا ندين هذا الموقف الاستخذائي اشد الادانة ونرفع صوتنا باستنكاره ونهيب بجماهيرنا اللبنانية ان تتضافر للدفاع عن كرامة الوطن وأن تتماسك لتدعم المقاومة الفلسطينيه التي لن تتخلى عنها الشعوب العربية مهما حاولت السلطات والانظمة أن تضعفها بالتخاذل ومؤامرات التصفية .

واننا اذ نحيي ارواح هذه الكوكبة الجديدة من شهداء لبنان وفلسطين ، وعلى رأسهم الشاعر المناضل البطل كمال ناصر ، نعاهد مجدداً المواطنين اللبنانيين الشرفاء وحركة المقاومه الفلسطينية على المضي في الدفاع عن كرامة لبنان وفضح المؤامرات التصفويه التي تندرج في المخطط الرهيب الذي يسقط شبحه تدريجيا لفرض الاستسلام .

وتحية لشهداء لبنان والمقاومة الفلسطينية واستنكارا لتخاذل السلطات ، ندعو المؤسسات والاحزاب والقوى الوطنية الى المشاركة في المسيرة الصامتة التي سيعلن عنها غداً » .

وجاء في البيان الثاني الذي صدر عن اتحاد الكتاب اللبنانيين عند الوقف الاول للنار ، أي قبل استئناف الاشتباكات واعلان حالة الطوارىء ، ما يلي :

« مرّ الوطن اللبناني هذا الاسبوع بمحنة دامية ظاهرها المواجهة بين المؤسسة العسكرية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية . ولكن البعد العميق لهذه المحنة هو الرؤيا المنحرفة والمفهوم المغلوط لحقيقة الوطن لدى المسؤولين .

وليس من شأن هذا البيان مناقشة تلك الرؤيا وذلك المفهوم في هذا الظرف بالذات ، ولكن لا بد من الاشارة

الى أن التشويه الذي يلحق بمفهوم الوطن مرده الى اعتبار لبنان بلد خدمات يعنيه الازدهار الظاهر وحده ولو تم هذا الازدهار على حساب الكرامة والشرف ، على حساب قضية الوطن والتزاماته المصيريه بالقضايا العربية وفي طليعتها القضية الفلسطينية ، بالاضافة الى الانجراف في المؤامرة التصفوية على حركة المقاومة الفلسطينية وبالتالي القضاء على حركة التحرر الوطني في العالم العربي .

من هنا نجد السلطة تتغاضى عن الاحتلال الاسرائيلي لاجزاء من التراب اللبناني وتجبن عن رد الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة وضرب طوابير العملاء والجواسيس .

أن المجزرة التي حدثت لن تستطيع القضاء على المقاومة الفلسطينيه التي تبقى الامل الحقيقي للجماهير العربية ومنها اللبنانية لتحقيق الديمقراطية والتحرير. ولسنا نعتبر الاتفاق الذي تم بموجبه وقف النار مؤخرا الا معالجة آنية للمشكلة ونخشى ان يكون تخديراً تتبعه مواجهة اسرع واشرس .

ان اتحاد الكتاب اللبنانيين اذ يدعو الى عقد مؤتمر وطني للمفكرين والمثقفين اللبنانيين لمناقشة الوضع اللبناني بروح من الايمان بمفهوم الوطن ومفهوم علاقة لبنان بالوطن العربي في ضوء الايمان بوحدة المصير يدعو المسؤولين الى احترام الحريات الديمقراطية والاتفاقيات والمواثيق في علاقتهم مع المقاومة الفلسطينية ، كما يدعو هذه المقاومة الى المزيد من التلاحم والحذر ويهيب بالقوى الوطنية ، لا سيما المثقفين ، داخل لبنان وخارجه الى توفير الحماية للمقاومة والتلاحم معها لاحباط مخطط التآمر الاسرائيلي الامبريالي الذي لا يستهدف المقاومة الفلسطينية وحدها بل حركة التحرر العربي كلها » .

* * *

هذان هما البيانان. وقد كان اتحاد الكتاب اللبنانيين يؤمل ان يتمكن من مناقشة الوضع مناقشة عميقة ،ولكن اعلان حالة الطوارىء منعه من اقامة مؤتمره واجراء حوار بناء بين المثقفين اللبنانيين .

ولا شك في ان قانون الطوارىء نفسه قانون تعسفي ، لا سيما حين يفرض لتغطية التدابير القمعية وكبت الحريات وخنق التعبير . ولكن عزاءنا هو ان هذا القانون قصير العمر ، واننا استعدنا حرية الفكر والتعبير فور الغائه .

وبعد ، فقد خرجت المقاومة الفلسطينية من المحنة التي مرت بها في لبنان قوية معافاة ، واثبت التحام فصائلها من جديد والتفاف مناصريها حولها في لبنان وفي البلاد العربية ، ونخص هنا بالاشارة موقف سوريا الحاسم ، أن المقاومة مدعوة الى توكيد دورها الثوري في كل مكان .

٢ . تجربة تشرّد ...

اضطررت ، في اثناء الاشتباكات بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية ، الى مغادرة منزلي الواقع في نقطة حساسة من نقاط المواجهة . وقد اصيب المنزل فعلا ، في فترة غيابنا ، ببعض طلقات الرشاشات والصواريخ التي احدثت اضرارا في الواجهات وجدران الشرفة الجنوبيه ، وفي سيارتي التي لم اتمكن من اخراجها حين دهمتنا الاحداث .

وعند انفراج الوضع واعلان وقف النار الاول ، عدت بافراد أسرتي الى المنزل ، وما كدنا نستقر ساعات حتى كان خرق الاتفاق المبدئي ، وعاشت منطقتنا فترة عصيبه شاركت فيها الطائرات بقصف مخيمات اللاجئين ، وشاهدنا صواريخها وقنابلها تهبط من فوق منزلنا الى بعض مراكز رجال المقاومة .. وحين اجبرني اهلي وجيراني على الهبوط الى ملجا المبنى الذي نسكنه ، وتكومنا هناك مرتعدين صامتين ، شعرت كما لم اشعر من قبل قط ، بعجز الكلمة ولا جدواها ..

وتصورت في ذهني حالة اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات التي كنا نسمع دويّ القنابل ينفجر فوقها ، وليس فيها ملاجىء تلوذ بها النساء والاطفال كهذا الذي لذت به مع أولادي وجيراني ..

بل تذكرت الايام القليله السابقة التي اضطررت فيها الى مغادرة المنزل ، متنقلا مع اسرتي بين منازل اقربائي. فبالرغم من انهم جميعا قد اكرموا وفادتنا واحاطونا بكل الوان الرعاية ، فقد أحسست بالتشرّد والضياع .. وكان مفروضا علينا ان نتذكر تشرّدا اخر ، تشردا كبيرا كثيفا بدا منذ ربع قرن من ارض فلسطين سقط على شعب برمته وما يزال يعاني منه أشد المعاناة في عيشه ، ووجوده وكرامته .. فاي تشرد « بورجوازي » هذا الذي عشناه بضعة ايام ؟!

ما عساني كنت استطيع ان افعل هناك ، في ذلك الملجأ الامين ، غير أن اضع رأسي بين يديّ ، وأفكر طويلا بتلك المأساة ؟

بلى ، كان بوسعي ، على الاقل ، ان اغذّي في صدري وفي صدور ابنائي ، النقمة على الظلم والظالمين ، وان إسعّر نار الغضب على التآمر والمتآمرين ..

وكان بوسعي كذلك ان اعمّق في صدري وفي صدور ابنائي ، ذلك الحبّ الكبير الذي نكنّه لاولئك اللاجئين المتشرّدين ، وأن ادافع عن حقهم في حياة حرة كريمة ، بل ان نتعاون ونتكاتف معا لنحول دون تشرّد جديد يصيبنا هذه المرة ، انا واولادي ، في وطني لبنان .

حين ادافع اليوم عن اخي الفلسطيني ، فانما ادافع عن ابني اللبناني ..

٣ . بعد مؤتمر تونس ...

يجد القارىء في هذا العدد ملفا كبيراً عن أصداء الموقف الذي اتخذه اتحاد الكتاب اللبنانيين في مؤتمر الادباء العرب في تونس . ونحن نترك التعليق على هذا الملفّ للقراء او ربما لنقاد هذا العدد .

ولكن لا بدّ لنا من ان نتابع ، على صعيد عملي ، نتائج

هذه المعركة الفكرية التي يهتم لها الرأي العام الادبي بالغ الاهتمام .

لقد وعد اتحاد الكتّاب اللبنانيين بعقد ملتقى ادبي في الصيف القادم يدعو اليه عددا من الكتاب العرب تحت شعار « حرية الكلمة العربية » . ويتخذ الاتحاد الآن كافة الخطوات العملية لاقامة هذا الملتقى الذي قد يتأخر انعقاده قليلا بسبب الاحداث التي مر بها لبنان في الشهر الماضي فحالت دون القيام بالاتصالات الضرورية .

وقد بلغ الاتحاد انباء اعتقالات جديدة لعدد من الكتّاب والشعراء في البحرين ، فارسل احتجاجا برقيا اخر الى أمير البحرين .

ويرقب الاتحاد بقلق كبير الانباء التي تتحدث عن لوائح جديدة لم تنشر في الشقيقة مصر تضم اسماء العشرات من المثقفين الممنوعين من اي نشاط كتابي او فني . كما بلغه ان بعض الذين صرفوا سابقا او منعوا من الكتابة في الصحف المصرية يضامون في رزقهم ولا يتلقون من رواتبهم الا نسبة ضئيلة تجعلهم يعانون أشد المعاناة في حياتهم المعيشية .

ونذكر ، بالمناسبة ، ان لجنة رؤساء الوفود كانت قد قررت اثناء انعقاد مؤتمر تونس ان توفد فورا « لجنة لتقصي الحقائق » الى عدد من البلدان العربية لدراسة اوضاع الادباء فيها .. فأين اصبحت هذه اللجنة ؟ لقد انقضى الآن شهران ، ولم نسمع ان هذه اللجنة زارت اي بلد عربي .. أيكون الامين العام لاتحاد الكتاب العرب قد الغى هذا القرار بمحض ارادته بعد ان حكم بأن « لا لزوم » لهذه اللجنة ، خاصة وانه لم يوافق على انشائها الا على مضض ؟ اولم يسمع سيادته بنبأ اعتقال رئيس وفد البحرين علي عبدالله خليفة وعضو الوفد نفسه يعقوب المحرقي وسواه من أعضاء اتحاد البحرين ؟ هل حرّك ساكنا أم انه اعتبر ذلك خارج اختصاصه ؟

أيكون اختصاصه هو تحريض عضوين من اعضاء الوفد المصري على الاحتشاد في الصحف المصرية لشتم الوفد اللبناني ، رئيسا واعضاء ، ولتشويه موقفه في المؤتمر ، لمجرد انه رفع صوته دفاعا عن حرية الكلمة المضطهدة في جمهورية مصر العربيه ؟ اما كان اجدر به ، وقد اصبح وزيرا للثقافة ، ان ينصرف لمعالجة وضع الادباء المصريين ورفع القمع عنهم ؟

او يكون اختصاصه تحريض المسؤولين في الوفد السوري على ان يدفعوا بدورهم ، عضوين منهم لشتم الوفد اللبناني، وعلى منع مجله « الآدا ب» من دخول الاراضي السوريه نهائيا . هده المجلة التي لم تمنع في سوريا الشقيقة الا في عهد الانفصال ؟

اننا نربا بالمسؤولين في اتحاد الكتاب العرب في سوريا وفي وزارتي الثقافه والاعلام ان ينقادوا الى المشاركة في سياسة الارهاب الفكري التي كانت بعيدة عن الجو الثقافي في سوريا الشقيقة حتى الان .

ان اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي لقي موقفه كل ترحيب وتهليل في جميع الاوساط الادبيه العربية يأمل الا يضطره امعان السلطات المصرية ومحاراة اية سلطة عربية لها في هذا الارهاب الى نقل معركة حرية الفكر الى الاوساط الفكرية العالمية واثارة الامر في المحافل والمؤتمرات الادبية الاجنبية التقدمية التي بدأت تبلغها انباء هذه المعركه الشريفة التي يخوضها اتحاد الكتاب اللبنانيين بحس المسؤولية الكاملة ..

اربعة اصوات ناشزة فقط لا تمثل ادبنا العربي الحديث اي تمثيل ارتفعت تشتم موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين .. ونحن لن نلتفت اليها ولن نوليها من الاهتمام اكثر مما يستحقه اصحابها على صعيد الفكر وعلى صعيد الاخلاق . لقد ارتفعت بالمقابل عشرات الاصوات الادبية في تحية موقف الاتحاد صراحة وجهارا، ونحن واثقون كل الثقة ان مئات المثقفين العرب والاف القراء العرب يريدون الاتحاد ان يتابع مسيرته الظافرة في معركته الفكريه ، طليعة معركة التحرير الحقيقية !

سهيل ادريس

ذهب الذين نحبهم

الى شهدائنا في الغارة الاسرائيلية الغادرة في بيروت : كمال ناصر محمد يوسف النجار ـ كمال العدوان

نسرا فنسرا غالهم وحش الظلام
سرق السمو من الاعالي ، آه يا
وطني ، عليك من الدم الغالي سلام
من اجلك انفرطت عقود دمائهم
حبات مرجان كنوز لآلىء ،
ذهب الذين نحبهم
لا صوت للاحزان ، انظر ، أورقت
صمتا على شفتي أحزاني
واطبقت الحروف شفاهها
تتساقط الكلمات صرعى مثلهم ،
جثثا مشوهة ، ترى
ماذا اقول لهم ومن قلبي
ومن عيني تسيل دماؤهم ؟
ذهب الذين نحبهم
رحلوا وما ألقت مراسيها ـ
سفينتهم ولا
مسحت حدود المرفأ النائي
عيون الراحلين
أواه يا وطني الحزين
كم ذا شربت وكم شربنا
في مهرجانات الاسى والموت كاسات
العصير المر ، لا انت ارتويت
ولا ارتوينا
انّا سنبقى ظامئين
عند الينابيع الحزينة سوف نبقى
ظامئين
حتى قيامتهم مع الفجر الذي
حضنوه رؤيا لا تموت
ولا يذوب لها حنين

نابلس　　　　فدوى طوقان

حتى لا تغتصب ثانية .. لبنان !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

بيروت ... بقميصها ، وخضابها المتعدد الالوان ، نامت تلك الليلة ، غافلة عما يحاك لها ، شانها في كل ليلة ، مستسلمة لخيوط حلم وردي ... وما كان في نيتها ان تفيق في ذلك الهزيع الاول (من ليل العاشر من نيسان ١٩٧٣) لولا ان طرقت ابوابها اكف تضرجت بدماء مآثمها الطريفة والتليدة ، وما سيكون .

اجل ! ما كان لبيروت الحكم ان تستيقظ ، لو لم يمزق سكينتها رشاش من الطلقات النارية ، يخترق صدور عصبة من الشهداء الفلسطينيين ، شهداء القضية الفلسطينية ، ويستقر في القلوب ، فيفجرها حقدا على اسرائيل والصهيونية والرجعية العربية والاستعمار .

* * *

ففي الساعة الواحدة من ليل العاشر من نيسان ، تسللت عصابات اسرائيلية مسلحة بالرشاشات ، والقنابل ، والمسدسات الكاتمة ، الى بنايتين في قلب العاصمة اللبنانية بشارع فردان ، والى مقر الجبهة الشعبية الديموقراطية بقرب جامعة بيروت العربية ، والى محلة الدوره ، فيما العاصمة نائمة عن ليل ((فلسطين لبنان)) ، دون ان يدور في خلدها انها ستكون في هذا الوقت ، عرضة لواحدة من اشنع ضروب الانتهاكات التي عرفتها في تاريخها الحديث ، ودون ان تعلم بأن العدو موجود في داخلها ، منذ عدة ايام ، بل عدة اسابيع ، يطوف شوارعها ، يصور ، يرسم ، يراقب ، يرصد ، ويتامل ، على نحو ما يفعل السائحون ، ورجال الاعمال ، والجواسيس ، والمضاربون في سوق البورصة ...

والمقاومة الفلسطينية ايضا ، كانت في تلك اللحظة ، غافلة عن مداورات عدوها هذا ، وعن طرق انسيابه ، مطوفا حول مواقعها ، ومساكنها ، يقيس الطرق ، والمنعطفات ويدرس مواقيت تحركاتها ، حتى اذا توفرت له كل المعلومات اللازمة ، عمد الى تنفيذ جريمته النكراء ، التي أودت بحياة عدة مناضلين فلسطينيين ، في طليعتهم الشهداء : كمال ناصر (الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية)وابو يوسف (رئيس الدائرة السياسية لحركة فتح) وكمال عدوان (عضو اللجنة المركزية لحركة فتح) وقد داهمتهم قوات العدو الاسرائيلي في منازلهم ، فقضت على الاول ، فيما كان يكتب مؤكدا : ((ان القيادات تتغير ، وان الاشخاص قد يزولون ، وتبقى القضية اكبر من القيادات والاشخاص)) . وقضت على الاثنين الاخرين ، بعدما تبادلا معها اطلاق النار ، وقتلا منها عددا قبل ان يقتلا . وكانت حصيلة مداهمة مركز الجبهة الشعبية الديموقراطية اربعة قتلى ، رشق الكومندوس الاسرائيلي مقرهم بالقنابل السامة ، بعدما اصلوه نارا قضت على ستة منه ، وانسلوا تحت جنح الظلام ، ناقلين موتاهم وجرحاهم ، ومخلفين بعض الاسلحة ، والعديد من التساؤلات ، وعلامات الاستفهام حول موقف الحكومة اللبنانية، من ترك الحبل لهم على الغارب، ينتهكون حرمة الوطن ، ويقتلون اثنين من رجال الامن اللبنانيين بلا سبب ، وينصرفون دون ان يرشقهم احد المسؤولين بنظرة واحدة على الاقل.

والحق ، ان موقف بيروت الرسمي كان من الاستهجان بحيث امتدت اليه الاصابع تتهمه بالتواطؤ ، والتخاذل ، ومحاولة ستر ما يبيت في السر والعلن ، ضد المقاومة الفلسطينية ، واغفال الدور الحقيقي لاسرائيل ، واميركا ، في محاولة تصفية المقاومة الفلسطينية ، اذا ما عجزت الرجعية العربية ، لسبب أو لاخر ، عن القيام بهذا الدور الخطير .

ولم يكن موقف بيروت الرسمي هذا بمستغرب ، بالتالي ، لدى الاوساط التقدمية ، ذلك لانه ، منذ العدوان الاسرائيلي المشهور على مطار بيروت الدولي ، الى سلسلة ما ارتكب من اعتداءات ، واغتيالات وجرائم هزت الوجدان العربي والعالمي ، وليست جريمة قتل غسان كنفاني بآخر حلقة فيها ، كان من الدلالة بما يؤكد ان بيروت الرسمية همها الاكبر ان تدعم مواقعها هي ، باطلاق النار مثلا ، على زراع التبغ المطالبين ببعض عرق جبينهم ، وعلى الاساتذة والطلاب المضربين والمعتصمين من اجل حق اعترف لهم به ، وحبس عنهم ، وعلى القوى الوطنية والتقدمية الواقفة بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه بالتآمر على قضية لبنان ، وقضية فلسطين لبنان ، وقضية العرب اجمعين ، وقد كان قصارى جهد بيروت الرسمية في تغطية العار الذي لحق بها من جراء موقفها من هذا العدوان الاسرائيلي ، ان استقالت الحكومة ، وجيء باخرى .. جديدة .

غير ان ردود الفعل ، من قبل بيروت الشعب ، كانت من العنف والجهر ، بحيث انطلقت في تظاهرة يوم تشييع الشهداء ، تسد الشوارع، معربة عن غضبها تجاه السياسة اللبنانية الداخلية والخارجية المتخاذلة ، والمكبلة بقيود فضائح سماسرة السلاح ، وما اليها ، مما جعل ويجعل الوطن بدون سياسة دفاعية ضد الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة .

لقد انبرت الجماهير اللبنانية ، اثر الجريمة السوداء ، بدافع

من تعاطفها الاصيل مع المقاومة الفلسطينية ، وانطلاقا من وطنيتها التي لا تألو جهدا في الاعراب عنها ، مبدية عميق استنكارها لخرق حرمة لبنان ، ومسخ سيادته ، وتحويله الى منطقة « حرة » تعيث فيها زبانية الاستعمار فسادا ، وتحوك المؤامرات على كل من يرفع الصوت ، ويقف الموقف الذي تمليه عليه الظروف الموضوعية التي تمر بها الثورة العربية ، والشعوب العربية التي تشكل ، بمعنى او بآخر ، فصائلها وعوامل استمرارها وانتصارها ، وقد اكدت ايام ما بعد الاعتداء على لبنان ، واغتيال بعض قادة المقاومة الفلسطينية ، على ان التظاهرات التي ملأت بالغضب والاستنكار ساحات العواصم العربية ، هي بواكير الخروج من جو الانفعالات العاطفية ، الى مجالات الوعي الموضوعي ، الذي يؤكد ان دماء الشهداء لم تهدر عبثا ، وانها بالتالي، ستكون الخمير القمين باطلاع عجين التحرر الكبير .

فاذا ما كان هذا التيقظ الجماهيري الواعي ، قد عبر وسط المأساة ، عن رغبته في تخطي الكارثة التي نجمت عن تقاعس السلطات، فحري به ان ينعكس ، ايضا ، وعيا يقظا على قيادات المقاومة الفلسطينية ، وعلى تحركاتها النظرية والعملية ، حتى تنهض بأعباء التحرر والثورة التي تنوء بها ، حتى الان ، سائر الانظمة العربية ، وتقوم بمسؤولية التصدي لاشنع فاشية في التاريخ الحديث ، بحيث لا يكون امام الجماهير العربية سوى سبيل واحد ، هو دعم المقاومة الفلسطينية بمختلف الوسائل والامكانيات ، لكي تتوضح مهمتها ، ودورها في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الامة العربية ، والثورة العربية الراهنة ، وما تعانيه من تآمر الامبريالية ، والصهيونية ، والرجعية العربية ، وضغوطها من اجل الاستسلام والتصفية ، المتمثلين بمخططات الاستيطان ، وضرب المقاومة الفلسطينية ، ومحاولة ابادة الشعب الفلسطيني ، بالتالي ، اينما كان .

كما ان التيقظ الجماهيري هذا ، قد كشف النقاب عما استتر من خفايا السياسة الاميركية في المنطقة ، وعن مشاركة المخابرات الاميركية مباشرة في اعداد الجريمة الوحشية وفي تنفيذها ، وفي اخفاء وتهريب عدد من المشتركين فيها ، وان اميركا هي الشريكة الكاملة لاسرائيل في كل ما تقترفه ضد الشعب الفلسطيني وسائر الشعوب العربية ، ومع ذلك ، يستمر توجه العديد من الحكام العرب نحوها ، من أجل استرضائها ، والتنازل لها عن كل شروط السيادة والتحرر الفعليين . كما كشف ايضا عن مطامع اميركا في احتلال مصبات النفط، وانابيبها ، وابارها ، ومصافيها ، بحجة حمايتها مما قد تتعرض له من دوافع الغضب العربي ، عندما يقرر استخدام النفط وسيلة من وسائل دعم الثورة العربية ، واستعادة الحقوق السليبة . وقد جهدت بذلك اثر اندلاع النيران في مصفاة الزهراني — قرب صيدا — ومحاولة نسف انابيب التابلاين . الا ان المقاومة الفلسطينية ، وبعض القوى التقدمية في لبنان ، بادرت الى فضح هذه اللعبة ، مؤكدة انها من اعداد وتنفيذ دوائر الاستخبارات الاستعمارية والصهيونية ، وهي ترمي ، بالدرجة الاولى ، الى التحريض على المقاومة الفلسطينية ، وضرب القوى التقدمية التي عبرت في لبنان ، وفي سائر المدن الكبرى، عن تضامنها مع فلسطين لبنان ، والمقاومة جملة ، في اكبر تظاهرة عرفتها العاصمة بيروت .

وقبل ان يجف دم شهداء المقاومة ، عادت الشوارع تتخضب مرة ثانية بالدماء . ولم تكن هذه المرة شوارع بيروت وحدها ، بل تعدتها الى عدة مناطق لبنانية . ولم يكن اعتداء اسرائيليا هذه المرة ، وانما كان معركة نشبت بين قوى المقاومة الفلسطينية وبين الجيش وقوى الامن اللبناني . اعلنت على اثرها حالة الطوارىء في كل انحاء لبنان. وفرض قانون منع التجول ، الا في ساعات معينة . كما فرضت الرقابة على الصحف . وكانت المعركة التي استخدمت فيها كل انواع الاسلحة ، كلما اوشكت ان تجد لها حدا ، يقوم ما سمي بالطابور الخامس المتغلغل في انحاء كثيرة من العاصمة بالتحرش بالجبهتين ، واطلاق النار على الطرفين ، بحيث ان المعارك كلما كادت ان تصل الى نهاية ، تستيقظ من جديد . وقد بقيت الحال هكذا زهاء عشرة ايام . تقاطر خلالها « رسل السلام » من اكثر الاقطار العربية « يلطفون الخواطر » .

واتصل بالمسؤولين اللبنانيين العديد من سفراء الدول الصديقة وغير الصديقة . وقد حسب قسم منهم ان ثمة محاولة لتصفية المقاومة على الصعيد اللبناني ، على نحو ما جرى في ايلول الاردن الاسود . وهنا تجدر الاشارة الى ان الجمهورية العربية السورية كانت اول من استفدح ما كان سيحصل ، فما كان منها الا أن صعدت الوضع باغلاق حدودها مع لبنان . واخذت صور انقسام البلد الى يمين ويسار تتوالى في مناسبات وبدون مناسبات ،حتى حسب المراقبون للاوضاع السياسية ولما يدور حولها ، ان الحال تنذر بعواقب وخيمة .

لكن هذه العواقب لم تتماد،وان بدت فادحة بالنسبة للاقتصاد اللبناني . وسبب عدم تماديها يعود الى عدة اسباب اهمها : ان المقاومة الفلسطينية في لبنان اثبتت ان علاقتها بلبنان تختلف نوعيا وجذريا عن العلاقات الفلسطينية الاردنية . وان لبنان بالمقابل لم يحاول ادماج الفلسطينيين سياسيا فيه ، او ضمهم اليه . وان مطلب المقاومة الوحيد في لبنان هو ان يناضلوا من اجل قضية وطنهم المغتصب . وان اتفاق القاهرة وسواه لم يكن يحمل غير هذا المعنى. وان الحركة الوطنية في لبنان اعربت عن تأييدها وتضامنها مع المقاومة في كل المناسبات . وان الوضع الاقتصادي اللبناني يرى ان مثل هذا التصادم بين لبنان الرسمي والمقاومة الفلسطينية سيعود عليه بالخسائر الجسيمة .

فقد قدر الاقتصاديون الراسماليون خسارة قطاع الخدمات خلال الاحداث الدامية ، باربعين مليون ليرة لبنانية ، وخسارة قطاع الصناعة بما يناهز ال ٣٣ مليون ليرة ،و٣٥ بالمئة من الانتاج الصناعي يصدر بالشاحنات عبر سوريا . وقدرت خسارة الزراعة عن فترة الاحداث بنحو ١٢ مليون ليرة . كما قدرت خسارة القطاع العام باربعين مليون ليرة . والتقدير الحسابي الراسمالي الذي وضع هذه الارقام ، اخذ بالاعتبار فقط الخسائر الآنية (خسائر ٩ ايام) وهو تقدير محدود وغير دقيق ، لانه يتناول حالة «عدم الثقة» التي اوجدتها الاحداث ، وستمتد آثارها الى المستقبل ، واذا لم تعد الامور بسرعة الى مجراها العادي والطبيعي .

وقد كانت هذه الخسائر المادية الباهظة هي التي تضغط على الفئات السياسية الاكثر ارتباطا بهذه القطاعات ، من اجل الوصول الى حل سريع للازمة ، علما بان الاقطاع العقاري والزراعي في البلاد قائم في اكثر جوانبه على اليد العاملة الفلسطينية والسورية . وهذه جميعا ، الى جانب عوامل اخرى ، ادت الى وضع حد « للحالة الحربية » التي عاشها لبنان في ظل قانون الطوارىء ، وذهبت بالعديد من الضحايا ، كما ادت الى عدم تأزيم العلاقات اللبنانية الداخلية ، والعلاقات اللبنانية الفلسطينية .. والعربية ، وكان ان انتهى الصدام بلقاء مندوبين عن السلطة اللبنانية ، وبين ممثلين للمقاومة ، فاتفاق على اعادة الامور الى ما كانت عليه قبل الحوادث المشؤومة .

وهنا تجدر الاشارة الى ان المقاومة الفلسطينية في هذه

الاحداث ، السابقة والتي تلتها، كانت محاطة بتعاطف ومساندة القوى التقدمية والوطنية على اختلاف اشتقاقاتها ، بحيث اصبحت الحال احوج ما تكون الى التأكيد على ان هذا الاحتضان وهذه المساندة على الصعيدين اللبناني والعربي ، ستظل قاصرة عن القيادة بدورها الهام اذا لم توطد قاعدة من التفاهم حول الخطوط الاساسية للوضع العربي الراهن ، ولدور المقاومة في كل من اجزائه ، وللموقف الذي ينبغي ان يتخذ ازاءه . واذا لم تعزز حملة الدعوة الى اطلاق الحريات الديموقراطية في جميع الاقطار العربية ، لكي تتنفس الجماهير وطلائعها قدر ما يجب مما يؤكد حقوقها في التخطيط وفي الممارسة على السواء . اذ كيف تتمكن جماهير الشعب من ان تعبر عن مطامحها وامانيها ، وهي في دائرة ضيقة من التقنين في ممارسة الحرية ؟.

وكيف يتمكن شعراء الامة وادباؤها ومفكروها الاحرار ، وهم صوت الجماهير ، ومفاد تجاربها ، وتمثل اعتمالاتها وانفعالاتها ، من ممارسة دورهم في معركة المصير والتحرر العربيين ، وهم مغلولو الالسن ، مطروحون على هامش المعركة ، او انهم يعيشون في غلوائها ، ولا صوت لهم ، ولا هم ينطقون ؟.

بل كيف يمكن لجميع الفئات ، صاحبة المصلحة في الثورة الاجتماعية عامة ، ان تشارك في هذه الثورة ، بدون ان تمارس حقوقها في العمل السياسي والتنظيمي ، وبدون ان تحتل مركزها في الصراع الاجتماعي لتقوم بدورها التاريخي ؟

ان اسرائيل ، بمساندة اسيادها ، ستظل متمادية في اعتداءاتها الاجرامية ، ما دامت ردود الفعل من قبل الانظمة العربية تجيء دائما ادنى بكثير من الفعل الاسرائيلي ، ان لم نقل ان : ليس ثمة ردود فعل. وما دامت الحال بالنسبة للانظمة العربية جمعاء ، هي على ما هي عليه، فان اسرائيل ستمعن في عدوانها ، وهي على مثل اليقين ان ليس ثمة من يجابه ، او يرد . وستظل تستغل هذه البلادة في الموقف العربي، بل التواطوء بشكل او بآخر وستظل ايضا مستفيدة من « جو الحياد » الذي تحاول بعض الاقطار العربية ان تصطنعه لنفسها ، وهي ، لو علمت ، المقصودة مباشرة من كل اعتداء ، والمعنية مباشرة في كل تحرك والمطموع بها دائما من خلال اي مسعى عسكري او سياسي ، تقوم به الدبيلوماسية الاسرائيلية داخل المنطقة ، وعلى الصعيد الدولي العام .

كل هذا ، والرد لا يتعدى معارك الخطب ، والبيانات ، والتجمعات والمؤتمرات التي تقوم بين القمة ، وبين القاعدة ، ولا قمة بحجم المسؤوليات ، ولا قاعدة منظمة قادرة على القيام بدورها ، بوصفها المبتدي والخبر من كل تحرك فعال ، وكل انتصار .

وكلما خلنا زمن الانفعالات العاطفية مضى وانقضى ، او يكاد ، يجبهنا الواقع باكثر من دليل يجعلنا على مثل اليقين بان العدد الاوفر من القيادات الثورية العربية ما برحت اسيرة ذهنية قاصرة ، وعاجزة عن تبني الموقف النظري والعملي الذي تمليه عليها المرحلة التاريخية التي تجتازها الامة العربية جمعاء ، على اختلاف مستويات اقطارها ، الاجتماعية والسياسية . كما انها في الوقت ذاته ، غافلة حينا ومتغافلة حينا آخر ، عن معرفة الاعداء ، وساهية عن التمحيص في موقف الاصدقاء ، وعن علاقتها بالاثنين وما ينبغي ان يكون . حتى لكأن الشكوى داء فيها اصيل ، عز دواؤه .

فما تواجهها كوارث العصر وتحدياته ، الا ونجدها تحسر عن رؤوسها ، وترفع الايدي منادية بالويل والثبور ، وكأنها كانت سلفا متأكدة من انها ماضية في سبيلها ، نحو اهدافها المصيرية ، دونما حساب لما قد يحصل ، وما قد يبيته لها الاعداء . حتى اذا ابتليت بالعدوان ، كانت وسيلتها الوحيدة للرد ، رفع القبضات وطرح الصوت على الدنيا، ورشق العدو بما توفر لديها من تهم ونعوت ... كأنما الظن بالاعداء من الحسن بحيث لا يتوقع منهم اي شر او عدوان ... ومن ثم ، التحدث عن « التخلف » وما اليه من ضروب « الكلام الصالوني » الذي تتفله السنة بعض الذين يطيب لهم تصوير الواقع المتردي ، والتأسف عليه ، بدون المشاركة في تبديله .

* * *

... وحتى لا تذهب ارواح الشهداء سدى ، ولكي لا يهدر عناد الشعب الفلسطيني الذي ، هو الوحيد الان ، القادر على ان يعوض بثباته ، عن واقع التردي الذي تتيه فيه الانظمة العربية ... يجب على المقاومة الفلسطينية ، وعلى عواصم الجماهير العربية ، وعلى لبنان الشعب ، ان لا يتخضب بعد اليوم ،ولا ينام .

بيروت — **ميشال سليمان**

مرثية بيروت الدم

« الى الفرسان الثلاثة في الزمن الذي اغتيلت الفروسيـة فيـه » .

أكذّب عقمك الموروث في ـ
دمك الذي قد لقحتـه
ذكورة الغربـاء ،
ـ في دمك الهجيـن
أضعت آخر خيط ضوء
شدّني لسلالة الآباء ـ
قلت :
ـ حبلت لكن لم يجئك
مخاضك الدمويّ ..
ـ تسعة أشهر ويجيء ..
لكن أجهضتك بنادق الاعداء ، كان
جنينـك البارود والدم ، لن
أمدّ يدي لأمسح عـن
عيونك ـ آه قاتلتي الجميلة ـ
دمعة قايضتها جثثا ثلاثا :
ـ حين تنتظرين ليـلا ..
أطفئي مصباح بيتك ،
أجمل الفرسان مرّوا ..
خلّفوا (فردان) شاهدة
لقبرك ، فاقرئي تاريخ
موتـك ...
كنت قتيلة في البدء ،
حين أضاع فيك تتابع ـ
الأدوار في الفصل ـ
الختامي الملقّن ،
عدت قاتلـة ...
ـ متى تنهين دورك ؟
ـ تغسلين يديك من

صدأ الدمـاء ..
فتهبط الاستار ؟.. تهبط
أنت يا أمّا ..
تجوع ..
تجوع ..
نلقم ثغرها الأشلاء ،
ـ لحم بنيك مرّ ـ أنت يا أمّا
تضاجع لحظة الاجهاض .. يا أمّا
تشدّ .. نشد .. آه
عذابها الأبديّ صلبانا
ظمئت ...
ظمئت ...
فاغترفي دم الشهداء

* * *

على أبوابك الاسمنت أرسم
وجهك المزدان بالألـوان ،
أرسم ثديك الحجريّ ،
أرسم بطنك الخاوي
ـ كرمل جزيرة العرب التي
سرقت أمومتها القديمة
ناقلات النفط ـ
أرسم وجهي العريان ... أصرخ :
ـ آه .. يـا أمّا
نجوع .. نذوق نحـن
مرارة الاثداء .. يـا أمّا
تجوع فتأكل الأبناء .

العراق (بدره) عبدالخالق الركابي

يرفع الستار عن رواية العروبة

« تقاسيم الى الشهيد الشاعر الفلسطينـي كمال ناصر »

١
لا تطلق العنان
لحزنك الجموح
فهذه الصحراء
لا ظل ، لا أنداء
لا عشب في السطوح
فهل تطيق شرب قهوة النسيان ؟

يا أيها الورق الساقط من رزنامـــة النزوح
حمامة في الصدر ما تني تنوح
في سرها ، ولا تبوح .

٢
يا زهر الرمان
لا ترتدي النشيج
وخلّ في الكتمان
الوجع المكبوح ، لا الخليج
يسمع مرة ولا المحيط
يرد هذا السوط .
قرنفل المساء ذابل ، وشجر الدراق
يجف في الفراق
فمن ترى يعيد خضرة الاوراق ؟

٣
يا شجر الصفصاف
قالت حبيبتي : اخاف
أن تبعد الطريق ، أن نضل
قأومات لحزنها الضفاف
وارتعش الليل
على قميصها الهفهاف

أيتها الحمامة البحريه
والزهرة البريه
ماذا يقول النهر والاغنيه ؟

٤
في الاسبوع الواحد
أفقد سبعة أيام كامله وأدور
ما بين العتمة والنور
ما بين الحر اللافح ، والبرد القارس
يا سعف النخل اليابس
لا أعرف ما أنا واجد
ناديت يا كمال ، يا كمال
يا وجه أمي الفقيد بين الموت والاهمال
لمن تغني « بئر زيت » حزنها ، يا ايها الرجال ؟

٥
طاردني « المطوعون »فـي شوارع الدمام
متهما ــ كما يقال ــ بالكلام
واليقظة التي تشع مثل شمس الظهر
لانني كتبت في الجريده
شيئا عن الصياد والطريده
وعمموا قرار منع النشر
أيتها الجرائد الصفراء
والحكم البليغة العرجاء
متى تهب فيك النار، والسماء تضاء؟

٦
يا صباح التساؤلات الجريح
هل صحيح
أن رمل الجزيره
قابل للحريق
أن بيني وبين الزمان الصديق
خطوة . أن وهج الظهيره
ليس الا ضريح ؟!
ماذا يقول في الغياب
الوطن المضرج القباب
والاهل والزيتون والتراب ؟

٧
هرولت للمدينه
الشجر المقصوف في الطريق
وهذه الزينه
تشع بالاسى العميق
وبهرج الاقواس والاعلام
ترسم في الدمام
أيقونة حزينه .
شيعت وجدي قامتي للبحر
وقلت للنوارس التي تهيم في نسيم بعد العصر
من اين يأتي كل هذا القهر ؟

٨
كالنجم القطبي وحيد وبعيد
تشربك رمال البيد
تنزف في عمان ،
وتسقط عنـــد مشارف صيـــدا ،
وضواحي بيروت
والعمر يفوت
يتسع فضاء الربع الخالي ، وطيــور البحر تموت
وتطارد في الارض العربيه ،
ترسف في أغلال الروم
افقك مغموم ،
دربك ملغوم ،
موتك معلوم
فليرفع الستار عن رواية العروبه
ولتكشف الاكذوبه
ولتكشف الاكذوبه .

محمد القيسي

الغيوم تشرب دمعها وترحل

كتبت في : عمان ـ ايلول سنة ١٩٧٠ ، بيروت ـ ايار سنة ١٩٧٣ ، وفي سائر الاشهر والعواصم العربية .

(١)

عَبرتك آسية التي تمتدّ خلف مدارها قدماك ـ آنية لدمعكَ سوف تشربها وترحل ثم ترحل في يديك جزيرة العرب .
عَبرتك جارحة مع اللغة التي دمَّرتها
وعُرضت في سوق المدينة جثة الكلمات (جنتك القديمة)
هل تظل مشرّداً ؟

في أفقر الاحياء مثل أبيكِ حين يبيع رايته ويرهن ثدي أمك بالرغيف ويشتري

سببا لحزنك او لموتك ـ سوف تلفظك المدينة او يضيق هواؤها في الصدر : لا يتنفس الفقراء في مدن النحاس ولا يسيل على شوارعها

الا لعابك : خاسرا ابدا وخاسرة دموعك حين تقذفها على المريخ تقذفها على عتبات آلهة من الخزف .

ستظل محنيًا كسارية على كل الموانىء ترتديك نوارس البحر القديم ويرتمي

صدأ الشموس الهاربات بجفنك الرمديّ حيث تعرّش الاحزان بين الدمع واللهب .

: (لا عشب ينمو فوق هذا القبر) ـ تسأل نفسها في الليل آسية وتشرب حزنها الدهريّ تترك في قرار الكأس شارتها الكئيبة ثم تشتعل .

ونبيها المقتول قبل الفجر في برّية موصولة الفلوات يركب مهره الناري ثم تضمه السبل .

هذا سرابك فوق وادي الموت لم يهطل : سرابك غيمة حجرية بيضاء قاسية .. ونعطش سيدي ونظل نعطش ثم نعطش ثم نعطش والرياح شهية

والارض ترفع ساعداً كالآه نحو الشمس تبتهل .
كل المنافذ سوف تقفلها المدينة او يصكّ غبارها شفتيك يشرب قلبك الاسفلت حتى القاع ـ لا تؤويك غير مساحة تمتد من خلفية الوطن المعلّق بين أحذية الجنود وبين ذاكرة كاحذية الجنود ـ وحين تقبل من خرائبك الشهية نحوها ،تبتلّ مثل الدمع آسية وتفتح بابها وتقول : « يا ولداه » ـ تغرق أنت في دمك الموزّع في الخزائن أو على الطرقات حيث تضمك الريح التي تؤويك والجبل .

كم ذا وقفت على ضفاف الموت ثم تكلّست حدقاتك الكروية الصفراء : لا جسد السواقي ابتلّ فيه الماء ـ لا حورية تأتي وتركض خلفها عذرية الاعشاب ، والمدن التي اكتملت بكارتها تتلمّس الفرسان والفرسان قد رحلوا

(موّال) أوف

يا راحلين ارجعوا دمعي عليكم سيل
والريح جمراً بتحرق لساني
مرهون قلبي بكم بيكل لفتة خيل
والخيل مربوطه بشرياني
تشرب غيوم السما والشمس حبة هيل
سودا كبيري بحجم أحزاني
بنقّط على ضلعي هموم الليل
بغنيلها وبحكي عن وطاني ـ

من أين تقبل هذه الاحزان حين تمرّ آسية وتنشر فوقها جسداً من الاطفال ، تلبس حزنها وتضمه مثل انهمار الماء في خلد الجزيرة حين تصرخ : «اطعمينا» ثم لا تتقدّم الريح الخبيثة لا يعود سوى الصدى .
من أيّ منعطف الجحيم يطل فارسها الرجيم ويحمل الغرباء

يغرس في جماجمهم بريق حذائه الدموي أو قطرية للدمع
هل يطأ المهاجر غير أحذية الجنود وغير سافية الردى؟
ملعونة خطوات هذي الريح فوق مقابر الأحياء والموتى
وفاجرة اصابعها التي يكتظ فيها الصوت يحتقن الصدى .

لا شيء يعبر غير آسية التي تمتدّ خلف مدارها قدماك
تسقط أنتِ في دمها
ويشتعل المدى .

محمد علي شمس الدين

صرخة .. في واد

قصة بقلم سليمان فياض

يعود الى البيت . يقف مكدودا امام الباب . في يسراه حقيبته. بسبابة يمناه يضغط على زر الجرس . يسمع صوته . رنينه يكركر بالداخل . لا احد يطرق باصابعه الباب . يتأكد انه لا احد وراءه. يعود ليقف على عتبة البيت . يسند كتفه الى رخام المدخل .

تعود البنت قادمة نحوه . في اثرها ياتي الولد . يسالهما :

ـ أين ماما ؟

يبعث بهما الى الجيران ، بحثا عن المفتاح الوحيد للباب . يعودان واحدا بعد الاخر ، بأيد فارغة .

ـ أين حقائبكما ؟

يعطيهما حقيبة . فيتسلقان باب المنور الحديدي ، ويلقيان بها، في قلب الشرفة .

يأخذهما الى الكورنيش يجلسون معا على السور الواطىء ، يسالانه نقودا للطعام ، يعطيهما ما يشتريان به بسكويتا .

تطول الجلسة ، تمضي الساعة اثر الساعة ، تنحدر الشمس في الظهيرة ، الى الافق الغربي . ضوؤها سنان ، كضوء الضحى ، لا دفء لها ، ولا برودة ،طنين السيارات لا ينقطع .

يلح عليهما ان يضع احدهما يده في يد الاخر ، ويذهبا الى بيت الخالة ، فيتغديا ، وينتظرا طلبه لهما ليعودا ، يقبلان في النهاية كارهين . كانا جائعين .

يظل جالسا وحده ، تطوف به الهواجس . الشبابيك مغلقة. ربما تكون الان مغمى عليها ، بداخل البيت ، ربما تركت مفتاح البوتاجاز دون اغلاق . ربما دخل احد الشريرين في هذه المدينة، وخدرها ، بقطعة قطن ، مبتلة ، و ..

يمضه القلق ، يسرع الى البيت ، يقف امام باب شقته ،ينادي هامسا القطة باسمها : بوسي . لا تستجيب لندائه بصوت ، يشعر ان فارا ما يلعب في عبه. يلمح ورقة على درج المدخل . يأتي بها،ويدفعها تحت عقب الباب . يشعر بالقطة تسحبها باظافرها ، يجاذبها الورقة ملاعبا ، تعود الورقة اليه ممزقة الطرف ، بآثار اظافرها ، يهدأ بالا . القطة حية ، اذن فبديعة حية ، وقد خرجت، ومعها المفتاح ، دون ان تنتظره، او تنتظر الولد والبنت . يشعر بالغضب والراحة معا .

يعود الى الكورنيش . يدخل الكازينو الاخضر .

يجلس مجهدا ومرهقا والجبين مقطب ، والفم مزقوم ، والنظرة هامدة . يضع ساقا على ساق ، يحس بهما مخشبتين ، وينسى سريعا شعوره بهما . يده تلفف بابهامها حبات مسبحة نقية الصفرة ، بعصبية ، وبلا انتظام . يرقب المشهد : مساحة ،وارتفاعا، وعمقا : احواض الزرع الاخضر وممراته . شمس خفية وراء شجرة دائمة الخضرة . ازواج العشاق ، وحركة الجرسونات النوبيين . يرقب بغير ترصد .

يستلقي النهر العريض على مقربة دانية . يجري ماؤه .يبدو باهت اللون ، راكدا ، وهامدا ،غير متكسر الصفحة . لا تومض فوقه لمعة شمس فضية ، رجراجة ،متراقصة . لا يبدو انه يجري. يبدو سجينا ، ساكنا ، كالنهر في لوحة .

اشجار الكازينو النهري ، الاصيلة منها ، تضرب بجذورها في قلب الارض ، تميل قامتها ، اغصانها الرئيسية ، تجاه النهر ، كجذورها . الاشجار عارية من كل ورقة .لا ورقة خضراء . لا ورقة جافة . لا ورقة عند الساق . تبدو الاشجار ميتة . تتقاطع الاغصان بلا اهتزاز ، او في اهتزاز ، كخطوط طفلية على ورقة رسم زرقاء ، ناعمة الملمس ، رمادية ، طباشيرية ، متسخة اللون، لكنها ناعمة الملمس ، تمتد منحنية باتساع الافق . اشكال هندسية، زخرفية ، لا نهائية ، للاغصان السميكة ، والرفيعة . ترتد كل الاغصان الى اصل واحد : الفرع ، والفرع للساق ، والساق للجذر، والجذر للشعيرات،والشعيرات للارض ، والارض للنهر . كل الاغصان، لجهة في الفضاء ، تشير وتومىء . لا تلتقي لها ايماءتان . كل ايماءة تبتعد عن الاخرى ، كلما ابتعد بها المسار ، في الفراغ العالي، العالي. تبدو الاشجار حية ، مع انها بلا أوراق ، وعارية من كل ثوب ، فقدت زهورها البيضاء والحمراء ، تيجانها الملونة الفزيرة،مع الخريف ، فقدت اوراقها ،كل اوراقها ، حتى الاوراق الجافة ، على الغصينات ، وحول الساق ، مع الشتاء . تبدو حية ، وجمالها لا ينفد ، تتواثب فوقها من غصين الى غصين ، من غصن الى غصن، من فرع الى فرع ، طيور ملونة، تتقافز ، ترفرف رفرفات قصيرة ، كسلى ، ثم تقبض ارجلها بمخالب كالكلابات . آوه . الالوان والجفاف. الحركة والسكون . اين تكون الست قد ذهبت ؟! .

للكازينو سور على الشاطىء . للسور افريز من الحجر ، توازيه انابيب مجوفة ، تقبض عليها سجف من العوارض الحديدية ،تحاذيها شجيرات دائمة الخضرة ، قميئة ، ومقبرة ، عند السور اشجار

مخروطية ، اوراقها كالشعر ، والابر ، وخطوط القلم الفوضوية ، في يد طفل ، خضراء ، خضرتها رمادية مغبرة . أحداها في مواجهته . قرب اعلاها فجوة فاغرة من الاغصان ، واوراق الشعر ، يقترب منها قرص الشمس ، قادمة من الجنوب الغربي ، فتزداد الفجوة توهجا ، تضغم بضوء خاطف تلعين ، تتلاشى درجاته الساطعة ، من الابيض ، الى الطباشيري ، الى الرمادي ، الى الازرق الشاحب ، وتذوب بعيدا عن الشجرة ، بعيداً عن البيت .

يأتي الجرسون بالقهوة في فنجان أبيض ، كالشمع . يغطيه بالطبق ، وينهض . يتلفن من الكازينو الى بيت خالة الاولاد ، الى بيوت صديقات بديعة . لم يرها أحد .

تطوف برأسه احتمالات عديدة : تليفون خادع ، زيارة مفاجئة للمستشفى . يعي أن ما بجيبه من قروش ، لا يسمح بذلك ، يفكر انه يتعجل ، وأن عليه أن ينتظر . ربما سافرت على غفلة ، مع صديقتها الميسورة ، المتقلبة المزاج ، الى العذبة فجأة . نسيت المفتاح داخل البيت ، أو أخذته معها ، أو ظنت انها ستعود قبل عودة الولدين ، وعودته ، يعاود الجلوس ساخطا ، ويرفع الطبق عن الفنجان ، ويرشف ما بقي من وجه القهوة .

على الشاطىء المقابل ، في الضفة الاخرى ، تنتصب العمائر ، رموزا جنسية لاعضاء التناسل ، كالبرج المزركش الوحيد ، والمآذن المنقوشة الالف . شرفات العمائر عيون . غرفها أقفاص عصرية ، مفروشة بفاخر الرياش . أسطحها نهايات مبتورة ، متراوحة الارتفاعات ، والمساحات ، كأقدار الخلق في المدينة . كتل من الحجر صماء ، كقلوب اهلها ، تراصت عرضا وطولا ، حفرت فيها بلا ذوق ، وبتفكير تجاري خانص ، فجوات ودهاليز . ظاهرها الغليظ خير من باطنها ، باطنها خير من قلوب أصحابها . بينها ركامات من الاشجار دائمة الخضرة ، مرمية كالليل ، مغبرة ، حائلة الالوان ، متربة ، من رمال الصحراء التي هبت بالامس ، وقبل الامس ، وسوف تهب في غد الامس ، من عارم السيارات التي تتضاعف في كل عام ، طاردة البشر من الطريق ، الى الارصفة ، والطرقات الجانبية . تبدو للعين ، بأماكنها الشاغرة ، كأنها تسير وحدها ، بلا ركاب ، ولا سائق . بينها كرمة ابن هانىء ، فيلا من طابقين ، منحف مهجور ، حمرته طوبية . افاريزه بيضاء ، ناشزة ، تند عن جاراتها . نادرا ما تمر امامها سيارة ، او يتوقف زائر . الولد والبنت ، الان ، عبرا القنطرة ، يعبران الطريق . السيارات تنتظر مرورهما ، رجل المرور منتبه الان اليهما ، تاتي سيارة مسرعة ، متجاوزة الاشارة الحمراء . يوشك أن .... يوقفها في خياله فجأة ، فتصاب بانشلل . لا ترتج لتوقفها المفاجىء . لا تخضع لقوانين الحركة .

على النهر قنطرتان ، طويلتان ، عاليتان : قنطرة من حديد ، قنطرة من اسمنت ، الحديد صاغه « كروب » . الاسمنت صبه «عثمان» . في النهر ، ترسو الى الشاطىء ، قوارب ، وضعت ، ونسيت ، لم تفارق مكانها ابدا . ترسو عوامات ، تضيء بعض نوافذها ليلا ، للكأس والانثى ، الان ، هي مهجورة ، هي منسية . أتكون بديعة هجرته مع .. لا احد من معارفه ، او معارفها ، يقبل هذا الدور . أنضج جميعا من المغامرة . بينه وبين بديعة ما هو أقوى من الحب : الصداقة . لو كانت ستفعل لصارحته جهارا نهارا . تعلم انه لن يقف دونها . تملك دائما خيارها وحريتها . يقول لنفسه : ما جدوى ان تبقى امرأة في قيد لا ترغبه ، ان يبقى رجل في سجن لا يحتمله . لو كانت قد فعلت ، فسيبقى ذلك القارب المهجور في النهار ، تلك العوّامة بأضوائها الحمراء في الليل ، ولون الكأس الذهبي ، وطيف بديعة .

تغرق الشمس المرئيات ، في فيض ضوئي ، بلا سحب ، سكون بلا حركة ، بل حركة بلا رغبة ، تزحف بكسل ، تخط هامدة ، تؤثر الصمت والركود . تستسلم للاجهاد ، والارهاق ، العمائر ، والاشجار ، والقوارب ، والعوامات ، ومياه النهر ، وازواج المحبين والعشاق في الكازينو ، حتى الشمس تتحرك ببطء مستريح ، حتى الاطيار وثباتها قصيرة ، قفزاتها قليلة ، رفرفتها واهنة ، لا تكاد تهم حتى تتجمد مرهقة ، على أقرب غصن ، برهة ، وربما لحظة ، وربما ظلت ساكنة الحجر .

فجأة ، سكنت الحركة . سكنت الاشياء والاحياء . ازدادت سكونا كأنما تجمدت . اصيبت بالخرس ، هجعت الحياة : الجرسونات ، وازواج العشاق ، والطير ، وهو .. منبهرة ، في لحظة ترقب ، مستسلمة للاشيء . ازدادت السماء قربا من الارض . لونها الطباشيري المفاجىء جعلها قريبة من الارض ، ضوؤها ، والزاوية « الصدفة » التي يجلس بها . لا يرى الشمس . يحدق باستسلام مسحور للحظة ، للشجرة المجاورة العارية الاغصان والتفصينات ، للشجرة المخروطية ، ذات الاوراق الشعرية التي وراءها ، على مقربة ، بجانب السور ، للفجوة العارية منها ، والتي تقترب منها الشمس ، وتسكب عبرها درجات الضوء الابيض ، والضوء الازرق ، تسمناء وراء الشجرتين ، وعبر الفجوة . يتوقف الزمن ، ينضغط المكان ، تتقارب الاشياء كأنها وضعت على باطن كف ، مرفوع امام عين ليحجب الضوء ، يخافت من وهجه الساطع على عدسة العين .

يبدو المشهد أسطوريا ، وخرافيا ، وساحرا . لم تفلح في سجنه يد . نادراً ما تشهده العين . ما تقدر الذاكرة على استرجاعه . ما يواتي احدا الحظ ، ليراه مرة في العمر ، تصبح السماء لاصقة بالشجرتين ، والفجوة ، وشمسها لا تلمح من مجلسه . ارضية المشهد ضوء فضي ، تصويري ، طباشيري ، باهر الالق والسطوع والوهج والوميض . تنطبع عليه في الصورة ، لاصقة به ، في الوهج الذائب ، الاغصان الجافة ، والهامة المخروطية الشعرية الورق ، والطيور المتجمدة ، المنبهرة والمسحورة ، والفجوة تضوي ، غارقة في بؤرة الضوء التصويري ، تضوي مستسلمة ، روحا نورانية ، لحظة تجلّ فوسفورية ، بارقة انكشاف . يود لو يسكن كل شيء الى الابد ، في تلك اللحظة . لو تبقى الشمس لا تتحرك ، النهار لا يتحول . الليل لا يأتي . الاطيار لا ترفرف . العشاق لا يتكلمون . لو يدوم المشهد القصديري ، دوام مدينة الامير يوسف ، المسحور حجرا ، هو ومدينته . يحدق في بهر لا تطرف معه العين ، لا يتحول الوجه ، يخشى لو فعل ، أن يذهب المشهد كله في لمحة ، ان حرك رأسه ، او حرف وجهه ، أو غيّر المقعد ، او تململ في الجلسة ، او انزل ساقا عن ساق ، او حرك اصبعا بحبة مسبحة . يخطط فقط ، بلمحة ، نظرة متلصصة ، الى ساعة اليد ، اليوم الثاني عشر من مارس . الساعة الخامسة الا خمس دقائق . تكن الاميرة التعيسة الحظ ، تحرك يدها بالمروحة ، تنفخ في البخور ، تتمتم بالتعاويذ ، تندب الحياة في الحجر ، الحركة في السكون ، الصوت في الصمت ، يعي بخيبة امل ، أنها لحظة عابرة ، صنعتها الشمس ، صاغها الطقس ، والزاوية التي فيها يجلس ، والشجرتان ، والفجوة ، والاغصان الجافة ، وسكون الطير ، وعينه التي تنظر ، وروحه التي تجف عطش ، ومشتاقة . لا يدوم المشهد سوى لحظة كالبرهة ، ويتحلل . يعود الزمن ، ويستيقظ المكان ، فيرفرف الطير ، وتعبث الاصابع بالمسبحة ، ينقسم المكان ، فتضيق الفجوة ، وتتباعد الشجرتان ، وتتكور اللوحة والمشهد ، وتاخذ المرئيات عمقا كالذي كان ، تجسيدا كالذي حدث ويحدث .

تلقط عيناه يمامتان ، تراهما تتبعان احداهما الاخرى . الانثى فالذكر ، أو الذكر فالانثى ، تنقران بمنقارين رماديين : حصى الارض ، أعواد الحشائش ، نقد ماء لم يجف بعد . كلما خطت اليمامة تأرجحت ، على خفتها ، كالبطة ، تهادت مهتزة العنق والرأس ، يتذبذبان

فكانهما يجذبانها الى الامام ،او يوقفانها ، كأنهما الطافــــة والدفة . يحدث نفسه : وليفان . ثم يهجر احدهما الاخر بعد. كم يخشى ان تهجره بديعة !.

يشعر بالبهجة ، ورائحة الارض ، بالاجهاد يذوب ، والارهاق يتلاشى ، يغمض عينه ليستعيد المشهد الراحل . يحتفظ بذكرى اللحظة الماضية القريبة قبل أن تمضي . يشرب المشهد على مهل . يحاول يائسا ان يذكره الى الابد .

يغفو مع المشهد ، يفلح في استعادته ثم يتبدد . يسقط في جب بلا قرار . يحس بالقهوة قد تحولت في معدته الخاوية الى مخدر . تلوح له بديعة ، ساحرة العينين، لوجهها هالة الطيف . يحاول ان يخرج من الغفوة . عبثا يحاول . يسحب النعاس كل ذرةفيه. يستسلم له في سكون . يود لو يسمع ، في تلك اللحظة ،صوصوة عصفور .

يرنو الى كلب الكازينو وقطته . ترنو القطة اليه مترقبة ،وجلة، مستفزة ، خائفة ، في شعب ورغبة . يأتي الكلب بحركة من يهم بالهجوم ، لكنه لا يهجم . القطة تدرك ذلك ، فتظلواقفة ،متوفزة، تهز ذيلها ، كأنها تتحدى . يربض الكلب في مكانه . ثم يقعي ، ناصبا أذنيه ، ناظرا اليها ، ثم يرخيهما ، مريحا جسده ،ثم ينسى احدهما الاخر ، ويستسلم في أمن ، للكسل ، يحس في داخله انه يبتسم . لا يذكر أن احدهما قد نبح مرة ، أو اطلق مواء ، كأنما فقد كلاهما صوته من طول ما صرخ .كف الكلب عن ان يكون كلبا، والقطة عن ان تكون قطة . فقدكلاهما المخلب والاظفر . توقف هارون الرشيد ، عندما شاخ ، عن أن يكون رجلا . تابت زبيده على أن تظل انثى مذ هرمت . يظل كلاهما يرنو الى الاخر . في عجز يرنو . يتوق كلاهما الى الغناء ، والرقص ، عاريين ، صديقين، وحيدين . حلمهما لا يتجسد ، والرغبة عنيفة . يرنوان . يظلان يرنوان ، كما الكلب والقطة .

يرى نفسه فجاة في قلب واد ، لا زرع فيه ولا شجر ، لا ماء ولا ثمر . ذيل الوادي ينطرح بعيدا خلفه . رأس الوادي يمتد بعيدا امامه . يرى الوادي كله من الاقصى الى الاقصى ، كأنما في لوحة، كأنما في قبضة . رأس الوادي يفتح ذراعيه ، فخذيه ، وهو بين هاتين الذراعين ، الفخذين ، واقف .

يبدو الوادي ارضا صخرية ، ملونة بألوان قوس قزح ،كلى باطباق زاهية ، في عيني مسطول : زرقاء ، حمراء ، خضراء ، صفراء ، كحلية ، بنية ، بكل الدرجات والمشتقات ،ليس بينها قط اللون الابيض ، ولا اللون ، الاسود .

تحيط بالوادي هضاب عارية ، الا من الالوان الموجائية،والطحلبية كأنها في قاع بحيرة ، جعلتها التيارات البحرية ، من حولها، في المحيط اللجي ، بلا زمن ، ساكنة ، بلا حركة . هامدة بلا نأمة. في نقطة التعادل ، بلا كيف ، ولا جهة .

يصرخ بلا صوت . يصرخ في الوادي مناديا : بديعه . بديعه . في داخله يسمع الصوت يضج عاليا ، مدويا ، عاديا . تتردد اصداء صرخته ، من الهضاب ، والصخور ، من كل بعد ، من كل قرب ، متعددة الدرجات ، أصداء صماء : بديعه . بديعه . وبديعه تلوح له سرابا في صحراء ، طيفا في منام ، حلما في ارض خراب ، هضابها طحلب ومرجان ، صخورها ألوان ، يسكنها الصمت ، والرعب ، والخراب . يعاود الصراخ بلا صوت : بديعه . بديعه . ويوسف المسحور يظل حجرا في المدينة المسخوطة ، فبديعة ما تزال غائبة ، غافية ، مهاجرة ، هاربة ، منفية ، نائية وبعيدة ، عن مدينة الاحجار ، بلا عش ، بلا دار .

يجد نفسه في غرفة طينية الجدران ، معتمة . ضوؤها بخار مضبب . يحس بأشياء غير منظورة في الحجرة : حصيرة ، ومرتبة، ووسادة . يشعر ببديعة في الغرفة معه ، ولا يراها . يتيقن انه موقوف في هذه الغرفة من قديم ، والى ما لا نهاية . متجهم ومهموم . يفتقد وجود الولد والبنت ، لكنه لا يكترث لذلك . يظل واقفا في الضوء الخصيب ، بلا انتظار ، ولا مطمح . يسمع دقا على الباب . يحس فجاة ان ثمة بابا لهذا المكان . ينظر نحو الباب كما لو كان يعرفه من قبل . بلا خطو ، بلا حركة ، يتقدم ويفتح الباب ، يرى امامه رجلا اسود ، ليس فارع الطول ، مكتنز الوجه ، بارد الملامح ، حجري العينين ، يلبس بدلة . لا تعكس بشرته انفعالا ما . يشير اليه فلا يرى يده . يسمع صوته دون أن يفتح فمه :

ــ هذه حاجتك ؟

ينظر الى حيث يشير . يرى بجانب قدم الرجل على الارض ، كيسا متوسطا من النايلون ، بداخله زجاجة من البلاستيك ، لها غطاء أحمر . الكيس خال ، والزجاجة فارغة ، يحس بالضوء معتما . يشعر ان المكان اكثر تحققا من غرفته . يرفع رأسه ويقول للرجل :

ــ لا .

يشعر ان مع الرجل رجلين آخرين . يحس بهما موجودين معه . يحسب انهما في ملابس الجرسونات . يراجع نفسه ، في انهما يرتديان حقا ملابس الجرسونات . يقول له الرجل :

ــ تعال معنا .

يجد نفسه لا يملك قدرة على سؤال ، او معارضة . يخطو معه خطوة ، ثم خطوة ثانية . يتوقف الرجل ، فيتوقف معه . يقول له الرجل :

ــ اجلس .

ينظر اليه مستفهما . يقول له الرجل آمرا ، بدون كراهيه ، أو محبة :

ــ اشرب قهوتك .

ــ لكنني لا أريد ان اشرب قهوة .

يقول له الرجل آمرا ، ومنذرا :

ــ اجلس . قلت لك . واشرب قهوة .

لا يجلس . ينظر امامه عند القدمين . يرى رجلا أسود في جلباب ابيض . يتعمم بشال . امامه موقد جاز مشتعل. لا يسمع لهوشيشا. فوق الموقد غلاية ماء . يرى يدي الرجل ممدودتين فوق ركبتيه ، في جلسته القعية . يظل واقفا . يشعر أنه لو جلس فسوف تحدث كارثة. سيقتله الرجل الواقف بجواره في الحال . يفكر ان يهجم على الموقد ، ويضرب وجه هذا الرجل بناره ، في عينيه . سيصرخ في الحال . لا يفعل ذلك . يفر فقط من امامه . يخطو خطوة ، فيرى درجات سلم طينية ، قليلة العدد ، يرتقيها كمن يطير ، بلا وطء . يجد نفسه فوق سطح بيت من طابق واحد . السطح أملس ، أبيض ، مغبر . فوق السطح يشهد فجاة ملعبا للكرة ، يجري فوقه لاعبون ، يحيط بهم متفرجون . يسمع ضجة داوية للعب ، للكرة ، للاعبين ، للمتفرجين . يدهش لان السطح محدود المساحة ، ويسع كل هذا الجمع . يشعر بالرعب للمشهد . ينتبه الى أن السطح بلا سور . يدرك ان الكرة لا تسقط بعيدا عن السطح . يتعجب لان الملعب بلا شبكة ، ولا قوائم خشبية ، ومع ذلك يلعبون . ينظر من حافة السطح ، فيرى تحته ابوابا قديمة ، رطبة ، بعضها مغلق ، وبعضها مفتوح . يصدر عنها أزيز نار مكتومة ، تهدر ، يشعر بأن تحت المكان مستوقدا للفول . لا يطيق

احتمالا . يهبط مسرعا درجات الطين . يفكر ان بديعه بالغرفة ، وان الرجل ربما ذهب اليها . يسرع نحو الغرفة ، لكن المشهد كله يختفي به ، دفعة واحدة .

يرى غابة خضراء ، واسعة ، خضرتها قاتمة ، نضرة ، زاهية ، كأنما اغتسلت لتوها بمياه المطر ، في الغابة شجيرات ، ونهر ، وجدول مبطن بالاسمنت ، واشجار متنوعة لا يعرف لها اسما ، واشجار اخرى يعرف ان اسمها المطاط . يحس بالارض تهتز من تحته ، يبتعد الى الخلف . يرى الارض تتحدب الى أعلى ، تتقلص ، وتتشقق ، كأن عمالقة يخرجون من جوفها . يرى نملا ضخما يخرج من باطن الارض . كل نملة بحجم قبضة اليد . يعي انه النمل الابيض . يدرك ان لونه ليس ابيض . يرى جيوشا تزحف كتلا بغير نظام . تأكل كل شيء . يشهدها تترك الاشجار بلا ورق ، ولا لحاء ، يرى الارض ، من وراء زحفها ، مجدبة من كل نبتة . يرى قاربا على حافة النهر ، لم يبق منه سوى عوارضه الخشبية . يعي ان الواحه قد أكلها النمل . يرى فوق القارب هيكلين لرجلين ، كانا نائمين ، وجردهما النمل من اللحم ، فلم يبق منهما سوى العظام . يفكر ان النمل سيأكل الغابة . يراه يزحف ، يزحف ، صاعدا ، هابطا ، منتشرا ، في دأب نهم ، لا يشبع ابدا ، لا يكبر ابدا ، لا تهلك منه نملة . يتمنى نارا ليحرق النمل ، فلا يأكل الغابة . سيلا يغرق النمل ، فتنجو الغابة ، يتذكر بديعة . يراها هائمة في الغابة ، ماثلة في كل شجرة عارية من الورق . يصرخ ملتاعا ، مستنجدا : بديعه .. بديعه . يدوي الصوت . يمتصه الفضاء الاصم .

يفتح عينيه . يحس بنفسه لاهث الانفاس ، منسحقا رعبا ، مطحون الجسد . يرنو الى الشجرة العارية من اوراقها . يرى قرونا مثل قرون الخروب ، قرونا كبيرة جافة ، مسودة ، تتدلى من اغصانها. يجد الشمس قد سقطت وراء الشجرة المخروطية ، الشعرية الورق تقارب العمار على الضفة الاخرى . صارت مريضة ، مصفرة الوجه ، بلا شفقة . ضوؤها صار اصفر فاترا . يحس بلدغة في عنقه . يرفع يده ليدلكها . تلمس اصابعه نملة ، يعود بها ، ويسحقها امام عينيه . يحس بأخرى تمشي على ساقه ، داخل جوربه ، وعند ركبته ، وفوق صدغه ، وتحت شعره . يروح يطهر نفسه باحثا عن النمل . يرى المنضدة يتناثر فوقها النمل . الارض ، تحت قدميه ، يزحف فوقها النمل ، في دأب . ينفخ النمل من فوق المنضدة . يسحق النمل على الارض بقدميه . يرى النمل يزحف متسلقا ساق الشجرة ، حول طلائها الجيري الابيض . يطير خيط عنكبوت ويلتصق بوجهه . يفكر ان بديعة ربما لن تعود الى البيت ، واذا عادت ، فمن الذي يضمن انها لن تكون فريسة ، لهذا النمل ، هي ، والولد ، والبنت . رأى اكثر من لدغة على الولد والبنت ، وهما مستيقظان في الصباح ، وشاهد مؤخرا في البيت اسراب هذا النمل ، تمشي على البلاط ، والخشب . تظهر من وراء السجن ، وتطل من تحت الافاريز ، وتختفي بين الالواح ، وتسرح في تراب الاصص ، آكلة جذور الشجيرات المزهرة، حتى جفت . يقتلها بالمبيد ، ويغرقها بالماء ، لكن اسرابا غيرها تأتي دائما ، كأنما الارض قد صارت مخزنا لهذا النمل ، لا ينضب له مدد .

القاهرة — سليمان فياض

صورة شخصيّة للسّيّدة ص.ك.

الآن أنت في نيويورك ،
قضيتِ سهرة طائشةً ،
ثم خرجت تبحثين عن هلال رمضان
في الرقع التي تبقّت من ثياب الله ،
فوق الناطحات ، والدمى
واللافتات ، والدخان !

كان السرير خشبه
وللمراهقات أجساد كأجساد المطليين ،
كان القرد والجنرال في البهو يتوّجان ،
والغزال والثورة يسقطان فوق الحلبه
قبل بداية الرهان !

وكنتِ تشتهين في السر نيويورك وتكرهينها
وكنتَ في الوحشة تسألينها
« ماذا تبقّى لحصان العربه
بعد نفاد الشهوات كلها ؟! »

*

تروين حلما غامضا ،
وتتبعين الشاعر الصعلوك في الليل ،
تغنين له موشحا أندلسيا ،
ترشقين كالهنود الحمر ريشا ،
ترقصين الدبكه
وتسقطين منهكه !

وانتِ في طوافك الليلي تدلفين للمسجد خلسةً ،
وتشعلين شمعة لخدّام المكان
« احكي لنا أيتها الشابة أخبار الزمان ! »

كان الطريق متربا ،
الآن أنت في دمشق
وعجلات المركبه
تفترس العشب ،
وللبلاد وجه غير وجه أهلها
والشمس ملقاة بلا ظل ،
وكان البدو يعدون وراءنا ،
ملوحين بالبضائع المهربه !

وكنت كلما هممتِ بدمشق ،
واشتعلت بدمشق
انقشع الحنين عن هروب أصداء المصلين القدامى ،
وانطفاء الشمعدان !

*

الآن أنت تدخلين القاهره
ترتجلين كل يوم مشهدا ،
وتضعين كل ليلة قناعا ،
تصبحين قطة وتتمسحين فينا ،
ذئبة وتنهشين لحمنا ،
وبومةً ،
وتصبحين عندليبا .. تقعين فجأة ،
وتفقدين الذاكره !

ها أنت تفتحين عينيك على وجوهنا للمرة الاولى
وها نحن عرايا
ليست الحرية الشيء الذي نطلبه الآن ،
بل النوم ،
وليس المجد .. انما الامان
تلك هي الارض التي عاد اليها الصيف ،
والشمس التي تبرد عاما بعد عام ،
ويقال ان ما بين المحيط والخليج جنتان
كانت القهوة سمًا ،
والعيون مذنبه
والماء لا يغسل ،
والقهر أزاهير على الوجوه خضر ،
والاكاذيب لعاب نازل على الذقون
والمخافات ترفّ كرفيف الاغربه
(والمهل يغلي في البطون) !

ها أنتِ قد فزعت !
وانطلقت نحو النيل تشهدين في صفحته ،
ما صنعت بوجهك العدوى ،
وها أنت رأيت وجهك الضائع فيه
ودخلت التجربه !

*

لقيتها آخر مرة باحدى المدن المضطربه
. . . .
واتهموها بالجنون !

القاهرة

احمد عبد المعطي حجازي

كان موقفهم شراعا ...

بقلم حسين مروّة

ان يدخل مؤتمر الادباء العرب ، في تونس ، دعوة لنصرة حرية الفكر ، وحماية هذه الحرية ، في البلدان العربية — امر مؤسف ، موجع ، مذهل .

وان يكون صوت اتحاد الكتاب اللبنانيين في المؤتمر ، هو صوت هذه الدعوة ، ان يكون اتحاد الكتاب اللبنانيين ، هو هذا الفدائي الشجاع الجسور المقاتل في ساحة المؤتمر وحده لنصرة حرية الفكر ، لحماية حرية الفكر من اعدائها « الجدد » والقدماء في ما بين « الخليج والمحيط » ان يكون وحده الجبهة الساخنة في جبهة « اللاحرب واللاسلم » الجليدية — كل ذلك هو الامر الاخر من المسألة. هو الوجه الاخر الذي تستقبلنا به المسألة لتطرد عنا وحش الاسف والوجع والذهول . هو الموقف الاخر الذي نهض في المؤتمر شراعا يجلد بجناحيه كثافة المستنقع اللزج ، ويدفع الريح دفعا الى بحيرة السكون الخانع، ويقتحم جليد الصمت البليد المتراكم . الصمت حيال انتهاكات شرف الانسان ، في اكثر من بلد عربي ،« من الخليج الى المحيط » ، في هذه الايام على الاخص .

نقول : في هذه الايام على الاخص ،اي في هذه اللحظة من زمان المحنة العربية التي طالت ، ويريدونها ان تطول قدر ما يستطيعون . هذه اللحظة ذاتها التي يتحرك فيها جبل الصبر ، يتحرك من أبعد اغواره يتحرك .

« هم » يعرفون ان جبل الصبر يوشك أن ينفجر و « هم » — لانهم يعرفون ، ولانهم خائفون — نراهم « يزرعون » في جلودهم المرتعشة ، من الرعب ، ريش « النسور » لعل الوهم ينفخ في « الجراب » قوة النسور. حتى الذعر المرتعش في جلودهم يتوهم ان تكسير الاقلام، وحبس الافكار، وذبح الثوار ، وكبح طماح الثورة في الجماهير ، وقمع انطلاقاتها الى ما وراء الليل الطويل — حتى الذعر المرتعش في جلودهم يتوهم أن هذا كله يمكنه ان يمنع جبل الصبر المتحرك ، ان يتحرك ،وان ينفجر.

انتهاكات شرف الانسان ، في اكثر من بلد عربي ، تجري ، هذه الايام ، صنوفا واشكالا ،بعضها قديم « مجرب » ، وبعضها جديد « يجرب » . ولكن ، بين هذه وتلك نجد دائما قضية الفكر ، قضية حرية الفكر والقلم ، تتخذ شكلها « الثابت » : اما كسر اليد والقلم ، اذا اصر الكاتب او المفكر ان يظل صديقا لشرف الانسان، اي صديقا لمطامح جماهير شعبه في الديموقراطية الحقيقية : ديموقراطية هذه الجماهير ذاتها . لا ديموقراطية سارقي خبزها وآكلي لحم سواعدها .

واما مسخ اليد والقلم ، اذا « رضي » الكاتب او المفكر ان يبيع بـ « الفضة الثلاثين » صداقته لشرف الانسان ، اي صداقته لمعنى شرف الكلمة ومعنى شرف الحرية ومعنى شرف الفكر . فهو حين « يرضى » هذا « الرضى » — العار ، انما تنمسخ يده فرشاة لجبة السلطان ، وينمسخ قلمه ريشة لتجميل وتلميع لاظافره — اظافر السلطان — وهي « تفرم » شرف الانسان .

ان يكون صوت اتحاد الكتاب اللبنانيين وحده الذي اقتحم جليد الصمت في مؤتمر الادباء العرب : الصمت حيال انتهاكات كرامة الفكر والقلم وحريتهما في اكثر من بلد عربي ما بين « المحيط والخليج » — ذلك امر يحمل ألف معنى ، ويستثير الف سؤال .

لندع ، الان ، كل معنى وكل سؤال يتصل بصمت الاخرين . ولنكن ، الان ، مع الصوت الذي وحده حطم الجليد ، وخرج ، وما خرج انهزاما بل اندفاعا الى حيث نهر الحياة « يجري » بعيدا عن دائرة « الجليد » .

وهنا سؤال وحيد الان .

من اين يستمد اتحاد الكتاب اللبنانيين قدرة الاختيار الصحيح في مثل موقفه الشجاع من مسألة الحرية ؟

هنا منبعان أصيلان لمثل هذا الموقف : اولهما ،تراث كفاحي فكري يصل بين شيبنا الوطنيين وجيل الكتاب والمفكرين اللبنانيين طلائع النهضة العربية الحديثة ، ومن سار مسيرتهم بعد ، جيلا أثر جيل . تراث جوهره الاساسي : عشق الحرية حتى الفداء ، وان حرية لبنان وحرية سائر بلاد العرب واحدة ، لا اثنتان .

اما المنبع الثاني ، فهو تراث كفاحي شعبي تكدس، كميا ونوعيا ، في معارك النضال المتصلة منذ اجيال بعيدة حتى هذا الجيل : اما في كسب حرية مسلوبة ،واما صيانة حرية مهددة بالاستلاب ، كما هي معركة شعبنا في لبنان اليوم .

ان جوهر التراثين واحد . انهما ينصهران الان معا في المعركة اللاهبة ، هذه الايام ، على الصعيد اللبناني ، دفاعا عن حريات انتزعها شعبنا أقساطا في مدى اجيال طوال ، وانبتها في ترابه الوطني اغراسا من الدم والعرق.

ان روح هذه المعركة بالذات ، بكل ما ينصهر في لهبها من وهج التراث الكفاحي ، كان يرافق وفد اتحاد كتابنا الشجاع الى مؤتمر الادباء العرب في تونس ، وكان يلهمه : ان حرية الفكر لا تتجزأ . ان حرية العرب لا تتجزأ . ان حرية الشعوب لا تتجزأ . ان الكفاح لحرية الانسان ، هو معنى شرف الانسان .

حسين مروه

معركة حرية الفكر العربي

معركة حرية التعبير التي يخوضها المثقفون العرب منذ سنوات طويلة . وسيظلون يخوضونها الى سنوات طويلة، منحها وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين دفعة جديدة الى الامام بالموقف الذي وقفه في المؤتمر التاسع للادباء العرب الذي انعقد في تونس في آذار الماضي ، حين انسحب من المؤتمر ثم من الاتحاد العام للادباء العرب احتجاجا على موقف المؤتمر من قضية اضطهاد حرية الفكر في العالم العربي .

وقد أثار بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي نشر في لبنان فور عودة وفده من المؤتمر اهتماما كبيرا في جميع الاوساط الادبية اللبنانية والعربية ، وتسابقت معظم الصحف العربية على تحليل البيان والتعليق عليه وأخذ الاحاديث من اعضاء وفد الاتحاد حول موقفه وما سيتخذه من خطوات مقبلة .

ويهم « الآداب » ان تنشر فيما يلي ملفا كاملا عن وقائع المرحلة الجديدة من معركة حرية الفكر العربي كوثيقة تاريخية يرجع اليها مؤرخو الادب الحديث .

١ . أحاديث أعضاء الوفد اللبناني

قصة الخلاف ...

نشرت جريدة « لسان الحال » اللبنانية في عددها الصادر يوم ٢٨ آذار (مارس) الحديث التالي :

روى الدكتور سهيل ادريس الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين حقيقة الخلاف الذي حدث في المؤتمر التاسع لاتحاد الكتاب العرب في مدينة تونس بين الوفد اللبناني للمؤتمر وبقية الوفود الرسمية من الدول العربية حول قضية اضطهاد المفكرين والادباء والفنانين العرب .

ويقول الدكتور ادريس ان وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين الى المؤتمر حمل معه مهمة اثارة موضوع الاضطهاد والقمع الفكري في اي بلد عربي. وكان الوفد مؤلفا من الدكتور سهيل ادريس الامين العام للاتحاد ، احمد ابو سعد ، ادونيس ، خليل حاوي ، ميشال سليمان ، ميشال عاصي وانطوان ملتقى .

ويتابع الدكتور ادريس قائلا ان رسالة اتحاد الكتاب اللبنانيين هي اثارة كل قضية اضطهاد فكري وادبي . والاضطهاد ضد الذي ينال من الادباء والمفكرين في بعض البلدان العربية كالمغرب ومصر والبحرين ، املى على الوفد اللبناني الدعوة في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الى ميثاق شرف يتعهد به الادباء العرب بالدفاع عن حرية التعبير في كل بلد عربي يمكن ان يضطهد فيه الفكر او يقمع او تحد حرية الادباء فيه .

ويستطرد الدكتور ادريس انه تحدث عن مفهوم الوفد اللبناني لحرية التعبير وواجب اتحاد الكتاب العرب في الدفاع عن كل اديب او فنان مضطهد . واذ ذاك طالب الوفد اللبناني بارسال برقيات الى كل من حكومات المغرب ومصر والبحرين حيث هناك شكوى من اضطهاد الادباء . وبالرغم من ان معظم اعضاء الوفود العربية كانت تؤيد الوفد اللبناني وتقدر له هذا الموقف المشروع ، فان رؤساء الوفود العربية لم يوافقوا على اقتراحات الوفد اللبناني . ورأى الوفد اللبناني بذلك ان الوفود العربية لها صفة رسمية وتقوم بخطواتها وفقا لاتصالاتها مع السلطات في بلدانها وبذلك تتخلى عن واجبها باثارة موضوع الاضطهاد الا بالكلام العام الذي لا يحملها مسؤولية ولا يتجاوز العموميات . ولما كان الوفد اللبناني هو الوفد الوحيد الذي لا يمثل السلطة ويدافع بكل صراحة عن هذه الحريات ، فلم يجد امامه الا الانسحاب (يوم السبت الماضي) من المؤتمر خصوصا بعد ان منعته رئاسة المؤتمر من الكلام بتحريض من الامين العام لاتحاد الكتاب العرب السيد يوسف السباعي الذي كان (والكلام لا يزال للدكتور سهيل ادريس) موقفه ديكتاتوريا وتعسفيا وتخلى بذلك عن واجبه بأن يرعى المؤتمر والاتحاد . وكان الوفد اللبناني يريد ان يسجل موقفا في الجلسة الختامية للمؤتمر.

ويقول الدكتور ادريس ان الانسحاب من الاتحاد العام للادباء العرب تقرر مساء امس الاثنين في الاجتماع الذي عقد في منزل الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين . وانسحب كذلك من اتحاد الكتاب العرب بعض الكتاب من اتحاد كتاب سوريا .

ويضيف الدكتور ادريس انه استقال من منصبه كأمين عام مساعد لاتحاد الكتاب العرب وكعضو في هيئة تحرير مجلة الادباء العرب .

وعن الخطوة المقبلة التي سيتخذها اتحاد الكتاب اللبنانيين قال الدكتور ادريس ان الاتحاد سيدعو الى ملتقى للادباء العرب الاحرار في لبنان تحت شعار « حرية الكلمة العربية المسؤولة » ، يكون « مقدمة ونواة لاتحاد عربي جديد غير مرتبط بالسلطات القائمة في البلدان العربية » . واخذ اتحاد الكتاب اللبنانيين على عاتقه نشر كل قطعة ادبية ذات مستوى فني رفيع .

ويشدد الدكتور ادريس على ان اتحاد الكتاب اللبنانيين ينطلق من الايمان الحقيقي بدور مصر الطليعي في معركة التحرير وبتركة عبدالناصر التاريخية وايمانه بالقومية العربية والفكر التقدمي والمقاومة الفلسطينية .

ماضون حتى النهاية

ونشرت جريدة « النداء » في عددها الصادر يوم الاربعاء ٢٨ اذار مارس المقال التالي :

قرر اتحاد الكتاب اللبنانيين الانسحاب من اتحاد الادباء العرب بعدما رفض مؤتمره المنعقد في تونس الالتزام بموقف الدفاع عن حرية الكلمة في العالم العربي ، وعن الادباء والكتاب الذين يتعرضون للاخطار في عدد من البلدان العربية . وكان وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين قد عاد الى بيروت بعد انسحابه من مؤتمر اتحاد الادباء العرب المنعقد في تونس احتجاجا على موقف المؤتمر من مطالبة الوفد بادانة اضطهاد الادباء العرب . كذلك قرر اتحاد الكتاب اللبنانيين العمل لتشكيل اتحاد الكتاب العرب . كما ضمن الاتحاد موقفه هذا في بيان يشرح فيه اسباب انسحابه من اتحاد الادباء العرب.

وقد اتصلت « النداء » بالدكتور سهيل ادريس الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين ورئيس وفد الاتحاد الى مؤتمر اتحاد الادباء العرب مستوضحة حول الظروف التي ادت الى خطوة الانسحاب.

وقد اشار الدكتور ادريس الى ان الخطوة التي اتخذها الوفد اللبناني في مؤتمر تونس بدعوة المؤتمر الى ادانة مظاهر اضطهاد الادباء في بعض البلدان العربية انما يأتي كتتمة لموقف اتخذه اتحاد الكتاب اللبنانيين باستمرار في الدفاع عن حرية الفكر في العالم العربي وعن الادباء الذين يتعرضون للمضايقة والاضطهاد. ورئيس الوفد اللبناني كان يثير دائما هذا الموضوع في مختلف الاجتماعات والمؤتمرات التي يتمثل فيها اتحاد الكتاب اللبنانيين .كما ان هذه الخطوة هي تتمة للخطوة التي اتخذت منذ حوالي الشهرين عندما انتشرت الاخبار عن صرف عدد كبير من الادباء والكتاب المصريين او جرى نقلهم من اعمالهم ، وقد بلغ هذا العدد قرابة المئة ، ولم يكن بالامكان السكوت على هذه التدابير ، فكانت الحركة التي قام بها الادباء والمثقفون ، فوقع حوالي الثمانين منهم عريضة تطالب بازالة هذه التدابير انطلاقا من الحرص على دور الادباء وحرية الفكر ، وعلى دور مصر الطليعي . الا ان ما حدث كان التمادي في هذه التدابير .

من هنا كان لا بد من ان تتضمن كلمة الوفد اللبناني امام مؤتمر تونس ادانة صريحة لمظاهر اضطهاد الادباء وحرية الكلمة في العالم العربي. وقد قوبلت الكلمة بترحيب كبير لدى مندوبي المؤتمر بصفتهم الافرادية ، وبالتهاني من قبل الجميع . حتى ان بعض الوفود وعدت بتأييد ما تضمنته كلمة الوفد اللبناني . الا انهم لدى طرح الموضوع على الصعيد العملي وجدوا انفسهم كاعضاء وفود رسمية تابعة للدولة في بلدانها لا تستطيع الاقدام بحرية على مثل هذه الخطوة التي يفرضها الالتزام بحرية الكلمة والدفاع عنها .

وقال الدكتور ادريس : بالرغم من تحفظاتنا الشديدة على الوضع في لبنان لم يكن ممكنا الا الوقوف هذا الموقف ، فاتحاد اللبنانيين غير مرتبط بالسلطة .

واضاف : كنا اقترحنا وضع ما يسمى بميثاق شرف يتعهد بموجبه اتحاد الادباء العرب بالدفاع عن الحرية في اي بلد عربي يظهر فيه قمع او ارهاب فكري او حد من الحرية الفكرية ، وان يتولى الامين العام للاتحاد مهمة ملاحقة هذا الموضوع لان الغاية من الميثاق ليس اطلاق صرخة وحسب بل تطبيق ما يتضمنه من مبادىء . كما اجرينا اتصالات بالوفود ووقفنا منها على بعض الوقائع المحددة بالنسبة لاضطهاد الادباء العرب : قاسم حداد من البحرين اعتقل قبل ان يتمكن من المجيء للمشاركة بالمؤتمر . عبداللطيف اللعبي مسجون في المغرب ، وعباس براده ، من المغرب ايضا ، مفصول من عمله . واخبار مصر معروفة . لذلك ، وتنفيذا لميثاق الشرف ، طلبنا اقرار برقيات ترسل الى الرئيس السادات ، والى ملك المغرب ، والى سلطات البحرين تطالب بوقف هذه التدابير .

وبالرغم من ان نص البرقية المقترح توجيهها للرئيس السادات يبدأ بتحية نضال الشقيقة الكبرى مصر ، ثم بالمناشدة للرجوع عن التدابير بحق الادباء ، فان الوفد المصري اعتبر ذلك هجوما على مصر . ومع الاسف نسي الامين العام لاتحاد الادباء العرب (يوسف السباعي) دوره كامين عام وانحاز ضدنا ، وقال ان ما يقال عن وضع الادباء في مصر غير صحيح ومبالغ فيه .

حينئذ طلبنا منه ان يعلن ان هذه التدابير ستلغى او هي في طريق الالغاء ، فقال انه لا يملك ذلك . اذن فان ما قاله كان غير صحيح .

وفي الجلسة التي عقدت لبحث اقتراح الوفد اللبناني خذل رؤساء الوفود الاقتراح بسبب ارتباطهم بالسلطة في بلادهم .عند ذلك اعلنا انسحابنا لان هذا الموقف الذي اتخذوه يخرق المادتين العاشرة والحادية عشرة من النظام الاساسي لاتحاد الادباء العرب.

واضاف الدكتور ادريس : لدى اعلان الانسحاب ارادوا اقناعنا بالرجوع عنه والتريث ، فقلت ان هناك شرطا واحدا لذلك هو ان اعلن موقفنا بكلمة صغيرة في الجلسة المسائية بعد تدارس الموضوع مع الوفد اللبناني . فكان رد السباعي ان البروتوكول لا يسمح بذلك لان الجلسة ليست جلسة مناقشة ، مع العلم انه ليس في البروتوكول شيء من ذلك (الدكتور ادريس يشغل ايضا منصب امين عام مساعد اول في اتحاد الادباء العرب). ورددت ، مع ذلك ، بان الكلمة ليست مناقشة بل اعلان موقف . وقد وافق رئيس المؤتمر على طلبي ، الا انه في المساء لم يسمح لي بالكلام وذلك بتحريض من الامين العام يوسف السباعي . مع ذلك تكلمت دون اذن واعلنت احتجاج وفدنا وانسحابه .

وقال الدكتور ادريس ان البرقيات الثلاث التي رفض المؤتمر تبنيها قد ارسلها اتحاد الكتاب اللبناني من بيروت . وقال ان الاتحاد سيتابع خطواته في اطار الدفاع عن حرية الادباء والكتاب وحرية الكلمة والفكر في العالم العربي وانه سيعمل على تشكيل نواة « لاتحاد الكتاب العرب » ، وان اول لقاء لهم سيعقد في الصيف القادم تحت شعار « حرية الكلمة العربية المسؤولة » .

وقال ان اتحاد الكتاب اللبنانيين سيتبنى نشر كل مادة ادبية وفنية جيدة لا يسمح بنشرها في البلدان العربية الاخرى . وان الاتحاد سيقدم على تدابير اخرى .

واضاف : اننا ماضون حتى النهاية في الدفاع عن حرية الفكر والكلمة في العالم العربي .

واكد ان نشاط الاتحاد في هذا الصدد ينطلق من افكار القومية العربية ، ومن الفكرة التقدمية ، ومن دور مصر الطليعي ونسرات عبدالناصر التاريخي ، ومن ضرورة محاربة الاستعمار والصهيونية وتأييد المقاومة الفلسطينية .

هذا وكان الوفد اللبناني متضامنا تمام التضامن في موقفه هذا في مؤتمر اتحاد الادباء العرب . وقد اكد جميع اعضاء الوفد تمسكهم بموقف الدفاع عن حرية الكلمة وادانة الاضطهاد الذي يتعرض له الادباء العرب .

وقد لاقى موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين هذا التأييد في اوساط المثقفين اللبنانيين ، وفي الاوساط الديمقراطية والشعبية ، كونه يتفق وضرورات المعركة التي تخوضها الجماهير اللبنانية ، والعربية ، في سبيل الحريات الديمقراطية .

لهذا انسحبنا ...

ونشرت جريدة « الاخبار » في عددها الصادر بتاريخ ٣١ اذار

(مارس) الكلمة التالية :

انسحب وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين برئاسة الدكتور سهيل ادريس من مؤتمر الادباء العرب التاسع بعد رفض بعض العناصر المشتركة في المؤتمر الالتزام بموقف الدفاع عن حرية التعبير في العالم العربي ... وكان الوفد اللبناني قد طالب بادانة جميع مظاهر اضطهاد ، وتكبيل ، وتضييق حرية الاديب العربي ، خاصة وان ممارسات خطرة بدأت تكشف عن وجهها في المرحلة الاخيرة ..وكان ان تضامن مع موقف الوفد اللبناني العديد من الادباء والشعراء المشتركين في المؤتمر ..

وبهذه المناسبة توجهت مجلة « الاخبار » الى الدكتور سهيل ادريس ـ الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين ورئيس الوفد بسؤال استيضاحي حول طبيعة الظروف والاسباب التي أدت الى خطوة الانسحاب فأجاب :

موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين ليس موقفا مفاجئا ولا هو جديد..

ولم يكن ذلك الموقف ناتجا عن نزعة مثالية لدى الوفد اللبناني وانما كانت تمليه وقائع واحداث تدل على اضطهاد الفكر في بعض البلدان العربية من مثل اعتقال مفكر او ابعاد شاعر او فصل اديب .. غير ان ذلك كان يحدث بشكل افرادي لا يستلفت النظر ولا يحدث الاثر العميق .. اما بعد ان صدرت تلك اللوائح في الشقيقة الكبرى مصر وفيها قرارات صريحة بفصل ما لا يقل عن مائة من الادباء والشعراء والفنانين والصحافيين من اعمالهم التحريرية او نقلهم الى ادارات تبعدهم عن ممارسة نشاطهم الادبي فانه لم يكن طبيعيا على الاطلاق ان يظل المثقفون العرب في جميع انحاء الوطن العربي صامتين على هذا الذي يحدث ..

صحيح ان كاتبا هنا او اديبا هناك او شاعرا هنالك سبق وان حرم من حقه في التعبير بالسجن او الابعاد او الصرف . واذا كان اتحاد الادباء هذا او ذاك قد قصر في رفع صوته فقد كان تقصير الامين العام الاستاذ يوسف السباعي افدح واكبر اذ لم يحرك ساكنا في الاحتجاج او طلب رفع الضيم والظلم عن هؤلاء الادباء .

وكان ثلاثة من اعضائه قد اعدوا الابحاث التي كلفوا باعدادها للمشاركة في اعمال المؤتمر . فكتب الاستاذ احمد ابو سعد دراسة عن « الشعر العربي الحديث في لبنان والعالم العربي » وكتب الدكتور ميشال عاصي دراسته عن « النقد في لبنان » ، وكتب الاستاذ انطوان ملتقى دراسته عن« المسرح في لبنان » .. وكان المفروض ان يعد الدكتور محمد يوسف نجم دراسة عن « القصة »والرواية العربية الحديثة » لكنه تخلف في اخر لحظة عن ذلك ..

وانضباطا مع مقررات المكتب الدائم للادباء العرب ارسل الاتحاد ابحاثه الى المؤتمر قبل شهرين من انعقاده وكان الوفد الوحيد الذي قدم عمله في الوعد المحدد .. ولكن هذه الابحاث كانت نشاطا نظريا للوفد . اما مهمته الاساسية التي كلفني بحملها فقد كانت طرح موضوع « الارهاب الفكري في العالم العربي » استكمالا للموقف الذي شارك فيه الاتحاد على صعيد اعضائه في اللقاء الذي تم منذ اكثر من شهرين في النادي الثقافي العربي واجمع فيه المثقفون اللبنانيون والعرب المقيمون في لبنان على الاحتجاج على التدابير التي اتخذت في جمهورية مصر العربية بحق عشرات من مثقفيها ..

اذا فقد القيت كلمة الوفد في المؤتمر وطالبت فيها باقرار « ميثاق شرف » يتعهد اتحاد الادباء العرب بموجبه بالمبادرة الى شجب كل محاولة في اي بلد عربي تستهدف قمع الفكر او ارهاب الادباء او التضييق على حرية التعبير ، وتكليف الامين العام بتنفيذ الاجراءات التي يقتضيها الميثاق .وحتى لا يكون هذا الميثاق كجميع التوصيات السابقة حبرا على ورق ، طالب الوفد اللبناني بارسال برقيات الى ثلاثة بلدان تشهد عملية الارهاب الفكري ، وهي البحرين ، المغرب ، ومصر ...

ان اتحاد الكتاب اللبنانيين لا يستطيع ان يعزل هذه الاحداث عن دوافعها السياسية .وقد تكون هذه الدوافع رغبة في خنق اصوات بعض القطاعات الوطنية في هذا البلد او ذاك بحجج وذرائع تحتمل النقاش على اقل تقدير .. وما نشهده في لبنان اليوم من محاولة ضرب الحريات الصحفية اشارة الى مثل هذه الدوافع ..والحقيقة، اننا لا نستطيع ان نفصل الارهاب الذي يراد فرضه في لبنان عن سائر الوان الارهاب في العالم العربي كله تطبيقا لسياسة قمعية مشتركة ترمي الى اضعاف روح النضال والمقاومة وفرض حلول استسلامية لا يمكن للشعب العربي ان يقرها .

من اجل ذلك كان موقفنا « كليا » اي رافضا للتجزئة والازدواجيه .. واذا كنا نستطيع ان نرفع صوتنا في لبنان ضد هذا النوع من الارهاب فسوف نتخلى عن واجبنا ورسالتنا وشرف كلمتنا اذا صمتنا عن ارهاب اخر يفرض على اخواننا المثقفين في مناطق عربية اخرى .

واذا ورد في بياننا العام ، في معرض الحديث عن لبنان ، ما نعتبره حرية نسبية ونعتز به دون شك فلاننا نخشى أيضا على هذه الحرية بسبب تقلب السياسات وامكانية الخضوع للضغط الخارجي تنفيذا لسياسة اجنبية معينة ... سندافع عن الحرية العربية المسؤولة في لبنان وفي كل بلد عربي اخر .

ونحن لا نعتبر حرية التعبير النسبية في لبنان مجالا للتفاخر بقدر ما نعتبرها تحميلا لنا لمسؤولية تاريخية كبيرة يجب ان يضطلع بها المثقفون اللبنانيون بصورة خاصة ..

وانطلاقا من النقطة الاخيرة بالذات اخذ اتحاد الكتاب اللبنانيين على نفسه عهدا في ان يكرس معظم جهده بعد الان للدفاع عن حرية التعبير لدى كل مثقف ومفكر واديب لا عشقا فارغا بالحرية ، وانما لتكون هذه الحرية وسيلة يستطيع المثقف العربي بواسطتها ان يشارك مشاركة حقيقية وعميقة في قيادة الامة والشعب ،

الطريق امامنا طويلة وشاقة ، ولكننا نجد سعادة كبيرة في ان نكون قد وضعنا قدمنا وخطونا الخطوة الاولى على الطريق الصحيح ..

الكتاب اللبنانيون يعلنون الحرب ...

ونشرت مجلة « مونداي مورننغ » التي تصدر بالانكليزية في بيروت ترجمة الحديث التالي الذي اخذته مندوبتها ناديا حجاب من الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين في عددها رقم ٤٢ الصادر يوم ٢ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ .

«When I, the Assistant Secretary General of the Arab Writers Union, was told, contrary to previous agreement, to sit down and remain silent at the closing session of the conference in Tunis, I felt that a dagger had been plinged into my breast, and I saw blackness before my eyes. In that instant I saw the tragedy of the Arab writer whose freedom we had come to defend and whose fate we were being forced to suffer ».

Dr. Suheil Idris, prominent Lebanese author and intellectual, once more in the privacy of his home in Beirut, was reviewing the events that prompted the Lebanese delegation to walk out of the ninth Arab Writers Union Conference that took place in

Tunis between the 18th and the 25th of March.

Dr. Idris attended the conference as head of the Lebanese delegation from the Union of Lebanese Writers and in his capacity as Assistant Secretary General of the Arab World Writers Union. Accompanying Dr Idris as members of the sixman delegation were Ahmad Abu Saad, Fouad al-Kishn, Dr. Michel Sleiman, Dr. Michel 'Assi, and Antoine Multaka.

« We went to the conference planning to bring up the subject of the pressure being exerted on writers in Egypt, Bahrain and Morocco », Dr. Idris explained. « Our stand as Lebanese writers is not new : our voice has always been raised in support of freedom of speech, thanks to the comparative freedom from pressure that we enjoy in Lebanon. In fact, just three months ago we had a meeting at the Arab Cultural Club to discuss what was happening in Egypt to hundreds of writers who lost their jobs, were dismissed from the Arab Socialist Union or were transferred to administrative posts. At that time we sent a telegram to Egypt signed by 80 writers and intellectuals objecting to the measures and asking that they be annulled ».

He went on, « We sent to the conference thinking it a golden opportunity to raise the issue of freedom of speech at a meeting attended by writers and intellectuals from all over the Arab world ».

Instead, « we were accused of launching an attack against Egypt, which is absolutely not true, since we have continually expressed our respect for the role Egypt is playing in the war of liberation and for President Nasser's legacy. We will, however, struggle for the freedom and the rights of writers in any country in which they are being subjected to oppression, even in our own country, Lebanon.

« From the very beginning of the conference they were afraid of what we might says », Dr. Idris said, « and in fact they reversed the previously arranged order of the speeches so that President Habib Bourgiba gave his speech first and then left the conference. When I gave my speech during the opening session, as head of the Lebanese delegation, the atmosphere was electrified ».

In his opening speech, Dr. Idris asked the conference to face the fact that previous Arab Writers Union conferences had largely failed in fulfilling two of their most important aims, as expressed in articles 10 and 11 of the Union's charter : « to protect the writer and to defend his right to a free and honorable life, and to defend the right of the writer for free speech in the areas of pan-Arabism and humanity». Dr. Idris called for the adoption of an « Honor Pact » by which the Arab Writers, Union would undertake to foil any attempt, in any Arab land, to suppress freedom of speech.

« Even before the conference started», Dr. Idris continued, «certain embassies contacted the Lebanese embassy demanding that pressure be exerted on us. After my speech, the pressure increased. But we did not attend the conference simply to put on a show, to ease our consciences by speaking and then sitting back and relaxing, as they suggested we do. If the Honor Pact was to represent anything other than empty words, it had to be implemented.

« When we spoke with the members of other delegations, they enthusiastically applauded our stand. But the members are one thing and the heads of delegations, who feel obliged to remember their ties, are quite another, and although they agreed to support us, they changed their minds later on ».

Idris went on : « It was unfortunate that a painful position was taken by the Secretary General of the Arab Writers Union, Youssef Sibai, who should have led the defenders of freedom of speech. Instead, he denied that anything untoward had been going on in Egypt and tried to tell us that we were play-acting. Why, I asked him, didn't he say that we were play-acting when, during the fifth Arab Writer's Union Conference in Baghdad in 1965, we spoke up in defense of Iraqi writers who had extradited. At that time, after we had raised the issue for some time, the Iraqi writers were allowed to come back. Our voice, I told him, has always been raised in support of freedom of speech, whether the writers are our friends or our enemies : how can you expect us to keep silent about hundreds of writers in Egypt ? Sibai retorted : if you think your « friends » will be freed you will be disappointed ; you will not be given a chance for heroics in this conference. I asked him to show me proof saying the measures had been revoked and then I would have no need to speak, but he said he had no such proof » !

Dr. Idris continued, « Just two days ago we sent Sibai a telegram asking him, now that he has been appointed the Egyptian minister of culture, to look into the case of the writers in Egypt ».

Dr. Idris returned to the events of the conference . « After a majority vote, during a meeting of delegation heads, against the Honor Pact and against sending telegrams of protest to each of Egypt, Bahrain and Morocco, I said that the Lebanese delegation had no alternative but to with-

draw from the conference.

« I think they were stunned since they had expected us to keep silent when faced with a majority vote, and heads of delegations started trying to reach a compromise. i: said that I would not withdraw from the conference of we were given an opportunity to speak at the final session, to which the President of the Conference agreed.

« At the final session, when I rose to speak I was told to sit down by the Secretary General since it was against the rules of protocol. As Assistant Secretary General I know the protocal and I know that there are no such rules once permission has been granted by the President.

« We could not stay after such an insult, and so the Lebanese delegation walked out of the conference.

« Our withdrawal may be looked upon as a defeat », Dr. Idris concluded, « but we look upon it as a minor victory on the road to freedom of speech, and we found comfort and support in the five handshakes from members of the Tunisian. Moroccan and Bahrain delegations, who walked out with us.

« If we fight now and succeed, we can show the future rulers of the Arab world that there are people fighting for freedom of speech, and that the rulers have to think twice before taking action against that freedom ».

Since they withdraw from the conference, the Union of Lebanese Writers have not been idle.

In a detailed statement distributed to the press, they explained the events of the confernce at Tunis, dismissed the conferences of Arab writers as an opportunity for enjoying hositality and sightseeing, and claimed that intelligence agents were present in some delegations, thereby inhibiting freedom of speech at the conference itself.

The Union of Lebanese Writers has further undertaken to offer all financial assistance possible to any Arab writer who has lost his means of livelihood because of his ideas and stands, to publish literary articles that Arab writers cannot publish in their own countries if these articles meet a certain literary standard. and to hold a conference for Arab writers in Lebanon every summer starting with a conference this coming summer under the slogan of « freedom of the responsible Arab word ».

ادق لحظة في حياتي الادبيـة ..

ونشرت مجلة « البلاغ » فـي عـددها الصادر يوم ٩ نيسان المقال التالـي :

الموقف المشرف الذي وقفه اتحاد الكتاب اللبنانيين في مؤتمـر تونس مؤخرا والبيان الذي نشره بعـد انسحابه من المؤتمر ، اثـارا علامـات تعجب واستفهام ، تمامـا كمـا اثارا الاعجاب واستثـارا الترحيب من البعض ، واثارا اللغط والاستياء لدى البعض الاخر.

وفيمـا يلي يحدثنا الدكتور سهيل ادريس، الاميـن العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين ، والاميـن العام المساعد (سابقا) لاتحادالكتاب العرب ، عـن هذا الموضوع . الذي لا شك انه بدايـة معركة طويلة سيعرفهـا عالم الثقافـة العربية .. هذا العالم الذي لا يمكـن باي شكـل ، فصله عن الوضع السياسي العام .

البلاغ : دكتور ادريس ، ما الذي جرى بينكم وبيـن الاستـاذ يوسف السباعـي ؟

د . ادريس ـ : نعتقـد ان على المثقفين والادباء في لبنان ،مهمة تتجاوز وضعهم بالذات لتشمل وضع المثقفيـن جميعا ، على اساس ان الحرية النسبيـة التـي نتمتـع بها ، رغـم مـا لنـا من تحفظـات على الجـو الذي تمارس فيه هذه الحرية ، يجب ان تستغل الـى ابعـد الحدود للدفاع عـن حق كل مثقف عربي في حرية التعبير . ان للانظمـة ، دون شك ، سياستها ومبرراتها في مواجهة قضية حرية التعبير ، ولكـن الواضح ان الحجج والذرائع التي تتخذهـا بعض هذه الانظمـة ، للحد مـن حرية الفكر ليست دائمـا بالحجج المبررة ،فمثلا: حجـة المعركـة التي تخوضهـا الامة العربيـة من اجل التحرير حجـة نبيلـة ومشروعة ، ولكـن المعركـة بذاتهـا تقتضي تكويـن جبهـة داخليـة متماسكة ، تذوب فيها الاختلافات وتتقارب الاراء والمنطلقات، لتمكـن المشاركـة بشكـل حاسم في هذه المعركـة .

وان نتخذ في بلد عربي مـا تدابيـر تحرم قطاعـا هامـا مـن المثقفيـن ، من ممارسة نشاطهم التحريري والكتابي فهذا مـا يضر ، دون شك ، بسلامة المعركة ، ولا شك في ان صرف ما يقارب مئةمثقف مصري من اعمالهم او تحويلهم من وظائفهم الكتابيـة الى وظائفادارية، او منعهم من النشاط الاذاعي ومـا الى ذلك .. بصرف النظر عـن اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم الفكرية ، هـو ضرب لحريـة الفكر التي هي الرأسمال الاساسي للمثقف .قلت للاميـن العام لاتحاد الادبـاء العرب الاستاذ يوسف السباعي : هل تتصور المأساة التي يمكـن ان يعيش فيها اديب حرم من نشر مـا يكتبه ؟. ماذا يفعل غير ذلك ؟. فقال لي : ولكنه ـ اي الاديب.يستطيع ان يؤلف (!) .فاجبته لا تطلب من الاديب ان يؤلف ولا ينشر .

واستغرب الاستاذ السباعي ان اثير باسم الوفد اللبنانيموضـوع حرية التعبيـر بهذا الالحاح في هذا المؤتمر بالذات ، فقلت له : ان الوفـد اللبناني ، في جميع المؤتمرات الادبيـة السابقـة قـد اثـار دائما موضوع حرية التعبيـر ، وباعتبارك امينا عامـا للاتحاد تستطيع ان تذكر ان هذه القضيـة كانت دائمـا في رأس اهتماماتنا . قال : ولكـن يبدو ان لك هذه المرة اصدقاء كثيريـن يهمك امرهم . قلت : هذا صحيح ، ان كل مفكـر واديب مضطهدهوصديقي . قال : لقـد سبق لانيس منصور ان سجن اربع سنوات متوالية ، فلم تحركساكنا. اجبت : اعترف اني ربمـا كنت قد قصرت ، ولكـن انت الاميـن العام لاتحاد الادباء العرب والكاتب المصري المرموق ، لماذا لم تثر قضيةانيس منصور بالذات ، كلانـا ، اذن ، مقصر ، فلمـاذا لا نتعاهـد بعد الان كافراد وكمسؤولين عـن اتحاد الادباء العرب ان نرفع صوتنـا كلما تعرض كاتب لقمع او اضطهاد ؟ ؟. قال : اليست هذه الان تمثيلية تريد ان تقوم فيهـا بدور البطولة ؟! اجبته: التمثيليات تنتهي في فتـرة

معينة ، وارجو أن اتمكن بمعاونة جميع الادباء العرب الاحرارلندافع الى النهاية عن حريتنا ، وعند ذلك لن تكون التمثيلية الا حقيقة مستمرة حية .

● وما كان موقف الامين العام في اخر المطاف ؟

– لقد اصر على اعتبار موقف الوفد اللبناني هجوما على مصر، وهذه طبعا اول مرة يشوه فيها موقفنا هذا التشويه ،ان مصرليست فقط ، يوسف السباعي وصالح جودت وعزيز اباظه وعبدالعزيز الدسوقي ، انها كذلك نجيب محفوظ وصلاح عبدالصبور والفرد فرج ويوسف ادريس واحمد حجازي وامل دنقل وكثيرون اخرون . ونحن نريد لهؤلاء جميعا ولاولئك جميعا ان يشاركوا باقلامهم واخلاصهم في معركة التحرير .

● ما هي الفترة الادق التي مررتم بها في مؤتمر الادباء العرب التاسع بتونس ؟

– كنت اريد في الجلسة الختامية للمؤتمر ان اعلن بكلمة لا تتجاوز الدقيقة موقف الوفد اللبناني ، فاستاذنت رئيس المؤتمر بقولي هذه الكلمة التي كان قد وعدني بالسماح بها في جلسة سابقة لرؤساء الوفود ، ولكني اصبت بالدهشة والذهول حين منعني الرئيس من الكلام ! وكان ذلك بتحريض من الامين العام . وصرخت من قلب قاعة الاجتماع – انني بصفتي الامين العام المساعد الاول اطلب الكلمة – فاصر رئيس المؤتمر على رفض اعطائي اياها . وتمثلت في تلك اللحظة ، وهي ادق لحظة في المؤتمر ، بل ربما كانت ادق لحظة في حياتي الادبية الطويلة – تمثلت مأساة الاديب العربي كلها : ان يمنع من أن يقول كلمته ، من انيرفعصوته بها ، كنت في تلك اللحظة الاديب الضحية الذي ذهبنا الى مؤتمر الادباء العرب في تونس لندافع عنه ، كنت وانا ، بكل تواضع صاحب المجلة التي فتحت صدرها لكل ادباء العروبة ليتكلموا بحرية ، كنت ممنوعا من ان اقول كلمة صغيرة !! وقلت في نفسي .. لا لن ادعهم يمنعونني . لن اقبل الارهاب كما لم اقبله من قبل قط ، وقلت في نفسي ايضا ، اذا نزلت عند رأيهم فان جميع الادباء الحاضرين في تلك القاعة ،وجميع الادباء الغائبين عنها والمنتشرين في ارجاء الارض العربية كلها سيحتقرون هذا الذي رضخ لمحاولتهم خنق صوته ، وسوف احتقر نفسي قبلهم جميعا . وصرخت في وسط قاعة المؤتمر : لن نسكت، لن تستطيعوا اسكاتنا ، اننا نحتج عليكم ، وعلى اساليبكم ونعلن انسحابنا .

ولكننا انسحبنا لنرفع صوتنا في كل مكان اخر ، في مؤتمرات عربية حرة تتخذ صفحات المجلات والكتبقاعات لها ، مؤتمرات يشهدها ويطالعها الالوف ، ولا يستطيع ارهاب مهما كان عنيفا ان يخربها او يفسدها ، ستكون هذه معركتنا الحقيقية الشريفة بعد الان . ونحن واثقون من ان المقاتلين فيها يفوقون مئات المرات عدد اعضاء الوفود الرسمية في المؤتمرات الحكومية !.

● مؤتمر الكتاب العرب ، الذي اعلنتم انكم ستقيمونه كل عام ، هل تعتقدون انه سينجح ؟

– هذا يتوقف على مفهوم النجاح، اذا كان النجاح يقيّم بكثرة اعضاء المؤتمر ، فربما امكن القول انه لن ينجح ، اما اذا كانالنجاح متوقفا على الفعالية والتأثير فسنبذل كل جهدنا لانجاحه ، علىان ذلك يقتضي ان يحمل الادباء انفسهم الجرأة والشجاعةوالتضحية، وكلها نحتاج اليها في لقاءاتنا هذه ، بينما يبدو انها ليست ضرورية على الاطلاق في تلك المؤتمرات الرسمية لقاء صغير فعالوعميق اجدى للادب والادباء من مؤتمرات ضخمة تقام للتسليةوالسياحة والمسامرات ..

● هنك من يعتقد ان غياب صوت لبنان عن المؤتمرات الادبية سيكون خسارة للبنان ، وربما حل محلكم وفد لبناني ((رسمي)) فما هو رأيكم ؟

– فليكن ، هل هذا هو ما سوف ينقذ مؤتمرات الادباء العرب مما تعانيه ؟ سيبقى صوتنا ، وان غاب في مؤتمراتهم ، حاضرا في لقاءاتنا ومجلاتنا ونشاطاتنا الاخرى .

رنيه فرنكودس

دفاعا عن حرية الادب ..

نشرت جريدة ((الجريدة)) في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ اذار (مارس) المقال التالي بقلم الدكتور ميشال عاصي عضو الوفد اللبناني الى مؤتمر الادباء العرب بتونس :

ما بين الثامن عشر والخامس والعشرين من الشهر الجاري انعقد في تونس المؤتمر التاسع للادباء العرب ، والمهرجان الحادي عشر للشعر . وقد اشتركت فيهما وفود من خمسة عشر بلدا عربيا، فضلا عن دعوات خاصة وجهها اتحاد الكتاب التونسيين الىشخصيات ادبية ومستشرقين بصفة مراقبين من بعض الدول العربية والاجنبية . وتمثل فيه لبنان بوفد من اتحاد الكتاب اللبنانيين يضم السادة الدكتور سهيل ادريس الامين العام للاتحاد والدكتور ميشال عاصي ، والدكتور ميشال سليمان ،واحمد ابو سعد ، وفؤاد الخشن ، وانطوان ملتقي ، من اعضاء الهيئة الادارية .

ثلاثة موضوعات رئيسية دارت عليها اعمال المؤتمر هي : اولا : رصد الاتجاهات الادبية المعاصرة واثرها في خدمة المستقبل العربي وطنيا وقوميا وانسانيا .
ثانيا : الادب والتكنولوجيا
ثالثا : الادب في مواجهة الامبريالية والصهيونية .
وتوزع مهرجان الشعر على ثلاث أمسيات : اثنتان منها في تونس العاصمة ، واخرى في القيروان المدينة التاريخية العريقة .
شارك في الابحاث من اللبنانيين الدكتور ميشال عاصي بدراسة عن النقد الادبي وتطوره واتجاهاته في لبنان ، والاستاذ احمد ابو سعد ببحث عن الشعر العربي الحديث ، والاستاذ انطوان ملتقى ببحث عن المسرح اللبناني المعاصر .
وشارك في مهرجان الشعر الدكتور ميشال سليمان والاستاذ فؤاد الخشن بقصيدتين جديدتين ألقيتا في الامسيتين اللتين اقيمتا في تونس العاصمة .

وعن الابحاث التي قدمها اللبنانيون يمكن القول بانها خلافا لما كان ، ولا يزال يحدث في المؤتمرات الادبية السابقة ، لم تتناول الموضوعات من زاوية عربية عامة ، بل تركزت على ابراز الاتجاهات الادبية اللبنانية وتقييمها بالنسبة الى اثرها في خدمة المستقبل العربي ، وتناولت اتجاهات النقد الادبي والشعر والمسرح . وقد كان مقررا أن تتناول موضوعات اخرى ، وان يشترك في مهرجان الشعر والمؤتمر الشاعران الدكتور خليل حاوي وادونيس الا انموانع طارئة حالت دون ذلك . ويمكن القول ايضا بان الحضور اللبناني في المؤتمر ، وفي المهرجان ، كان في مستوى النشاط اللبناني ومركز لبنان الثقافي في الحركة الادبية والشعرية العربية المعاصرة .
اما عن المؤتمر والمهرجان بصورة عامة فيمكن تسجيل الملاحظات الاتية :

١ – ينبغي التنويه بحسن الرعاية والتنظيم البالغين اللذين وفرهما اتحاد الكتاب التونسيين للمؤتمر . كما يجب التنويه بالضيافة الكريمة التي احاطت بها تونس شعبا وكتابا وحكومة وفود المؤتمرين في جميع المجالات .
٢ – تجدر الملاحظة بان وفود الشعراء العرب كانت موزعة على تياري الشعر التقليدي والشعر الحديث . وقد تزعم المدرسة

العام (الذي لم نوافق عليه) وثابر على رفضها الى ان حذفت ، برغم الاشتراكيين الذين كانوا حاضرين ويمثلون وفود بلدانهم .

ولكم كان موقف رؤساء الوفود العربية وبعض اعضائها « عظيما » في الجلسة التي انعقدت لتدارس البيان الختامي هذا ، عندما راحوا يبدلون مواقفهم الواحد تلو الاخر ، ضاربين صفحا عما ابداه البعض منهم من حماسة ومن قناعة تامة بصدق موقفنا ، وبوجوب الاستمرار فيه ، وخاصة الذين منهم زايدوا هنا ، قد عارضوا صراحة الموقف الذي التزموا به في بيروت عند توقيع البيان الذي وجه الى المسؤولين في جمهورية مصر العربية ، احتجاجا على احتجاز حرية عدد كبير من ادبائها وشعرائها في الاونة الاخيرة ، وقد وقعه يومذاك اكثر من سبعين اديبا لبنانيا وعربيا .

ورب معتذر هنا عن اكثرية المؤتمرين في ما تناهوا اليه من مواقف. ولكن ما عذره ، عذرهم ، عذرنا ، في ايجاد المبررات للبعض بعدما لم يبق لنا سوى الكرامة ؟ اهو الحرص على السلاسل ؟ بئست السلاسل وان كانت من الذهب . فهي كل حال سجدة ولا فرق ان كانت صغرى ام كبرى .

وليس من قبيل التوهم القول بان مثل هذه المواقف التي تقفها اكثرية الادباء والشعراء العرب اليوم هي ذاتها المواقف التي آلت بالامة الى ما هي من هوان ، ادناه خسران الارض والكرامة على السواء وبالتالي ، خسران الامل باستعادة اي منهما .

ورب قائل ان القضية العربية برمتها ما زالت في المرحلة التي ينبغي فيها على الكثيرين من العاملين في حقلها ان يتجنبوا اثارة ما قد يورطهم في مسائل تقفل عليهم سبل التحرك السياسي في رقعة هذه الامـــة .

ولكـن ، الا يرى معنـا القائلون مثل هذا القول ، ان السكوت عن الحق انمـا هو اظهار جزء قليل منه ، وترك اكثره طي الكتمان ؟

وهنا ، قد يستعير احدهم تعابير السيد يوسف السباعي بقوله : « هذا تمثيل » . ولكننا نبادر الى القول صراحة « بحقكم قولوا لنـا متى ضيم اديب او شاعر عربي في حريته ، ولم يرتفع صوت الادبـاء اللبنانيين بالدفاع والاحتجاج ؟ لكن الذي يؤسفنا اشد الاسف هو ان يقف وفد قطر عربي واحد فقط ، لاول مرة في تاريخ المؤتمرات الادبية العربية ، برغم رأي الاكثرية ، ويتخذ موقفا لوحده منسجما مع مـا تفرضه عليه رسالة الادب المسؤول ، وحال الشعب العربي في كل من اقطاره . اجل ، لقد انسحب وفدنا من المؤتمر لانه فشل في اقناع رؤساء الوفود العربية بتبني « ميثاق الشرف » المشار اليه آنفا .غير اننا كنا بموقفنا هذا متيقنين من اننا انما نعبر عن رأي الاكثرية التي آثرت الصمت ومحضتنا ثقتها عندما اعربت عن موافقتها على موقفنا ، الا انها انسحبت خوفا مما قد يجره عليها موقفها من ارهاب اخر ، لا قبل لها بتحمله .

اما الان ، وقـد عاد المؤتمرون كل الى قطره ، فعلـى الذين آثروا الصمت والتقية ، ان يحاسبوا انفسهم لتعلم « كل نفس ما قدمت وما اخرت » ، ولينظروا في ما ينبغي ان تصار اليه احوال اتحاداتهـم الادبية ، لكي لا يظلـوا عرضة لهذا القمع الاخر الذي عانوه في المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس . واننا اذ نعاهدهم بالوقوف الـى جانبهم كلما ضيمت حريتهم ، نامل بان يقفوا الى جانبنا في الدفاع عن الحرية التي هي القاسم المشترك بيننا جميعا ، والتي بدونها لن يستطيع اي شاعر او اديب عربي ان يسهم كما ينبغي في معركة المصير العربـي .

٢ . تعليقـات وردود

علق كثير من الادباء والصحفيين والصحف على موقف وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين في تونس وبيانه الذي انتشر على نطاق واسع (وكانت الآداب قد اوردته في عددها السابق) ، كما ان ثلاثة او اربعة مـن اعضاء الوفود العربية الى المؤتمر قد علقوا على البيان بردود مختلفة.

سقوط التمثيل ...

كتب عصام محفوظ الكلمة التالية التي قدم بها في جريـدة « النهار » (عدد يوم الاربعاء ٢٨/ ٣/ ٧٣) بيان اتحاد الكتـاب اللبنانيين :

القرار الذي اتخذ مساء الاثنين ، وسط جو من الحماسـة والغضب ، في بيت الدكتور سهيل ادريس وحضور : حبيب صادق ، احمد ابو سعد ، احمد سويد ، خليل حاوي ، ميشال عاصي ، ميشال سليمان ، ادونيس ، خليل احمد خليل ، انطوان ملتقى ، منير بعلبكي وفؤاد الخشن ، دفاعا عن الحريات وتأييدا للموقف الـذي جابه به وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين الى المؤتمر التاسع للادبـاء العرب في تونس ، جميع الوفود العربية ، لم يحدث حوله ، وحتى حول تفاصيله اي خلاف .

وكان الوفد اللبناني انسحب من المؤتمر احتجاجا على رفض بقية الوفود اثارة قضية حرية الادباء المضطهدين في بعض البلدان العربية .

واتخذ القرار اهميته التاريخية من كونه ساوى بين ممثلي الطليعة الادبية العربية وممثلي الطليعة السياسية وادان جميع « الممثلين » .

تضمن القرار ، ودون ان يوضح ذلك في كلمات ، سقـوط التمثيل في هذه المرحلة . كل التمثيل . وكشف ايضا الدور الاساسي الذي علينا ان نلعبه في استغلال هذه « الحرية النسبية » في لبنان ، المتنفس الوحيد للطليعة الادبية والسياسية غير الرسمية للفكر العربي الجديد ، الذي سيقود المرحلة المقبلة ، مرحلة ما بعد الانهيـار واليـأس .

الحرية .. بين اتحادين

وكتب علاء النابلسي في جريدة « الحياة » (عدد ١٨/ ٣/ ٧٣) الكلمة التالية :

انسحب « اتحاد الكتاب اللبنانيين » من « اتحاد الادباء العرب » لان عددا من وفود الاقطار العربية الرسميين رفض اقتراح الوفـد اللبناني اثارة قضية حرية الادباء المضطهدين في بعض البلدان العربية واتحاد الكتاب اللبنانيين بعد انسحابه يهدد باتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة اتحاد بديل لاتحاد الادباء العرب المتهم « بالعمالة للسلطـات الحاكمة ضد الادباء ومساعدته لهـذه السلطات علـى اسلوب القمع والارهـاب » .

وهذا الموقف الذي يتخذه اتحاد الكتاب اللبنانيين ، والاتجاه الذي يتجه اليه ، يستحق الاعجاب والتقدير ، وينسجم كل الانسجام مع طبيعة الشعب اللبناني والنظام الحر الذي يسود الدولة والمجتمع في لبنان .

ولكن هل التهمة التي توجه الى « اتحاد الادباء العرب » بالعمالة للسلطات الحاكمة ، وممالأتها ومساعدتها على اسلوب القمع والارهاب هي من الامور المستجدة او الطارئة ؟ ام انها حالة قائمة وملازمة لاتحاد الادباء العرب منذ قيامه وتأسيسه ، وانه كان على الدوام وفي مختلف المراحل كما هو الان بلا تغيير ولا تبديل ولا انكفاء ولا انحراف !؟

سؤال جدير بان يكون موضع تأمل وتدبر ، ومراجعة للمواقف او استعراض للوقائع والحوادث ، قبل السعي والعمل لاقامة اتحاد بديل لاتحاد ادباء العرب الراهن .. لقد سبق هذا المؤتمر الذي انعقد في تونس وانسحب منه الوفد اللبناني عدد من المؤتمرات عقدها « اتحاد الادباء العرب » في العواصم العربية المضيفة ، وكان انعقادها فـي ظروف واوضاع صعبة على الحريات العامة وعلى ارباب الفكر ، وكـان

اضطهاد الادباء والكتاب بالغا ذرواته وقممه العالية ، وكانت اعمال الاعتقال والسجن والخطف والتعذيب في افظع حالاتها ، واشام آيامها تمارسها سلطات العواصم التي تجتمع فيها وفود اتحاد الادباء العرب من كل الاقطار والامصار ، ويجري ما يجري فيها من المقارضة والمقايضة بالنسيب والتشبيب ، وبالشعر والنثر ، وبالخطب المرتجلة والمكتوبة، بين اتحاد الادباء وبين السلطات الحاكمة ، وينتهي كل ذلك بعــد المغازلات والمجاملات ، الى الخواتم السارة التي تريح الاعصاب والنفوس وتبهج الابصار وتقر العيون ، فلا انسحابــات ولا اعتراضــات ولا احتجاجات ، الا فيما يرضي ويوافق تلك السلطات ، ويجعلها تنتشي سرورا وحبورا ..

فما الذي تبدل او انقلب الان حتى صار عميلا اليوم من لم يكن عميلا بالامس ، وصارت ممالأة للسلطات ما لم تكن ممالأة في السنوات الخاليات .. هل كان ذلك بتبدل المواقع ؟ ام بتغير الاشخاص ؟ ام باختلاف المواصفات ؟ ام بتطور السياسات ..؟ كل هذا يحتاج الى تأمل وتدبر ومراجعة قبل التفكير .. بالبديل الذي هو في بطن الغيب. مجهول الهوية .. مجهول المنطلق .. مجهول الاتجاه ..

ليس في هذه الكلمة تعريض بموقف « اتحاد الكتاب اللبنانيين » ولا هي للتقليل من شأن موقفهم وانسحابهم او رفضهم واحتجاجهم .. فكل ما فعلوه يستوجب الثناء والاشارة ببادرتهم ، بصرف النظر عما مضى وعما كان ، والعمل الطيب لا ينتقص من قدره ولا ينال مــن مكانته النقد او التجريح ..

حكومة « الاهلا وسهلا »

تحت هذا العنوان كتب عبد الكريم ابو النصر (النهار ، الخميس ٢٩/ ٣/ ٧٣) الكلمة التالية :

حكومة الرئيس انور السادات الجديدة تطل على العالم العربي بوجه متفائل مبتسم بريء ، هو وجه وزير الثقافة يوسف السباعي . ويوسف السباعي يعرفه الصغار والكبار ، يعرفه الذين يتابعونه سياسيا والذين يقرأونه روائيا (له كمية محترمة من الروايات) ويشاهدونه سينمائيا (يشاهدون رواياته سينمائيا) .

والذين يعرفون يوسف السباعي يقولون ان اصراره على الظهور مظهر المتفائل الواثق بالمستقبل ، لا يقل عن اصراره على اظهار نفسه كروائي عربي بارز يقف جنبا الى جنب مع الروائيين الكبار . ومـن حرصه على هذا الجانب المبتسم ـ المضيء ـ من شخصيته ، كــان يوسف السباعي يتوج مقاله الاسبوعي في مجلة « آخر ساعة » بعبارة يقول فيها : « كلمــا لاقيتك لا اجد كلمــة اقولها سوى اهلا وسهلا ».

وكانت هذه العبارة تتكرر كل اسبوع ، موقعة بامضاء يوســف السباعي ، والى جانبها صورة يوسف السباعي وهو يبتسم .

اذا ، حكومة الوجه الضاحك .

لكن من سوء حظ يوسف السباعي ـ وهو ، انصافا ، لا يستحق هذا الحظ السيء بعد كل هذه السنوات من التفاؤل والابتسام ـ من سوء حظ يوسف السباعي انه عين وزيرا للثقافة (الرجل الصحيح في المكان الصحيح) في اليوم الذي صدر بيان مطول لاتحاد الكتــاب اللبنانيين (انفردت بنشره « النهار » امس) يكشف الدور الذي لعبه السباعي في مؤتمر الادباء العرب المنعقد في تونس قبل ايام ، لمنــع تبني قرار ـ تقدم به الوفد اللبناني ـ يستنكر « قمع الفكر او ارهاب الادباء او التضييق على حرياتهم » ويطالب بالغاء « التدابير القمعية » التي اتخذت في مصر في حق عدد من الادباء والكتاب والمثقفيــن البارزين . ووفقا لما جاء في بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين الجريء ـ وهو اول بيان من نوعه يتضمن استنكارا لقرار اتخذته مصر ـ فان السباعي نرفز وهدد وتوعد ولم يعد وجهه الضحوك يضحك ، حين علم ان الادباء والكتاب اللبنانيين يطالبون برفع التدابير التي اتخذت ضد كتاب مصريين ، امثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض ولطفي الخولي واحمد عبد المعطي حجازي واحمد بهاء الديـن وسواهم وسواهم ، ولانهم يطالبون بحرية الرأي والفكر .

اهلا وسهلا بالوزير الذي نرفز لهذا السبب ، والذي يأتي تعيينه على « انقاض » اوسع حملة تطهير للادباء والكتاب تشهدها مصر . ولا نريد ان نبالغ بالتفاؤل فنتوقع الغاء الاجراءات في ظل الوزير الجديد .

الــف تحيــة ...

وتحت هذا العنوان كتب ابراهيم العريس في مجلة البلاغ العدد ٦٥ (تاريخ ٢ نيسان ١٩٧٣) الكلمة التالية :

اتحاد الكتاب اللبنانيين .. الف تحية !

الف تحية على موقف مشرف مضيء .. في زمن كثر فيه الصمت والجنون ، كثر فيه النفاق والتواطؤ .. وندرت الاصوات المخلصة . زمن صار كل شيء فيه « نعم » .. وندرت « لا » ...

في زمن الموت والانحدار ، وفي زمن التراخي ، تحتاج الآذان الى الاصوات الشجاعة ، وتحتاج الايدي الى القاء تحية الحب ، وتهليلة التالــق .

.. وصراحة ، ما كنا نتوقع أن تأتي هذه الاصوات من اتحاد الكتاب عندنــا .

.. وايضا ، صراحة ، ما كنا نتوقع ان نرفع ايدينا تحية وتهليلا الى هذا الاتحاد .

كنا نعتقد ، ولسنا ندري من المحق في هذا ، كنا نعتقد ان اتحادنا وجماعته ، هم من الموظفين ـ مثلهم مثل غيرهم ـ ان لم يكن للانظمة التي تحكمهم ، فعلى الاقل موظفون لدى مصالحهم الخاصة .. وهـي كثيرة كما كنا نعتقد .

* * *

.. ولكن هي مرة في الحياة ، يصحو فيها الضمير ، وتجلو الرؤيا .. وتضحي راحة البال ، اهم من جاه الجيوب . تصبح كلمـة الصدق والشرف ، أثمن من دفاتر الشيكات .

وهي مرة في الحياة ، بعد التراكم الغاضب .. وبعد الانتظار القميء . مرة يقف فيها الواحد ، وحيدا تجاه كل القيم ، التي لـم يفرضها عليه مجتمع النفاق ، بل فرضتها الرؤيا الصادقة للامور وللحياة يقف المرء ويقول « لا » ...

يقول « لا »للكذب

يقول « لا » للطغيان

يقول « لا » للنفاق

ولمرة واحدة ، في الحياة ، يفرق بين الاديب الاديب ، والاديب اللص . والاديب الموظف ، والاديب المخبر .. اجل هناك في عالمنــا العربي أيضا ادباء مخبرون ؟ هل نكفر ان قلنا انهم هم الاكثرية ؟

اتحاد الكتاب اللبنانيين .. وقف بشجاعة وقال « لا » !

قال « لا » للكذب

وقال « لا » للطغيان

وقال « لا » للنفاق .

* * *

وطبعا ـ كما يحدث دائما في زمن الموت والانحدار ـ وقفــت الاكثرية في مؤتمر « تونس » ، الى جانب الكذب والطغيان والنفاق ـ خوفا او جبنا او مصلحة او اقتناعا ... لا فرق ـ .

وطبعا ، وقفت الاقلية الضئيلة ، الى جانب « لا » الشجاعة .

لكن « لا » هذه ما كانت تمثل هذه الاقلية ، بقدر ما تمثل مئات الادباء الشجعان والمخلصين والصادقين القابعين في زوايا الحرمـان والسجون ، على خريطة عالمنا العربي .

وهل غير الحرمان والسجون ، مكان لمثلهم ؟

اما الاكثرية التي « زينت » بحضورها مؤتمر الادباء العرب في تونس ، فهل هي حقا .. ضمير هذه الامة ومرآتها ؟

ان كان هذا صحيحا فبئس هذا الضمير !

والف تحية للقلة التي وقفت في وجه السلطان لتقول « لا » .

والف تحية لاتحاد الكتاب اللبنانيين .. بمناسبة ميلاده الاول .

حول موقف الاتحاد

وكتبت جريدة « الانباء » في عددها الصادر يوم الجمعة ٦ نيسان الكلمة التالية :

لقي موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين وامينه العام الاستاذ سهيل ادريس في مؤتمر الادباء العرب في تونس عطفا وطنيا وشعبيا واسعا نظرا لما حمل هذا الموقف من اصرار على الانتصار لحرية التعبير والرأي في البلاد العربية ..

وكان اتحاد الكتاب اللبنانيين قد طلب توجيه برقيات الى الرئيس السادات ، والى امير البحرين ، ووزير خارجية المغرب ، تتضمن مناشدة بالرجوع عن كافة الاجراءات المتخذة بحق الكتاب والمثقفين في الاقطار الثلاثة ..

ورغم ان البرقية الموجهة للرئيس السادات كانت تؤكد على قيادة مصر العربية لمعركة التحرر وتتضمن مناشدة الرئيس المصري الرجوع عن التدابير التي اتخذت بحق الكتاب والمثقفين المصريين .. فقد جرت محاولات لتشويه طابعها الديمقراطي وتصوره بانه تهجم على مصر .

وقد تضمنت البرقية الموجهة الى امير البحرين المطالبة بالافراج عن الشاعر الوطني قاسم حداد الذي اعتقل قبل ايام من عقد مؤتمر تونس ..

وكذلك تضمنت البرقية الموجهة الى المغرب مطالبة بالكف عن مضايقة الاديب المغربي عباس برادة .

ورغم ان انسحاب الوفد اللبناني من المؤتمر كان مسالة مفروضة عليه بسبب التصرفات اللاديمقراطية التي ووجه بها .. الا ان الاوساط العربية والوطنية تعتقد انه من الخطأ اتخاذ قرار بالانسحاب من الاتحاد العام للكتاب العرب ... لانه مؤسسة وحدوية شعبية يجب الحفاظ عليها وتطويرها باستمرار .

واذا كان الطابع الرسمي غالبا على الاتحاد في الظرف الراهن .. فان مواصلة خوض معركة الديمقراطية على مستوى الوطن العربي ككل سيساهم في تصحيح صورته وفي جعله ممثلا حقيقيا لكتاب الامة وادبائها ..

الوفد اللبناني .. و ..

وكتب رشاد ابو شاور عضو وفد اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين كلمة في مجلة « الى الامام » (العدد ٤٠٣ تاريخ ٦/ ٤/ ٧٣) جاء فيها قوله :

في حفل الافتتاح كانت الكلمات باهتة ، وكنت اتجول بنظراتي في ارجاء المسرح البلدي : وهو ليس مسرحا بالمفهوم الصحيح وانما هو دار اوبرا صغيرة ذات طوابق ثلاثة ، بالاضافة للصالة .. والدار بنيت ايام الفرنسيين ..

جاءت كلمة فلسطين عاطفية ومؤثرة . ولقد بكى بعض اعضاء الوفود .. اما الوفد اللبناني فقد فاجأ المؤتمر بكلمته الحادة والواضحة والجريئة .. والتي القاها سهيل ادريس ، وطالب فيها بالحرية للكاتب العربي .. وخاصة في مصر حيث الاعتقالات وقطع مصادر الرزق .. وطالب بتوقيع ميثاق شرف للدفاع عن حرية الكتاب والمفكرين في كل ارجاء الوطن العربي .

جاء دور رئيس الوفد المصري ، فقام عزيز اباظه باشا ، واعتذر عن القاء كلمته لسببين احدهما ان السيد يوسف السباعي قد عبر في كلمته عن رأي الوفد المصري . وهكذا بدأ الاشتباك .

تطورات الموقف

منذ اليوم الاول لوصولنا سمعت بعض الشباب يتحدثون عن ضرورة نسف الطابع الرجعي للمؤتمر من خلال طرح ثوري يدفع الامور باتجاه عملية فرز ، واضحة ، محددة .

وهذا كان رأي رئيس اكثر من وفد ، حيث اننا رأينا ان حوالي ستة وفود سوف تطالب بحرية الكتاب في مصر ، وسوف تعلن تشبثها بقرارات معينة .

مساء الخميس :

كانت الجلسة في (بورصة الشغل) . ترأسها محمد المزالي وكان قد انتخب رئيسا للمؤتمر منذ اليوم الاول . وهو حاليا وزير الصحة . وكان وزيرا للتربية قبل شهر ...

حاول (المزالي) ان يقرأ التوصيات . لكن الدكتور سهيل ادريس طلب ان يفسح له المجال لتوضيح موقف الوفد اللبناني . الا ان السيد المزالي رفض ، فالح الدكتور ادريس ، فغضب المزالي واخذ يتحدث بحدة وباسلوب منفر وارهابي ، فأعلن الدكتور ادريس انسحاب الوفد اللبناني .. خرج الوفد اللبناني . وتبعه بعض الاشخاص .. في اليوم التالي ٢٣ اذار ، غادر الوفد تونس الى لبنان . وترك خلفه اسئلة كثيرة استفسارية .

كيف استقبل موقف الوفد اللبناني بالترحاب ، بل والحماس في البداية ثم كيف انقلبت الامور ؟

لقد تدخلت السفارة اللبنانية للتأثير على الوفد اللبناني . لكن الوفد اللبناني – وقد عرفنا ذلك بالتفصيل – اخبر السفير اللبناني ان الوفد يمثل اتحاد الكتاب اللبنانيين ولا يمثل الحكومة اللبنانية ، لذلك فهو بعكس الوفود الاخرى سيواصل الاصرار على موقفه .

في اجتماع رؤساء الوفود طلب سهيل ادريس التوقيع على ميثاق الشرف . فحدثت مناقشات ومشادات بينه وبين يوسف السباعي . استمرت الجلسة ساعتين ونصف الساعة ، تحدث سهيل ادريس حوالي ساعة ، وتحدث السباعي حوالي ساعة ، ما تبقى من الوقت طرحت خلاله اراء الوفود . قال السباعي : كل الادباء الذين كانوا في السجون خرجوا .. اخرهم كان امل دنقل .. لا احد قطع مرتبة .. كلهم في بيوتهم ويأخذون فلوس ، ولا احد منهم يعاني من شيء .

(للعلم كلهم يثبتون وجودهم يوميا اكثر من مرة) .

ثم اعلن السباعي استعداده لاستضافة رؤساء الوفود في مصر ، كلجنة تقصي حقائق ، ولمواجهة الكتاب انفسهم وسؤالهم عن احوالهم ، فشكلت لجنة من ستة اشخاص .. واوقفت فكرة ارسال برقية الى الرئيس السادات تطالبه بالكف عن ملاحقة الكتاب والشعراء والفنانين .. واسقط اقتراح وفد لبنان .. يقال ان رؤساء الوفود وجدوا ان وجهة نظر يوسف السباعي كانت شبه مقنعة او على الاقل تهز الصورة التي كونت في الاذهان عن معاناة الكتاب في مصر ..

المهم ان اللجنة لم تذهب الى مصر في نهاية المؤتمر ،بل توجه كل وفد الى بلاده واكتشفنا ان رئيس وفد فلسطين وحده يتجه الى القاهرة .. مما اضطره لتغيير وجهته مباشرة من القاهرة الى بيروت .. اي من المطار .

كتاب فلسطينيون يستنكرون ...

اصدر عدد من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين بيانا يدين موقف رئيس الوفد الفلسطيني لمؤتمر الادباء العرب في تونس . لموقفه من موضوع الاضطهاد الذي يلاقيه الكتاب والفنانون في مصر ووقوفه بجانب وفود الانظمة الرسمية وقد جاء في البيان :

« نحن الاعضاء العاملين في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، نعلن تأييدنا المطلق لموقف اتحاد الكتاب اللبنانيين المشرف في مؤتمر الادباء العرب التاسع الذي عقد مؤخرا في تونس، وذلك في محاولته لاثارة موضوع حرية الفكر في البلاد العربية ، وشجبه للتدابير القمعية التي اتخذتها السلطات في مصر وفي غيرها من الدول العربية الاخرى بحق عدد كبير من الكتاب والادباء والصحفيين .

كما نحتج بشدة على الموقف الذي وقفه الامين العام لاتحاد الادباء العرب يوسف السباعي في ممارسة الضغط والتهويل على وفد اتحاد الكتاب اللبناني ومنعه من طرح موضوع قمع الحريات الفكرية في مصر وغيرها . هذا بالاضافة الى اثارته لجو من الارهاب والدكتاتورية والسماح لعناصر المخابرات العربية بمراقبة كل نشاط او كلمة تصدر عن المؤتمرين .

ونحن ندين بحزم تدخل بعض المسؤولين التونسيين والسفارات واجهزة المخابرات العربية في خلق جو من الكبت والارهاب الفكري داخل المؤتمر ، وخاصة تجاه تدخلهم جميعا للضغط والتأثير على موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين المشرف في الدفاع عن موضوع الحريات الديمقراطية .

ونتهز هذه المناسبة لنعلن بقوة شجبنا مرة أخرى لتدابير القمع التي اتخذتها السلطات المصرية ضد ابرز الادباء والكتاب والصحفيين المصريين ، كما نشجب سائر التدابير الاخرى التي اتخذتها السلطات في المغرب والبحرين وسائر الدول العربية الاخرى بحق المفكرين والادباء والمناضلين الاحرار .

ومن جهة ثانية ، فاننا نستنكر موقف رئيس وفد اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين لخضوعه لجو الارهاب الذي فرض على المؤتمر باتخاذه موقفا يتناقض مع الموقف الذي سبق ان وقفه الامين العام لاتحاد الكتاب الفلسطينيين في بيروت تجاه التدابير المتخذة ضد الكتاب والادباء والصحفيين المصريين .

وعليه فاننا نطالب ان يقوم اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين .

١ - بمحاسبة رئيس وفده الى مؤتمر الادباء في تونس على موقفه المتخاذل .

٢ - تبني الاعلان الرسمي لكافة المواقف والخطوات التي اتخذها اتحاد الكتاب اللبنانيين والتضامن معه .

٣ - شجب الدور الذي قام به الامين العام لاتحاد الادباء العرب يوسف السباعي .

التواقيع :

سيمون خوري ، مؤيد عثمان البحش ، وليد دسوقي ، شحادة موسى عنان العكري ، نزيه قوره ، جميل هلال ، هاني مندس ، صادق جلال العظم .

بيان اتحاد الكتاب الفلسطينيين

نشر اتحاد الادباء والصحفيين الفلسطينيين الكلمة التالية :

« لقد كان موقف الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين واضحا في ما يتعلق بقضية الحريات والدفاع عنها . ولا حاجة الى التذكير بان اتحادنا كان السبّاق في تحديد موقفه من قضية الكتاب والصحافيين في مصر .

اما في ما يتعلق بموقف وفدنا في مؤتمر الادباء العرب في تونس، فاننا نريد ان نوضح ما يأتي :

١ - لقد اكد رئيس وفدنا، نائب الامين العام الاستاذ يوسف الخطيب ، انه كان متفقا مع الدكتور سهيل ادريس ورؤساء وفود عربية اخرى حول تأييد ارسال برقية الى الرئيس السادات ، في شان الكتاب والصحفيين المصريين الذين شملتهم القرارات الاخيرة.

٢ - فوجىء رئيس وفدنا عند بحث الموضوع في اجتماع مغلق لرؤساء الوفود ان الوفود كلها ما عدا وفدي لبنان والبحرين رأت استبعاد موضوع ارسال برقية .

٣ - رأى رئيس وفدنا ، حين رأى ان لا امكان لارسال برقية، ان يكون ميثاق الشرف الذي اقترحه رئيس وفد لبنان في صدد قضية الحريات ضمن البيان الختامي ، وان يكلف المؤتمر لجنة لزيارة مصر والتعرف على احوال الكتاب والصحافيين فيها .

ووافق رؤساء الوفود على هذا الاقتراح ودمج ميثاق الشرف المقترح في البيان الختامي وشكلت لجنة لذلك الغرض .

وكنا نعلم ، منذ ذهب وفدنا الى المؤتمر ، ان مؤتمرا يخضع للسياسة العربية الرسمية لا يستطيع ان يتخذ قرارات ادانة في موضوع من هذا القبيل .

كما اننا نحس بان اتحاد الادباء العرب اقرب الى تمثيل الانظمة وان فعالياته تقتصر على عقد مؤتمر كل سنة او سنتين ، اذا وافقت دولة من الدول العربية على استضافة المؤتمرين .

وليس اتحاد الصحافيين العرب احسن حالا . واننا سنقوم باتصالات مع بعض الاتحادات الادبية والصحافية العربية ومع بعض الكتاب والصحافيين من اجل البحث عن طريقة لزيادة فعالية كل من اتحاد الادباء العرب واتحاد الصحافيين العرب . كما اننا مستعدون لاتخاذ اي موقف يخدم قضايا الحريات والدفاع عنها ، خارج اطار هذين الاتحادين ، اذا لم يكن ذلك ممكنا داخل اطارهما مع تأكيد حرصنا على ان نكون اعضاء فعالين في الاتحادين .

ناجي علوش

امين اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين

عن موقف الوفد الفلسطيني ..

ونشرت مجلة « الهدف » في عددها ذي الرقم ١٩٨ (تاريخ ١٤ نيسان ١٩٧٣) المقال التالي :

ان ما حدث في تونس في مؤتمر اتحاد الادباء ليوضح نقطة هامة، هي ابعد بكثير من موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين المشرف والواضح، ذلك ان كثيرا من المؤتمرين هم مع قرار اتحاد كتاب لبنان ، ولكنهم لا يستطيعون ان يسجلوا موقفهم هذا ، وان يعلنوا اصواتهم .

وهذا هو الاضطهاد ، بل منتهى الاضطهاد ، ان يكون الاديب خارج جدران السجن وهو غير قادر على قول كلمته سيما فيما يتعلق بآخر بين جدران السجن .. المسألة ، انما حرية الانسان العربي ، ونضاله من اجل الغد الافضل . وحرصا على ان لا تكون المؤتمرات الادبية مواعيد روتينية للقاءات واستضافات وان يكون موعد اي مؤتمر بمستوى الاحداث التي تدور في المنطقة وفي العالم، وحرصا على ان تكون القرارات عملية وفعالة ، كانت وقفة الوفد اللبناني معبرة عن اصوات كل المتطلعين الى المؤتمر ، او بالاحرى، المتطلعين الى العناصر المتقدمة فيه ذهنيا . ولقد اوجدت وقفة الوفد اللبناني ردود فعل رسمية وشخصية مختلفة ! وهو امر طبيعي نتيجة لتوعية المؤتمرين والاتحادات . ومما اورده البيان ما تضمنه من تساؤل ازاء موقف اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين نشر هنا بيان الاتحاد ، مع محاورتنا التي اجريناها مع الاديبين ناجي علوش ويوسف الخطيب ، بصدد موقف الوفد الفلسطيني في المؤتمر ، وكذلك وجهة نظرهما . زيادة في الايضاح ، وردا على استفساراتنا اوضح الاستاذين (علوش والخطيب) :

- ان الاتحاد العام للكتاب العرب هو جزء من الواقع الرسمي العربي ، لذلك ليس من السهل تجاوزه ، فهل يعني هذا وجوب الغاء الاتحاد او حله ، وتشكيل اتحاد اخر ؟.

الواقع يصعب ادعاء امكانية ذلك ، او تشكيل اتحاد يتجاوزه، او تشكيل اتحاد اكثر ثورية !

لماذا لا نستطيع حل الاتحاد ؟! لاننا لسنا الذين كونوه ،وهو ايضا في رعاية هذا النظام او ذاك . في نفس الوقت يصعب المبادرة الى انشاء اتحاد بديل ، لاننا لم نجد من الاتحادات العربية من ينضم الينا ، اذا ما استثنينا لبنان (وهذه مأساة حقيقية) لذلك نشعر نحن – اتحاد الكتاب الفلسطينيين بضرورة النضال ضمن هذا الاتحاد ومع الاعضاء الذين فيه من اجل دفعه خطوات الى امام ، تطوره ، وتزيد من فعاليته . وايضا نناضل خارج هذا الاتحاد ومع كل الادباء من اجل القيام بمبادرات ذات خدمة لقضايا الشعوب.

بالنسبة لنا ، فليس هناك اي خلاف حول قضية الحريات ، وما اتخذ من موقف ، انما كان موقف الاتحاد وليس هو موقف اشخاص. ان رئيس الوفد رأى ضرورة ارسال برقية (تناشد الرئيس السادات ان يعيد النظر بشأن الكتاب في مصر) . وبعد ذلك اكتشف ان رؤساء الوفود قرروا ايقاف ارسال البرقية ، فشعر ان قضية البرقية هي قضية خاسرة . فوجد ان تضمين البيان الختامي بميثاق الشرف هو امر مهم ، وان زيارة مصر من قبل لجنة خاصة للتعرف على احوال الكتاب هناك هو امر ضروري . هناك من قال ان هذا الاقتراح ، هو اقتراح « تمييعي ». نحن لا نقول ان هذا الاقتراح اكثر ثورية ، ولكن عندما سقط مشروع البرقية ، رأينا انه من الاجدى عدم ضياع القضية كاملة ، فاجتهد رئيس الوفد بتضمين البيان ميثاق الشرف ، من اجل ان نساهم بقسط قليل اذا لم نستطع ان نوفر اكثر ، وكان الاقتراح يقصد بالذات مصر والمغرب والبحرين مع تأكيدنا ، اننا لا نعول (كثيرا) على مثل هذه اللجنة .

نحن نرى ان النضال داخل وحدة الاتحاد افضل من النضال من خلال تكتلات . عندها سيكون هناك اتحاد تقدمي واخر وسط وثالث رجعي . وهنا يصبح النضال من اجل الحريات اكثر صعوبة .

ونود ان نوضح في النهاية ،

اولا – ان اتحادنا ليس اتحادا رسميا، ولسنا مقيدين بمواقف رسمية مقيدة بمنظمة التحرير الفلسطينية .

ثانيا – ان اتحادنا جزء من الحركة الوطنية الفلسطينية ،ويجب ان لا تحمل منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية المواقف التي نتخذها.

ثالثا – ان مهمة هذا الاتحاد هي مهمة سياسية ، وهذه المهمة السياسية هي اساس النضال من اجل قضايا الحريات سواء كانت متعلقة بقضايا الشعوب او بالاتحادات او الافراد .

هذا ما اوضحه الاستاذان (علوش والخطيب) . قبل ان نقول كلمتنا في ما اورداه نود ان نوضح بان المعلومات التي وردتنا من المهرجان من خلال محاورتنا مع بعض الادباء العرب الذين وصلوا بيروت ، ان الوفد الفلسطيني قد اعتذر عن تسلم الاوسمة التي وزعها الحبيب بو رقيبة على رؤساء الوفود وقال رئيس الوفد : « اننا نطالب بالبنادق والمساعدات الى المقاتلين .. وبعد التحرير سنكون مستعدين لقبول الاوسمة » .

ان هذا الموقف لا شك يعكس التطلع الحقيقي للاديب الملتزم ، ولكن – كما ارى – ان الذي يتخذ مثل هذا الموقف الواضح لا يمكن ان يقف ازاء ارسال برقية « تناشد » السادات باعادة النظر في قراراته ازاء الادباء والمفكرين في مصر ، ان يقف معلنا الموافقة ازاء ما يسمى بالحصيلة الديموقراطية .. المسألة هنا لا تحتمل التصويت. لا تحتمل اطلاقا عد عدد الاصابع ، لانها مسألة اساسية المفروض ان يتحملها الكتاب والمفكرون العرب .. هي مسألة الحريات ، وفي هذه المرحلة الدقيقة من حياتنا . هذه المسألة لا تنسجم الا مع اتخاذ الموقف الواضح الذي يعلن للجماهير العربية . من هنا جاء موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين ، ومن هنا ايضا جاء وقوف الجماهير العربية الى جانب موقفهم الواضح .

ان ارسال برقية هو بحد ذاته عمل ضئيل جدا ازاء اغتيال الحريات ، ولكن حتى هذا الموقف وهو بصيغة « مناشدة » تلاشى بسبب العلاقات الرسمية . ثم هل من الصحيح ان تموت الحريات لكي تعيش الانظمة ، ام العكس هو الصحيح ؟ .

رد على وفد الكويت ..

اصدر اتحاد الكتاب اللبنانيين في ٣ – ٤ – ١٩٧٣ البيان التالي ردا على بيان نشره رئيس وفد الكويت :

قرأنا رد الاستاذ احمد السقاف رئيس وفد الكويت الى المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس (جريدة « النهار » ، الاحد ١ نيسان ١٩٧٣) .ولنا عليه التعليقات الاتية :

١ – لم نكن نعرف ان وفد الكويت وفد غير رسمي . اما وقد عرفنا الان ، فذلك يجعلنا اشد شجبا واستنكارا لموقفه من قبل؟

اما ادعاؤه انه « لم ينزلق في المنحدر الذي تم اعداده سلفا للتشهير بجمهورية مصر العربية .. » فهو مرفوض كليا . لقد اوضحنا في بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين ان موقفنا منطلق اصلا من ايماننا بدور مصر الطليعي في المعركة . ولنا من ماضينا وخطنا الحالي ما يؤكد ذلك . ولكن اليس من المضحك – المبكي ان يعتبر صوت الوفد اللبناني دفاعا عن حرية الفكر في مصر وكل بلد عربي اخر « مزايدة » و« تشهيرا » ؟ أليس هو بالاحرى « مناقصة » بل « خيانة » ان يصمت الادباء العرب واتحاد الادباء العرب عن اضطهاد حرية التعبير وقمع المفكرين والادباء ؟

ان هذه المغالطة التي يوردها الاستاذ السقاف هي من البساطة والاستهانة بالفكر بحيث تذكرنا بكل الكلمات التي القاها في مؤتمرات الادباء ارتجالا ودون ما اعداد !

٢ – يقول الاستاذ السقاف (ونحن اشد تهذيبا من ان نصفه ب « المذكور » كما وصفنا اكثر من مرة في رده...) اننا دعونا « الى الاضراب والاعتصام في سفارات مصر في البلدان العربية كافة احتجاجا على فصل بعض الادباء من الاتحاد الاشتراكي في جمهورية مصر العربية».

وهذا تشويه وتحريف لكلمة رئيس الوفد اللبناني في المؤتمر . فهو قال في معرض اقتراحه « ميثاق الشرف » بان ينص هذا الميثاق على ان « يتعهد الاتحاد العام للادباء العرب بان يبادر الى شجب كل محاولة في اي بلد عربي ، لقمع حرية الفكر ، واتخاذ جميع الخطوات الضرورية لرفع هذا القمع ، بتجاوز التنديد والاستنكار ، الى مظاهرات الاحتجاج والاعتصام عند الحاجة في سفارات البلدان التي يقع فيها القمع .. ».

ومقارنة سريعة بين النصين تدل على سوء نية رئيس الوفد الكويتي حين يشوه كلمتنا بالتركيز على سفارات مصر بالذات ، وهو ما لم نذكره ، وباسقاط عبارة « عند الحاجة » .

٣ – يؤسفنا ان يردد الاستاذ السقاف ، دون تمحيص او تحقيق، كلمة الامين العام لاتحاد الادباء العرب حين وصف موقفنا بانه « تمثيل » . لقد كان جميع اعضاء المؤتمر يعرفون اننا سنثير موضوع حرية التعبير ، لاننا سبق منذ ثلاثة اشهر تقريبا ان اثرناه في بيروت حين شاركنا في لقاء المثقفين اللبنانيين والعرب ووقعنا على بيان للرأي العام وبرقية للرئيس السادات فيهما مناشدته الغاء التدابير المتخذة بحق عدد من الادباء والصحفيين والفنانين المصريين . وهكذا نكون منسجمين ومتابعين موقفنا السابق (الذي سنتابعه الى النهاية) . ولو لم نفعل ذلك في المؤتمر الذي هو المكان الاصلح لاثارة الموضوع ، لكان موقفنا الاول في بيروت تمثيلا وتدجيلا !

٤ – ويؤسفنا ان ينساق رئيس وفد الكويت لدعوى بعض

اعضاء الوفد المصري ان موقف الوفد اللبناني انما املاه « منع مجلة « الآداب » من دخول القطر المصري مع بقية الصحف المعادية لمصر ». ان اتحاد الكتاب اللبنانيين يأذن لامينه العام بان يؤكد الواقع الذي يعرفه الجميع ، وهو ان منع « الآداب » بدأ منذ وقف اتحاد الكتاب اللبنانيين موقفه من التدابير التعسفية التي لحقت بالادباء المصريين، وليس قبل ذلك . الا يعتقد الاستاذ السقاف بعد هذا ان منع هذه المجلة ، او سواها ، انما يندرج في سياسة القمع والارهاب بالذات؟ أكان يجب ان نصمت عن اضطهاد الادباء مخافة ان يقال اننا نتكلم لان مجلتنا منعت ؟ ان تاريخ مجلة « الآداب » في المنع والمصادرة معروف وقديم العهد . وليس صاحب المجلة من الاستقلال لاتحاد الكتاب اللبنانيين ، وليس اعضاء اتحاد الكتاب اللبنانيين من الانسياق والسذاجة (وليسوا هم موظفين في « دولته » ..) بحيث يخضعون لمثل هذا الاستغلال ، لو كان صحيحا !اما تصنيف المجلة « مع بقية الصحف المعادية لمصر » فيرد عليه ثلاثة اجيال على الاقل من ادباء مصر المبدعين الذين نشأوا وترعرعوا على صفحاتها منذ عشرين عاما ، وليس فيهم حتما هؤلاء الذين يتهمونها بالعداء لمصر ، لان منهم ثلاثة شعراء عرفوا بانهم شعراء الملوك : عزيز اباظة وصالح جودت واحمد رامي . أيكون هؤلاء أشد ايمانا واعمق صداقة منا لمصر الثورة التي اسقطت الملكية في مصر ؟

٥ – اما ان رئيس الوفد اللبناني في المؤتمر رفض اقتراح تأليف « لجنة لتقصي الحقائق » تكون مهمتها السفر الى جميع الاقطار العربية دون استثناء لدراسة اوضاع الادباء والمفكرين في الاقطار العربية الخ .. » ، فهذا صحيح ، لانه اعتبر هذا الاقتراح تمييعا لقضية اضطهاد الفكر في ثلاثة اقطار معينة نعرف ان فيها تدابير صريحة ضد عدد من الادباء . وقد تنبأنا لدى تقديم هذا الاقتراح الذي يدخل في سياسة « التسويات » وروح « جمع الشمل » ،وهي سياسة تدينها الاحداث وتدينها روح الثورة الحقيقية ، تنبأنا بنتيجة الاقتراح ، وهي نتيجة كل تحقيق تقوم به اللجان التمييعية ،ورفضنا الدخول في التفاصيل : ممن تتألف اللجنة ، وكيف ، ومتى تقوم بمهمتها الخ .كان امامنا قضية واضحة جلية : عشرات من كتاب مصر وصحفييها وفنانيها مصروفون من العمل ، او منقولون من اعمالهم التحريرية ، وممنوعون على كل حال من النشر في الصحف ، وكاتب او اثنان من كتاب المغرب واقعان تحت الارهاب الفكري ، وشاعر في البحرين معتقل . فلماذا تتألف لجنة لنسافر الى «جميع» البلدان العربية الا بقصد التمييع الذي يتيح الاستمرار في موقف الارهاب ، او اطالته على الاقل ؟

٦ – اغفل الاستاذ احمد السقاف تفصيلا هاما في معرض حديثه عن التصويت على اقتراحه واقتراحات الوفد اللبناني في جلسة رؤساء الوفود ، وهو أن رئيس الوفد طلب من رئيس المؤتمر ان يحتفظ له بحق الاعلان عن موقف الوفد في جلسة البيان الختامي العام ، فوعده الرئيس بذلك ، ولهذا عدل عن الانسحاب من جلسة رؤساء الوفود ، وكان الاستاذ السقاف نفسه ممن طلبوا اليه البقاء. اما ان يحرمه رئيس المؤتمر من بعد هذا الحق ، ويمنعه من الكلام، فذلك نقض للوعد ، فضلا عن انه خرق للياقة .

واما مطالبة رئيس المؤتمر بان نكون ديموقراطيين ونتقبل النتيجة « بروح رياضية » فتتناقض مع روح الديكتاتورية التي قادته بتحريض من الامين العام الى عدم الافساح في الجلسة الختامية امام اعضاء المؤتمر لمناقشة البيان العام . وكانت هذه شكوى عبر عنها جميع اعضاء المؤتمر . ثم اننا اعتبرنا امتناع رؤساء الوفود عن ادانة اضطهاد الفكر ، لاعتبارات سياسية او حساسيات خاصة، نقضا لمهمة اتحاد الادباء العرب وخرقا لقانونه الاساسي . الا يكفي هذا تبريرا لانسحابنا من المؤتمر ومن الاتحاد ؟

٧ – يقول الاستاذ السقاف أن وفد الكويت « كان يدرك ان هذا المؤتمر سيتعرض للمزايدات المفتعلة من اناس لهم ارتباطات خاصة .. » .

كنا نامل منه ان يكون اقل جبنا ، فيوضح قصده من هذه « الارتباطات الخاصة .. » ونطالبه الان بان يحمل شجاعته ليستحق منا أن نرد عليه في هذا الصدد .

عن اتحاد الكتاب اللبنانيين

سهيل ادريس

الامين العام »

مغالطات رئيس وفد الكويت ...

وكتب الدكتور ميشال عاصي في جريدة « الجريدة » (٦ نيسان ١٩٧٣) المقال التالي :

لم يكن في اعتقادنا ان احدا من وفود الكتاب العرب الى مؤتمر تونس او رؤسائها سينبري الى الرد على بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين بعد رفض المؤتمرين تبني الدفاع عن حرية الادب ،وتنكرهم لاهم أهداف الاتحاد العام للادباء العرب ، ولمسؤولية الاديب الحر تجاه اقدس قضية ثقافية يجب الا يتراخى اي اديب جدير بحمل القلم في الدفاع عنها وحتى الاستشهاد في سبيلها ، لا سيما في هذه المرحلة التاريخية بالذات ، وفي مؤتمر عام كمؤتمر تونس .

الا ان اعتقادنا كان في غير موضعه ، لان من يتنكر لمبدأ حريته لا يتعذر عليه العبث بالحقائق والوقائع لتبرير تخاذله وايجاد ورقة التين اللازمة لستر ما لا ينستر .

لكم كنا نود لو ان الاستاذ احمد السقاف رئيس وفد رابطة ادباء الكويت ، وهو الاديب والشاعر الذي نجل ونحترم ، لم ينزلق في ما كتبه لصفحة « النهار » الثقافية يوم الاحد الفائت الى موقف الدفاع الهجومي الذي اوقعه في مغالطات ناباها له ، والجأه الى نهج في النقاش والتفكير يثبت ما جاء في بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين ويحتج له بدلا من الاحتجاج عليه .

ومن المغالط التي وقع فيها بيان الاستاذ السقاف قوله مثلا بأن موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين في طرح قضية حرية الاديب هو موقف « مفتعل » وهو « مزايدة » على موقف سائر الوفود الخ ... جاهلا او متجاهلا هكذا ان قضية حرية الفكر والادب هي قضية اساسية بالنسبة الى الاتحاد ، وهي قضية محورية بالنسبة لنشاطاته ، ولنشاط معظم اعضائه ومعظم الكتاب اللبنانيين منذ ما تكون الاتحاد بل قبل ان يتالف وتنعقد المؤتمرات الادبية في هذا البلد العربي او ذاك . فضلا عن ان الحرية في مختلف وجوهها هي مناخ لبنان، وهي جوهر وجوده ومبرر بقائه واستمراره فليس غريبا ان تكون قضية الحرية هي رسالة كتابه وادبائه وفنانيه الى العالم كله ، لا الى مؤتمر للادباء العرب فحسب .

ومن المغالطات الواردة في بيان الاستاذ احمد السقاف تصوره بأن الدافع الى اتخاذ الادباء اللبنانيين موقفهم في تونس هو سبب شخصي يتعلق برئيس الوفد الدكتور سهيل ادريس وبمنع مجلة « الاداب » من الدخول الى مصر ، وكأني به يقيس الامور بالنسبة الى الوفد اللبناني على ما يجري في معظم الوفود وفي ظنه ان جميع اعضاء الوفد اللبناني هم موظفون في « دولة » الدكتور سهيل ادريس او في مجلته ولا يستطيعون التحرك الا باذنه وفي اطار مصالح تلك « الدولة » وتلك المجلة .

ولنفرض جدلا ان الامر هو كذلك افلم يخطر على بال الاستاذ السقاف أن يتساءل عن السبب الذي من اجله منعت مجلة « الآداب » من الدخول الى مصر ؟ وهل ان منعها ليس من باب كبت الحريات الادبية الذي يستدعي من جانبه وجانب المثقفين والكتاب العرب ،

وهم من مؤتمر عام لهم ، ان يشجبوا مثل هذا التدبير التعسفي ، ويستنكروه اشد الاستنكار وهم يعرفون تمام المعرفة ان مجلة « الآداب » مستقلة ، ومحسوبة في خطها العام على السياسة المصرية والناصرية .

ثم ان الامانة للواقع والحقيقة كانت تقتضي الاستاذ السقاف بأن لا يجتزيء من خطاب رئيس الوفد اللبناني في جلسة الافتتاح مقطعا يتيما يظهر صاحبه وكأنه يدعو الى الشغب والفوضى في احتلال السفارات المصرية استنكارا للاجراءات المتخذة بحق عدد كبير من الكتاب المصريين في حين ان البيان قد دعا الى ميثاق شرف يلزم الادباء العرب والهيئة العامة لاتحادهم بالعمل على ملاحقة قضية المكبوتين في كل بلد من البلدان العربية ، لا في مصر وحدها ، بجميع السبل والوسائل وفي اخرها الدعوة الى اظهار استنكارهم بالاعتصام في سفارات تلك الدول اذا لم تنجح الوسائل العادية في الافراج عن المكبوتين والمضطهدين من الادباء والكتاب .

لكم كنا نود فعلا الا ينزلق الاستاذ السقاف الى مثل تلك المغالطات والمواقف التي تعطي اتحاد الكتاب اللبنانيين الحجة لهم اكثر بكثير مما تدينهم وتدين انسحابهم من مؤتمرات لم يعد فيها نفع الا القيام برحلات ترفيهية هم بالغنى عنها في الظروف المأسوية التي تعيشها الامة العربية اليوم ، وباصدار توصيات ومقررات تظل حبرا على ورق ، ولا يصار الى تنفيذ اي شيء منها على الاطلاق .

اخيرا لكم كنا نود لو التزم الاستاذ السقاف جانب الهدوء والاتزان اللذين اعلن انه سيلتزمهما في رده على بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين ، ولم ينحرف الى دروب الانفعال والمهاترة . وتحويل البحث في قضية مبدئية كحرية الفكر والادب الى منافشة هامشية وكأنها قضية شخصية تتعلق برئيس وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين ، والى ارتباطات اخرى ليس لها اي وجود حقيقي الا في ذهن الكاتب وتصوراته التبريرية للموقف المتخاذل الذي وقفته سائر وفود الدول العربية من اقدس قضية واشرف قضية يمكن ان يلتزمها الاديب العربي في هذه الظروف الحرجة من تاريخنا المعاصر والحديث .

سامح الله الاستاذ السقاف فلقد كان بوسعه ان يدافع عن موقف وفده الى مؤتمر تونس بغير المنطق الذي اتخذه ومن موقع اكثر صراحة وانسجاما مع السياسة التي املت عليه وعلى وفد بلاده الموقف الذي التزموه واضطروا الى الدفاع عنه بالشكل الذي قديرضي السذج من الناس ولكنه لا يرضى احرارهم وطلائعهم بحال من الاحوال.

موقف مشرف ...

تحت هذا العنوان نشرت مجلة « الحرية » في عددها الصادر يوم ٢/ ٤/ ٧٣ الكلمة التالية :

اتخذ اتحاد الكتاب اللبنانيين موقفا مشرفا من قضية الحريات الديموقراطية في مؤتمر الادباء العرب الذي انعقد في تونس مؤخرا .

وكان الوفد اللبناني الذي يرئسه الدكتور سهيل ادريس الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين ومن اعضاء الوفد : احمد ابو سعد ، الدكتور ميشال سليمان ، الدكتور ميشال عاصي ، انطوان ملتقى قد قرر اثارة مسألة حرية التعبير في البلاد العربية في المؤتمر . وطلب الوفد من المؤتمر المصدق على « ميثاق شرف » ينص على ان يتعهد الاتحاد العام للادباء العرب بالمبادرة الى شجب كل محاولة في اي بلد عربي لقمع حرية الفكر واتخاذ جميع الخطوات الضرورية لرفع هذا القمع .

ولكن هذا الموقف جوبه بالرفض من « الوفود العربية الرسمية » التي جاءت لتنطق باسم سلطات بلادها لا ان تتخذ « موقفا حرا » ينسجم مع دور المثقف والكاتب العربي في هذه المرحلة التي تلتقي فيها الانظمة العربية على قمع حرية الفكر والتعبير وتعتقل وتسجن العديد من الادباء والكتاب العرب ، كما تمنع عن الاخرين حرية التعبير والكتابة .

وقد حاول الوفد اللبناني ان يطرح مسألة الاجراءات الاخيرة في اقتراح من هذا النوع .

وقد حاول الوفد اللبناني ان يطرح مسألة الاجراءات الاخيرة في مصر التي طالت عددا كبيرا من المثقفين والادباء المصريين وارسال برقية الى السادات تطالبه بالغاء هذه التدابير .. ولكن يوسف السباعي الامين العام لاتحاد الادباء العرب وقف بقوة ضد ذلك .. (وقد كوفيء بهذا الموقف بان اصبح وزيرا للثقافة في وقت تظهر فيه الثقافة في مصر كما لم تضطهد من قبل !) .

ان ما حدث في مؤتمر الادباء العرب - كما استخلص الوفد اللبناني - يؤكد بان الاتحاد العام للادباء العرب كرس نفسه - نهائيا - مؤسسة رسمية تابعة للحكومات العربية ... « ويجعل اعضاءه مرتبطين حكما بالسلطة ، بل هو يجعل من نفسه عميلا للسلطة في وجه الاديب، يساعدها على قمعه وارهابه » ...

لذلك قرر اتحاد الكتاب اللبنانيين الانسحاب من الاتحاد بكل هيئاته .

كما اتخذ الاتحاد مقررات بتبني قضية كل مثقف عربي يقع تحت ارهاب السلطات ، ويقوم بالدفاع عنه بشتى الاساليب . كما يسعى الاتحاد الى تامين كل مساعدة مادية ممكنة لاي مثقف عربي « يضام في رزقه او معاشه بسبب افكاره واتجاهاته » ، كما يتبنى الاتحاد نشر كل مادة ادبية او فكرية ممنوعة في اي بلد عربي .

كما اعلن الاتحاد انه سيسعى لدى المجلات ودور النشر التي يشرف عليها اعضاء الاتحاد لنشر بعض المواد غفلا من اسماء كتابها شريطة ان يكون متأكدا من معرفة هذه الاسماء في شكل سري .

وسيقيم الاتحاد صيف كل عام ملتقى ادبيا يطلق عليه « ملتقى الادباء العرب الاحرار » يدعى اليه ادباء ومفكرون عرب معروفون بتحررهم واستقلاليتهم .

وسيقام الملتقى الاول في الصيف المقبل تحت شعار « حرية الكلمة العربية المسؤولة » . كما اكد الاتحاد على مشاركته في معركة الحريات التي تخوضها الصحافة اللبنانية في هذه الفترة « التي يبدو فيها ان موجة سياسة القمع والارهاب تقترب فيها من شواطئنا لفرض حلول استسلامية معروفة ..

* * *

هذه المقررات والمواقف التي اتخذها اتحاد الكتاب اللبنانيين نالت عطف وتأييد كل القوى الديموقراطية والتقدمية العربية ، وهي تحتم عليها اعطاء الاتحاد كل الدعم والتأييد والتضامن في موقفه الحر المستقل .. وتؤكد « الحرية » هنا تضامنها الكامل على كل صعيد مع اتحاد الكتاب اللبنانيين في سبيل تنفيذ هذه المقررات ... وتعتبر صفحاتها « مفتوحة لكل صوت يرتفع في سبيل حرية الفكر والتعبير التي تقمع الان من كل القوى الرجعية والفاشية والطبقات الحاكمة الاستسلامية والانهزامية ، والتي تنال بالتخصيص حرية القوى الشعبية والوطنية التي ترفض الحلول الاستسلامية ، والتي تستيقظ اليوم في وجه الطبقات الحاكمة التي ترهن الوطن للامبريالية والصهيونية وتبيعه بالاقساط وبالتنازل تلو التنازل بعد ان عجزت عن تحريره ، فبدلا من خوض حرب التحرير تصوب رصاصها الى الداخل .. الى الجماهير ، والى الطلاب والمثقفين والعمال » .

وقفة اتحاد الكتاب

تحت هذا العنوان كتب انسي الحاج (ملحق النهار في ١/ ٤/ ٧٣) الكلمة التالية :

الوقفة التي وقفها اتحاد الكتاب اللبنانيين في تونس اخيرا حين اعلن انسحابه من مؤتمر الادباء العرب ومن اتحاد الادباء العرب احتجاجا على اضطهاد الادباء وكبت حرية التعبير في بعض البلاد العربية ، هذه الوقفة تغفر لاتحاد الكتاب اللبنانيين الكثير من اخطائه وتعيد اليه الاعتبار .

اخطاؤه ؟ لا نريد هنا تعكير الفرحة بهذه الوقفة المشرفة ، فنذكر بما لا ينفع التذكير به . لا نريد ، مثلا ، ان نسترسل في الكلام على الصمت الذي غرق فيه الاتحاد طوال السنوات الماضية حيال ما شهده العالم العربي من مجازر حريات حسب آخرها ، في مصر ، « فصلا » انها نبهتنا الى ان اتحاد الكتاب اللبنانيين لا يزال موجودا .

ولا نريد ان نسترسل في القول كيف ان اتحادنا لم « يكتشف » محنة الفكر والحرية والاحرار في العالم العربي الا بعدما تخثخت عظام هذه الحرية ووقف امرؤ القيس يرثيها ويبكيها من فوق حصانه ...

حسبنا ان الاتحاد ثاب الى رشده ، ونعم هذه التوبة ، ونعم الوكيل ، ونعم يقظة الضمير هذه ولو متأخرة .

فمن غير لبنان كان ، والاتحادات الاخرى في الدول العربية مربوطة باجهزة السلطة ، سيرفع صوته دون حرج ؟

الا انه ، وان لم يكن في بيان الاتحاد جديد علينا ، نريد ان نلفت بشكل خاص الى كلامه عن عناصر المخابرات المندسة في الوفود الادبية العربية والذعر الذي تنشره حولها .

ادباء جواسيس على ادباء !

كيف يمكن ان يكون الانسان اديبا وجاسوسا على اصحابه الادباء؟ كيف يستطيع ان يجمع بين اصالة الابداع وحقارة الوشاية والدس في الظلام ؟

يمكن ، مع الاسف الشديد .

ولو عرفت العامة اخلاق بعض الادباء والشعراء والفنانين عن قرب لكسفها الذهول . وانا ما كنت اصدق مثل هذا الكلام قبل ان اعرف بتجاربي مقدار ما يمكن ان يبلغه بعض المبدعين ، وبعض مشاهير المبدعين ، من انحطاط في الاخلاق وانعدام في الحس ومن خبث ودجل ومتاجرة بالعواطف وتقلب ورياء وتغليب المصالح على الحقيقة والانسداس بين الناس تحت قناع المحبة وكل غايتهم الطعن في الناس واستغلال براءاتهم وعفويتهم .

امثال هؤلاء يجب فضحهم بلا هوادة ، مهما بلغ شانهم في عالم النفوذ .

ان الابداع هو عالم الروح . انه عالم الحب والبراءة في اقصى درجات حنانهما . ويجب الا نسمح باختلال ميزان الصفاء فيه . ويجب الا نسمح لاهل الظلام بتجريحه .

تعليق من الاتحاد

وجوابا على الكلمة السابقة اصدر اتحاد الكتاب اللبنانيين البيان التالي الذي نشره ملحق « النهار » مع رد كتبه انسي الحاج (٨/ ٤/ ٧٣)

« كتب الاستاذ انسي الحاج في اسبوعياته المنشورة في «الملحق» (الاحد ١ نيسان ١٩٧٣) يحيي الوقفة التي وقفها اتحاد الكتاب اللبنانيين في تونس حين اعلن انسحابه من مؤتمر الادباء العرب ومن اتحاد الادباء العرب احتجاجا على امتناع المؤتمر عن ادانة اضطهاد الادباء وكبت حرية التعبير في بعض البلاد العربية .

ووصف الاستاذ انسي هذه الوقفة بانها « تغفر لاتحاد الكتاب اللبنانيين الكثير من اخطائه وتعيد اليه الاعتبار » وتمثيلا لهذه الاخطاء، استشهد بالصمت « الذي غرق فيه الاتحاد طوال السنوات الماضية حيال ما شهده العالم العربي من مجازر حريات » وانه « لم يكتشف محنة الفكر والحرية والاحرار في العالم العربي الا بعدما تخثخت عظام هذه الحرية » الخ ...

ونحن اذ نشكر صاحب « كلمات » على تحيته ، كنا نود ان تخلو كلمته ، حين وصف وقفة الاتحاد بانها مشرفة ، من روح التمنين بالمغفرة ... فلئن حدث فعلا ان اتحادنا كان مقصرا حين صمت عن « مجازر حريات » قامت في العالم العربي ، فلماذا لم يذكرنا بهذا الواجب ، ولماذا صمت آنذاك عن صمتنا ؟ وهل كان هو شخصيا ، ولديه منبر من اهم المنابر في الصحافة العربية ، اكثر من اتحاد الكتاب اللبنانيين فضحا لهذه « المجازر » ؟

اننا ، على اي حال ، نريد ان نؤكد له ان اتحاد الكتاب اللبنانيين قد رفع صوته في مناسبات كثيرة بشجب القمع والكبت والاضطهاد لحرية الفكر والتعبير .

رفع صوته قبل كل شيء في جميع مؤتمرات الادباء العرب التي حضرها ممثلون عنه ، منذ تاسيسه عام ١٩٦٨ حتى اليوم .

ففي المؤتمر السادس للادباء العرب (القاهرة ١٦ — ٢١ آذار ١٩٦٨) ، القى رئيس الوفد اللبناني كلمة قال فيها :

« اذا كان من حقنا ان ندعي ان السلطات في معظم البلاد العربية كانت تحول دون ان يتمتع المفكر بحرية التعبير التي هي الشرط الاساسي للانتاج الحقيقي ، فمن واجبنا ان نعترف بانهم قلة نادرة اولئك المفكرون والادباء الذين ناضلوا دفاعا عن حرية الفكر او قاموا بتضحية من اجل المحافظة على حقهم في تلك الحرية . ولا نحسب ان من حق اديب ان يطلب من الجندي في الساحة ان يستشهد دفاعا عن حرية الوطن ، اذا لم يكن هو نفسه مستعدا ان يستشهد دفاعا عن حرية الفكر . ويجب ان نعترف اننا نادرا ما وقفنا في وجه الارهاب الذي كانت تمارسه السلطات على فكرنا حين تهددنا باعتقال حرياتنا والسنتنا وتمنع اشخاصنا من عبور اراضيها ، وتمنع صحفنا وكتبنا لمجرد اننا ننتقد احيانا انظمتها او تصرفاتها ، وكنا نؤثر ان نهادن ونرائي وننافق، حتى يرى انتاجنا الطريق مفتوحا امامه ... » .

وواضح ان في هذا الكلام نقدا ذاتيا ، ولكن فيه كذلك ادانة للسلطات على قمعها وارهابها .

وفي المؤتمر السابع للادباء العرب (بغداد ، نيسان ١٩٦٩) قال رئيس الوفد اللبناني في كلمة الافتتاح :

« ان النضج الفني لكل ادب يتطلب شروطا لا تتوفر لكثير من نتاجنا الحديث ، اولها وراسها الحرية ، حرية التعبير عن الرأي ، وحرية النقد ، ذاتيا كان ام موضوعيا . ويجب ان نعترف هنا بان هذه الحرية ما تزال مضطهدة في كثير من البلدان العربية ، وان عدم توفرها بالقدر الكافي هو الذي يزهد كثيرا من الادباء في الانتاج والابداع ... » .

وفي المؤتمر الثامن للادباء العرب (دمشق ، كانون الاول ١٩٧١)، قال رئيس الوفد اللبناني :

« لقد نصت جميع توصيات المؤتمرات السابقة كلها على ضرورة توفير حرية التعبير للاديب العربي ليتمكن من القيام برسالته في معركة المصير . والحق ان الاديب العربي يشكو منذ فترة طويلة ، وفي معظم البلدان العربية ، ان لم نقل فيها كلها ، من ان هذه الحرية غير متوفرة له ، لان هناك دائما سيفا مصلتا عليه ، يتخذ مرة صورة الارهاب ، ومرة صورة المحاكمة ، ومرة صورة الرقابة ... ويكون ذلك تارة بحجة الدفاع عن الدين ، وطورا بحجة صيانة الاخلاق ، بل حتى بحجة صيانة الثورة طورا آخر ... وما من شك في ان هذه الحجج كثيرا ما تكون وهمية ، وانها تخفي وراءها نزعة الى القمع هي نزعة السلطة اجمالا حين يوجه لها النقد . ويستوي في ذلك جميع السلطات القائمة ولا استثني من ذلك سلطة بلدي لبنان الذي ، على ما فيه من حريات ، لا يتورع احيانا عن سجن كاتب وارهابه اذا املى عليه اجتهاده ان ينتقد

بعض رؤساء الدول (...) وعلى ذلك يبقى اديبنا العربي تحت شبح الارهاب والقمع ، فيؤثر في كثير من الاحيان الصمت او يلجأ الى المداورة ... وينعكس هذا الوضع على الموقف الادبي عامة ، هذا الموقف الذي يعاني الان ازمه هي الابداع لعلها اشد الازمات التي مرت بالفكر العربي منذ نصف قرن . ولسنا نريد ان نخلي الاديب نفسه من بعض هذه المسؤولية ، فانهم قلة اولئك الذين يتخذون الادب رسالة ليناضلوا بالكلمة ويدافعوا عن حقهم فيها ... ولكن يبقى مع ذلك ان سلطة السلطة هي الاقوى . فلئن كان ثمة اديب يجرؤ على التعبير عن رأيه ويجد ناشر مجلة او كتاب يجرؤ على تقديم انتاجه ، فسيدركه سيف الرقابة والمنع ، اذا لم يدركه سيف المحاكمة والقمع ! » .

هذه بعض المؤتمرات العامة التي رفع فيها اتحاد الكتاب اللبنانيين صوته في نصرة حرية الفكر وادانة الكبت والارهاب .

ولكنه وقف كذلك في مناسبات عديدة اخرى موقف الدفاع عن الحرية ، نذكر منها برقية الاحتجاج التي ارسلها الى رئيس الجمهورية في لبنان على الحكم الذي صدر باعتقال الشهيد المرحوم غسان كنفاني الذي كان قد حكم بالسجن بسبب مقال جريء كتبه في «الهدف». واثر خروجه من السجن ، زار امين عام الاتحاد يشكره على موقف الاتحاد هذا .

ونذكر كذلك ان الاتحاد تدخل لدى سلطات الامن العام اللبناني قبل ثلاث سنوات لالغاء قرار حظر الدخول الى لبنان على الزميل ناجي علوش (امين عام اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين اليوم) ووفق في مسعاه ، كما تدخل في العام الماضي لالغاء قرار حظر الدخول الى لبنان على الكاتب العراقي المعروف ذو النون ايوب .

ولا شك في ان الاستاذ انسي الحاج يذكر موقف الاتحاد في شجب الاعتداء على مطابع « النهار » وفي مشاركة امينه العام وعدد من اعضاء الاتحاد في المسيرة التي قامت استنكارا لذلك الاعتداء .

وشارك الاتحاد اخيرا في اللقاء الهام الذي ضم قبل ثلاثة اشهر زهاء ثمانين اديبا ومفكرا وفنانا من اللبنانيين والعرب المقيمين في لبنان احتجاجا على التدابير القمعية التي اتخذت في مصر بحق عدد من الادباء والصحافيين . ولم يكن موقفه في مؤتمر الادباء في تونس الا متابعة لذلك الموقف المدافع عن حرية الفكر والتعبير .

قد لا يكون هذا النشاط كله كافيا ووافيا في الاحتجاج على القمع والقهر ، ولكن من الظلم الذي لا شك فيه اتهام اتحاد الكتاب اللبنانيين بانه « كان غارقا في الصمت حيال ما شهده العالم العربي من مجازر حريات ... » .

وايا ما كان ، فقد عاهدنا انفسنا الا نصمت بعد اليوم ابدا ..
ولعل الاستاذ انسي الحاج يعاهد نفسه الا يصمت هو ايضا ، ولا يدعنا نصمت !

عن اتحاد الكتاب اللبنانيين
سهيل ادريس
الامين العام » .

* * *

هذا هو الرد ، واني اعتبره مكملا لوقفة الاتحاد في تونس بالروح النبيلة التي تتكشف عنها الفقرات التي استشهد بها الدكتور سهيل ادريس : فقرات الدفاع عن الاحرار والحرية . واذ اعترف باني لم اكن على علم بهذه الفقرات وبالمواقف التي تعنيها ، اغتنم الفرصة لاسجل الملاحظات السريعة الاتية :

اولا – « الكلام » – مجرد الكلام – على الحرية في المؤتمرات الادبية لا ريب ان الدكتور ادريس يقر معي بانه لا يجدي كثيرا . فالمؤتمرات الادبية ، كما اكتشف اتحادنا اخيرا وبعد خمس سنوات من الاشتراك المتواصل فيها ، هي متاحف متنقلة من بلد الى بلد ، يتفرغر فيها الخطباء بالفاظهم ويسكرون بفصاحتهم ، ويبقى كلامهم محصورا بهم دون سواهم ، لا احد يعيره اهتماما ، ولا هم باتوا ، ضمنا ، يصدقون ان احدا سيصغي اليه . وذلك مرجعه اسباب كثيرة ، ليس اقلها فقدان رصيد هذه المؤتمرات عند الناس ، او ارتباط الوفود الادبية باجهزة السلطة في البلاد العربية ، او اشخاص معظم المشتركين، واشخاصهم لم تعد توحي للشعب كبير ثقة ، بعدما خسرت ثقتها حتى عند اشد القراء سذاجة .

ثانيا – لا شك في ان الدفاع عن الاحرار والحرية والذي يستشهد بها الدكتور ادريس في رده ، هي عبارات مقنعة وكما قلت ذات روح نبيلة . غير انها فقيرة ، وليسمح لي الدكتور ادريس بهذا الوصف . ان العالم العربي يعيش منذ سنين طويلة حالة شبه مستمرة من الارهاب الفكري والنفسي والادبي واحيانا الجسدي الصرف ذهب ويذهب ضحيته كل جيل من الاجيال يقوم ليخلف الاخر . ان الحرية ، وحرية التعبير بنوع خاص ، هي اكبر شهيد في العالم العربي . وهل يكفي ان نقف في مؤتمر بلا اي فعاليه ونلقي بضع كلمات دفاعا عن الحرية حتى لا نكون قد لذنا بالصمت حيال مأساتها ؟

الحرية كل . الحرية ليست نقطة في موضوع . ليست فصلا في رواية . ليست بندا في قانون . ليست لحنا في سمفونيا . انها هي السمفونيا . وعندما تصبح هي القضية الاهم ، كحالها في عالمنا العربي، لا يصح عند ذلك ان نجعلها نقطة في خطاب . اذ ماذا اشد اهمية منها؟ موضوع الفصحى والعامية ؟ قضية المجمع اللغوي ؟ مسائل النشر ؟ اي قضية اهم ، بالنسبة الى الاديب ، من قضية الحريه ، حتى يكون كلامه عليها هامشيا وجزئيا ولا يقرن ، منذ البدء ، بموقف عملي ؟

ثالثا – الكاتب شاهد . والشاهد لا يحتمل اكثر من وصفين : اما شاهد حق او شاهد زور . والدكتور سهيل ادريس الذي تثبت روايته حرصه على الفيام ، كفنان ، بدور الشاهد على عالمه وعصره ، لا شك في انه يفهمني حين اتالم لتخلف اتحاد الكتاب اللبنانيين عن الشهادة باستمرار مع الحرية والاحرار وضد الطغيان والارهاب والاضطهاد ، وبالمستوى الذي نتمناه لاتحاد يحمل اسم لبنان وهو، في النهاية مفروض فيه ان يمثلنا جميعا وان لم نكن جميعا منضمين اليه .

وانا قلت ان الشهادة الاخيرة كانت مشرفة ، لكني اضفت انها كانت متاخرة . واني اكرر كلامي . فانا لا اصدق ان الحرية لم تنكب الا عام ١٩٧٣ . ولا اصدق ان اتحاد الكتاب اللبنانيين لم يكشف نكبتها الا في مؤتمر تونس . لاني لو صدقت ذلك توجب عليّ ان اصدق ان الحرية قبل مؤتمر تونس كانت بالف خير وان الاحرار كانوا يعيشون ملوكا وامراء في العالم العربي .

رابعا – لا اؤمن بالمؤسسات قدر ايماني بالاشخاص . وقبل اتحاد الكتاب اللبنانيين هناك الدكتور سهيل ادريس . واذا كان الاتحاد تأسس عام ١٩٦٨ فلا نستطيع ان نحاسبه على التاريخ السابق لهذا التاريخ ، فان الدكتور سهيل ادريس موجود ، هو ومواقفه ومجلته ، قبل ذلك بزمان . ودون ان اود فتح الجراح القديمة اريد ان اسأله : اين كان المدافعون اليوم عن الاحرار والحرية ، اين كانوا ومع من كانوا وماذا كانوا يكتبون في مجلاتهم وصحفهم ،يوم كنا نحن ، شعراء مجلة « شعر » وكتابها ، نتحمل ، منذ ١٩٥٧ الى الامس ، كل انواع الاضطهاد الفكري ، بدءا من اتهامنا بالعمالة للاستعمار وانتهاء بمنع كتبنا وقصائدنا من عبور الحدود اللبنانية ؟

خامسا – من انا لاغفر حتى امنن بالمغفرة ؟ كل ما هناك انك فسرت الى تمنينا . ولقد كنت متالما ، برغم فرحي ، لان رؤيتك للحقيقة تأخرت . او الاصح ، لان ردة فعلك الصحيحة على الواقع البشع، تأخرت . اليس من حقي ان اتمنى لو انك ما كنت تاخرت؟ اي كسب في الوقت كان سيكون حينذاك للحرية والاحرار ولبنان

والعرب ! وكسبهم فيك هو كسب اكيد ياعزيزي الدكتور سهيل . ولانه كسب اكيد ، خالط فرحي بموقفك في تونس تلك الحسرة على السنوات الضائعة .

★ ★ ★

وبعد ، انا ، شخصيا ، نعم كنت وما ازال أكثر من اتحاد الكتاب اللبنانيين فضحا لمجازر الحريات في العالم العربي . أكثر من اتحاد الكتاب اللبنانيين واكثر من ضحايا تلك المجازر أنفسهم . ولا فضل لي في ذلك ، فهذا واجبي ولا افهم كيف لا زلنا نناقش في وجوب او عدم وجوب الدفاع عن الاحرار ، كأنما القضية تحتمل نقاشا . واذا كان امين عام الاتحاد لا يذكر لي مواقفي وكتاباتي، فهو معذور ، وانا لم اطلب من احد ان يحفظ لي مواقفي وكتاباتي عن ظهر قلب . لكنها ،على كل حال ، موجودة ومنشورة ، وربما تكون « جريمتها » الوحيدة انها لم تلق يوما في مؤتمرات الادباء العرب .

وليتاكد الدكتور سهيل ادريس ان شهوة المنابر لا تقدم كثيرا ولا تؤخر في جوهر الموضوع . فالمهم هو الموقف . واذا كنت انا اكتب في صحيفة منتشرة فهو يملك مجلة ادبية لا تزال انشط المجلات الادبية في العالم العربي واكثرها رواجا ، فضلا عن انها مجلة مختصة بشؤون الفكر ، وليس الفكر فيها مجرد شأن من شؤون اهتمامها كما هي الحال في الجريدة اليومية السياسية.

وليتاكد الدكتور سهيل ادريس ان الاسم هو على قدر الاحترام، واننا لو لم نحترم كونه مسؤولا بين كتابنا ، بل وفي مركز المسؤولية الاشد ، كسهيل ادريس أولا ثم كامين عام لاتحاد الكتاب اللبنانيين ، لما نصحت كلمتنا بالحرفة التي ظنها تمنينا بالغفران.

وليتاكد الدكتور سهيل ادريس ان منبرنا ، الذي يصفه بانه « من اهم المنابر في الصحافة العربية » ، مفتوح له وللجميع ،كما كان منذ ان كان . فنحن لم نغلق يوما دون احد ، ولا صنفنا احدا بسبب انتمائه السياسي او الفكري او العقائدي ، ونحن ننشر حتى لمن يشتموننا ونتبنى قضايا من يحاربوننا ، وليتاكد اننا نفعل ذلك لا من اجل كسبهم ولا من اجل كسب القراء ، بل نفعله لانه مهما ارتفع صوتنا فهو لن يعلو على الحرية .

وليتاكد اخيرا اننا، تكرارا ، نحيي وقفته المشرفة والشجاعة في تونس ، ونحيي عهده الا يصمت بعد اليوم ابدا ، ونقول له : سننسى انك تأخرت ... ولن ننسى عهدك .

انسي الحاج

موقف شجاع

ونشرت جريدة الراية (٢-٤-٧٣) ملخص مقررات الاتحاد مع التعليق التالي :

موقف شجاع وقفه اتحاد الكتاب اللبنانيين عندما انسحب وفده من مؤتمر الادباء العرب التاسع ، الذي انعقد في تونس من ١٨ الى ٢٥ اذار الحالي ، حين رفضت اتحادات الادباء العربية الاخرى اثارة قضية الادباء المضطهدين (المعتقلين والمطاردين) في سجون الاقطار العربية .

وتابع الاتحاد موقفه الشجاع عندما اعلن الانسحاب ايضا من الاتحاد العام للادباء العرب بكل هيئاته وانسحاب اعضائه من عضوية اتحاد الكتاب العرب في سوريا .

وبأخذ هذا الموقف اهميته بل وضرورته في المرحلة الراهنة التي تشهد فيها بعض الاقطار العربية حملة صليبية ضد حرية الكلمة وتضييقا على الادب .. لا الملتزم فحسب ، بل الادب الوطني (بالمعنى الواسع للكلمة) حتى نال هذا التضييق وتلك الحملة من قمم في الادب العربي الحديث لم يكن احد يتصور ان تصل هذه الحملة اليها .

واذا كانت الحملة ضد الادباء والكتاب قد بلغت ذروتها شمولا وعنفا في مصر فان اقطارا عربية اخرى مثل المغرب قد شهدت حملات متتالية وعلى فترات متقطعة ، وكذلك في البحرين حيث تعرض الشاعر قاسم حداد لابشع انواع المعاملة ، كما كان يعامل الاسرى الرومانيون من جرجرة في الشوارع ، ووافق ذلك اعتقال كاتب القصة المعروف امين صالح والشاعر علي عبدالله خليفة .

وتزداد اهمية موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين في الاستنتاجات التي خلص اليها بيان الاتحاد (صحف الاربعاء ٢٨ - ٣) ، حول طبيعة الاتحاد العام للادباء العرب وحقيقة التزييف في الوفود المشاركة والتي تضم بين اعضائها عناصر مخابرات .

ولم يقف اتحاد الكتاب اللبنانيين عند حدود الموقف السلبي، اعلان الانسحاب ، بل قرر استكمال موقفه هذا بخطوات ايجابية اهمها التحضير كل صيف « لملتقى الادباء العرب الاحرار » يدعى اليه ادباء ومفكرون معروفون بتحررهم واستقلاليتهم ، وذلك بهدف العمل على قيام « اتحاد بديل للادباء العرب في المستقبل ».

مقاضاة صالح جودت

واصدر اتحاد الكتاب اللبنانيين البيان التالي :

نشرت مجلة « المصور » القاهرية بتاريخ ٧ نيسان مقالا(اشارت اليه جريدة « النهار ») كتبه الاستاذ صالح جودت وضمنه نقاطا تناول فيها اتحاد الكتاب اللبنانيين وهاجم امينه العام ،وعد موقف وفد الاتحاد الى مؤتمر تونس الذي دافع فيه عن حرية الاديب موقفا ضد مصر ومؤامرة عليها . وكرر هذه الاتهامات في مقال اخر في « المصور » تاريخ ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ .

ولما كانت وردت في المقالين تفسيرات مغلوطة واتهامات ليس الغرض منها الا تشويه موقفنا الناصع وتلطيخه باوحال نفوس أصحاب هذه الاتهامات واخفاء حقيقته عن الاوساط العربية المهيأة للتجاوب معنا في ما دعونا اليه من اجل تجاوز الواقع المؤسف الذي تردت فيه مؤتمرات الادباء والمثقفين العرب ، فقد اجتمعت الهيئة التنفيذية لاتحاد الكتاب اللبنانيين برئاسة نائب الامين العام الدكتور خليل حاوي وحضور سائر اعضاء الوفد وقررت ما يأتي :

اولا - شجب تفسير الاستاذ صالح جودت القائل بان موقفنا هو موقف ضد مصر ، وتكرار ما ذكرناه في بياننا الشامل الذي اذعناه على الملأ تاريخ ٢٨ - ٣ - ٧٣ ومفاده : « ان اتحاد الكتاب اللبنانيين يحرص اشد الحرص على التوضيح ان جميع خطواته السابقة واللاحقة انما ترتكز على الاسهام في حركة التحرر العربية والعالمية ومساندتها ، وعلى الايمان بدور مصر الطليعي ومنجزات عبدالناصر التاريخية ومحاربة الاستعمار والصهيونية ، وادانة الانعزالية المحلية والرجعية العربية ، وتأييد الثورة الفلسطينية ، والعمل على تجسيد ذلك كله في الانتاج الادبي اللبناني والعربي » . والحق اننا لم نكن في ما فعلناه الا مع الشقيقة الكبرى مصر، لكي تخرج من محنتها معافاة .

ثانيا - التأكيد للاستاذ صالح جودت وللرأي العام ان موقف الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين انما كان موقف الوفد بكامل اعضائه والتزاما بتوصيات الهيئة التنفيذية وان موقفهم هذا انما اتخذوه متحدين متضامنين بدافع من ثقتهم المطلقة بنصاعته ، وبدافع من حرصهم على حرية التعبير وهي مقدمة كل تحرر من ان ينحرها الاستبداد والطغيان المهيمنان اليوم في اكثر من بلد عربي ، وتمسكا منهم بمسؤولية القلم التي يلتزمون بالدفاع عنها ، ويتوجهون بهديها في كل ما اتخذوه وما سيتخذونه من مواقف.

ثالثا - اقامة دعوى قضائية على صالح جودت ومجلة «المصور» لما جاء في كلمتيه المنشورتين في المجلة المذكورة من افتراء كاذب على

امينه العام وتشويه مقصود لسمعته الشخصية والادبية وبالتالي لسمعة الاتحاد .

رابعا – تزويد مجلة « المصور » بملف المقتطفات الصحفية المتضمنة ما تركه موقف الوفد اللبناني من اصداء فوبلت بالتأييد من جميع الفئات في لبنان وجعلت وفدنا يحمل راية وضه عن جدارة اكثر من جميع المرات السابقة .

اتحاد الكتاب اللبنانيين

٣ • رسائل تأييد

تلقى اتحاد الكتاب اللبنانيين وامينه العام برقيات ورسائل تأييد من جميع البلدان العربية على موقف الاتحاد في مؤتمر الادباءالعرب بتونس ، وننشر فيما يلي بعض هذه الرسائل والبرقيات ، كاتمين تواقيع بعضها حرصا على تجنيب اصحابها الانتقام والارهاب ..

برقية من العراق :

انسحابكم من مؤتمر الادباء التاسع في تونس موقف عملي يقفه كل الكتاب الاحرار ضد تدابير القمع واضطهاد حرية الفكر والتعبير وخطوة رائدة في طريق الدفاع عن حرية الاديب وقيمه الابداعية وحمايته من ارهاب السلطات وحليفتها الرجعية الادبية نؤيد بتقدير كبير مساعيكم نحو اقامة اتحاد بديل للادباء العرب في المستقبل.

التواقيع : عبدالوهاب البياتي ، سعدي يوسف ، حسب الشيخ جعفر ، حميد المطبعي ، موسى كريدي .

برقية من بيروت

موقفكم اول بادرة تدفع عن شرف الكلمة والحرف غاشية الرياء والاستبداد

سامي الجندي

رسالتان من مصر

كل من   في مصر من الاصدقاء الشرفاء يذكرونكم بأعظم الحب والتقدير والامتنان والجميع يشكرونكم من قلوبهم على موقفكم النبيل الجدير بتحمل مسؤولية القلم وامانة الفكر في وجه الذين يريدون الشر بكل قضايانا الغالية .

(التوقيع)

يسعدني ان انقل اليكم التحية والتقدير من كافة الادباء والكتاب المصريين لموقفكم الشرف النبيل في تونس دفاعا عن حرية الكلمة والفكر .

ان الجميع هنا يتابعون باعجاب عميق وتقدير بالغ كلماتكم الشجاعة في الاداب والبلاغ وغيرهما من المجلات التي لا تقع في ايدينا الا بصعوبة .

ستظل هذه الوقفة الكريمة النبيلة قيدا في اعناقنا الى الابد – قيدا منسوجا من حب واجلال .. .

(التوقيع)

رسالة من نيويورك

تهنئة حارة لانسحابكم من مؤتمر الادباء التاسع ، وتهنئة حارة لانسحاب اتحاد الكتاب اللبنانيين من الاتحاد العام للادباء العرب .عندما يكون الاتجاه العام للسير هو السير للوراء ، فان« الانسحاب » من هذا الاتجاه العام هو « تقدم » للامام .. انسحابكم ، لذلك، هو التقدم نفسه ولهذا يجب تقديم التهاني لكم .

نيويورك   فرانسوا باسيلي

رسالة من الاردن

الدكتور سهيل ادريس ...

تحية طيبة !

لقد قرأت عدد نيسان سنة ١٩٧٣ من مجلتكم الزاهرة « الآداب » فاعجبت بموقفكم البطولي في مؤتمر الادباء الذي انعقد في تونس .احيي فيكم دفاعكم انتم واتحاد الادباء اللبنانيين عن الادباء الاحرار في تفكيرهم والتعبير عنه . وأكبر فيكم تلك الروح الجريئة الصريحة في مقاومة الرجعية والجمود .

لا شك ان المعركة الادبية التي خضتموها في المؤتمر وثورتكم على الرجعية والجمود ودعوتكم الى العمل المثمر المفيد – كل ذلك يعد نقطة تحول في تاريخ مؤتمر الادباء العرب ، وهو يسجل لكم بطولة في صفحة ناصعة من سجل وفائه . ولا شك ايضا ان نجاح الادباء المتحررين بعد هذه المعركة الادبية ، والعمل على القضاء على الرجعية ، واحلال التجديد محلها – كل ذلك يعد انتصارا في النصف الاول من معركة المصير . ان دفاعكم عن الحرية الفكرية والتعبير عنها لا يقل عن دفاع الجيوش العربية عن حدود الوطن العربي العزيز .

اؤيدكم في موقفكم هذا وفيما نطقتم به من كلمات يتجلى فيها الحق والصواب . وكذلك اؤيدكم انتم واتحاد الكتاب اللبنانيين في قراركم الذي اتخذتموهمن اجل اعلاء كلمة الحق والاخذ بأيدي الادباء المتحررين المضطهدين . امضوا في سبيلكم قدما . وفقكم الله في مسعاكم !

عمان   عبدالحميد الانشاصي

رسالة من السودان

الى الاخ رئيس تحرير مجله « الآداب » المحترم ..

تحيات مباركة ، وتقدير لك ، ولكل الاقلام العربية القوية الصامدة ، والتي يحترق أصحابها في سبيل الشرف والكرامة، وعزة الانسان العربي .

قرات بعض المقالات بمجلات وصحف الشقيقة مصر وقد هالني ان بعض كاتبيها قد تخطوا الذوق والكياسة في تعليقاتهم حول الشادة التي حدثت خلال مؤتمر الادباء العرب التاسع الذي انعقد بتونس الشقيقة ، ومن بين اقسى – ولا اقول افذر – ما قرأت من تلك المقالات ، الكلمة التي كتبها الاستاذ الشاعر صالح جودت بعدد المصور الصادر يوم ٦ ابريل ١٩٧٣ . ولست الان بصدد مجاراةالاستاذ صالح جودت الذي نعرفه معرفه جيدة من خلال زياراته المتكررة السنوية للخرطوم ، حيث كان همه – وما يزال – ان يظل السودان (ضيعة) يعتمد عليها في المحافظة على قيم عتيقة تواضع المجتمع على تقديسها ، والتيبس على هياكلها البالية ، مثل الجزالة وضروبها من بديع ومجاز وتركيب واطناب وبحور وتفعيلات وقافية .. الخ .

ان العتب في كل ذلك يقع على التهاون الشديد الذي درج عليه قادة الفكر في العالم العربي منذ مؤتمر الادباء الاول الذي انعقد بلبنان في (بيت مري) ، وبرهان ذلك واضح جدا في بيان (1) « بعض الكتاب التونسيين » .. الفقرة الثانية « وفودها الموفدة ومقاييس اختيارها .. »

واذا كان الشاعر الكلاسيكي صالح جودت ، وبعض رصفائهمن « مدّاح » الملك المفدى « فاروق الاول » امثال محمد عبدالغنى حسن، واحمد رامي ، ومحمود حسن اسماعيل قد هاجموا الشعر الحر

---

(1) « الآداب » العدد الرابع ١٩٧٣ ص ٨٧ بيان من بعضالكتاب التونسيين .

« باه رجز متهتك الاهواء والكسر » فان هذه الظاهرة ليست حديثةعهد، انها ظاهرة عتيقة واكبت جميع المهرجانات الشعرية التي ظلت تقام وفقا للعادة في مختلف أقطارنا العربية ، وما زلنا نذكر مهرجان الشعر الدوري الخامس الذي اقامه المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية في تشرين الثاني ١٩٦٥ باللاذقية بجمهورية سوريا العربية . فيومها هاجم أحد النظامين الشعر الحر بقصيدة عصماء قائلا : (٢)

عداني مد لسان الحديث معطلا
من الحلى يسكو مسمعي من لغوا به
عييت ولم أنزل على المعيّة
ولم اتق آراب النهى في أريبه
فاذا ما القريض السمح غناك غيره
مريبا فاني عائد من مريبه
فما منع الملاح عن خوض بحره
على الزهو الا عجزه عن ركوبه
جديد ولكن عاجز عن سموه ... الخ .

وصحيح أن المسألة – كما يقول الاخ سعدالله ونوس ، اعم من مشكلة مفردة يمكن عزلها وبحثها من خلال ابعادها المحدودة. ولكن بما ان كل (فرد) من الادباء يتصدى للمشاكل من خلال شمولها ، فسيضطر للانزلاق الى « النخوم الملغومة » .. في وافعنا نجدنا مجبرين على الانحباس في حدود المسألة المطروحة سيما ان الانغام لا تميز بين قدم الصديق وقدم العدو ! »

وها انت الان يا عزيزنا رئيس التحرير قد ارتديت قميص (نيسوس) وتصديت للمشاكل ، وها هي الالسنة الطوال امتدت مجلوخة كالامواس تقول فيك ما لم يقله مالك في الخمر ..

ولكن ..

أليس للناس عقول تميز بها الابيض من الاسود ؟.

كلمة اخيرة اود ان اختتم بها هذه الرسالة : ان السكوت لا يجدي ، اذ لا بد من تعرية كاملة . لكل المرتزقة والحربائيين المتلونين الذين لا يتعدى نظرهم مواطىء أقدامهم المفرطحة الفليقة،خصوصا وان المتتبع لاحوال عالمنا العربي هذا يلاحظ بوضوح بروز اساليب وظواهر خطيرة للغاية .. ظواهر يلوح معظمها كدمامل سرطانية خبيثة ظل الناس يتجاهلونها حتى غارت وازمن بها العهد ،فغدت وكأنها سمة من سمات حياتنا الادبية .. طبيعية وواقعية ولا غبار عليها .. وفي يقيني انها ملامح متطابقة الى حد بعيد مع الشعارات التي درجت اسرائيل نعمل بها في حربها معنا .. ومن ابرز هذه الشعارات الاسرائيلية شعار « الزمن » وحده يكرس شرعية الخطأ ! » اذ يجعل هذه الشرعية بمرور الايام مع السكوت امرا مقبولا ومنطقيا ومعقولا !

وفي يقيني مرة اخرى أن لم يواجه الشرفاء من النخبة والادباء مثل هذه المواقف بما يتفق وحجمها – مهما كانت الاحوال – فان القلم – كما يقول جون بول سارتر يضطر حينئذ الى التوقف، ولا بد للكاتب والحالة هذه أن يحمل السلاح .. لا دفاعا عن هذه الملامح الجائرة المكذوبة ، وانما دفاعا عن عالمه الفني الذي هو المبرر لوجوده .. وسلاما عليك ..

الخرطوم — حسب الله الحاج يوسف

---

(٢) مجلة الرائد العربي الكويتية تموز ١٩٦٥ . مهرجان الشعر والدوار الادبي – الاستاذ سعدالله ونوس

رسالة من تونس

احييكم بحرارة لانسحابكم من مؤتمر الادباء العرب بتونس واحيي خطوتكم التالية لاقامة اتحاد بديل ، واحيي ايضا استعدادكم لتبني قضية كل مثقف عربي يقع تحت ارهاب السلطات والدفاع عنه بشتى الاساليب التي تحمل تلك السلطات على رفع القمع عنه ، كما احيي استعدادكم لاقامة ملتقى ادبي سنوي للادباء العرب تحت شعار « حرية الكلمة العربية المسؤولة » .

وارجوكم ان تنشروا نص انسحابي من اتحاد الكتاب التونسيين :

● ازاء اشتداد الحملة التشهيرية التي اتعرض لها من بعض اعضاء اتحاد الكتاب التونسيين وهيئته المديرة بسبب مقاطعتي الموضوعية للمؤتمر التاسع للادباء العرب المنعقد بتونس من ١٨ الى ٢٥ مارس ١٩٧٣ ، والتي تشكل جزءا من موقف جماعي لرفاقي الكتاب الجدد تجسّم في بيان كامل ناقص صريح حملناه وجهة نظرنا في فكرة وواقع المؤتمرات الادبية العربية وفودا وشعارات من ناحية وفي تفاقل هذه الاخيرة عن قضية الحريات على مستويات متعددة من ناحية ثانية ..

● ازاء تصاعد الاختلاف وسوء التفاهم بين الاتحاد وبين رأي الكتاب الجدد حول تقدير دور الادب والفكر في حياة المجتمعات ..

● ازاء اخلال الاتحاد ببعض بنود قانونه الاساسي وخاصة المتعلقة منها بمساندة المواقف الفكرية التحررية والتشهير بأساليب القمع والاضطهاد التي تمارس ضد الكتاب والمثقفين الاحرار وسائرالشعوب المكافحة ضد الامبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد ..

● ازاء العزلة المستمرة والمتزايدة لاتحاد الكتاب داخليا وخارجيا، وغياب الالتزام لديه بالتجاوز الثقافي الى الجماهير باعتبارها القاعدة الاساسية للادب والفكر ..

● ازاء استقطاب الاتحاد المطرد لعناصر لا تمت للادب والفكر الا بصلات الترف الثقافي والهواية الادبية والتواصل السلفي ..

ازاء هذه العلل الوافعة وغيرها ، واعتبارا مني :

– ان الاهتمام بالمحتوى الايديولوجي للكتابة الادبية والفكرية وباتجاهها واشكالها هو التسمية البديلة « للادب » ..

– ان الكتابة اليوم عمل انتاجي يصوغ فيه الكاتب التاريخ ويصاغ به في نفس الوقت ، لذلك فهي طرح وتفسير وانصهار .

– ان الكاتب عامل منتج يمثل جزءا من العلاقة الجدلية بين الادب وقاعدته الاقتصادية والاجتماعية ، أعني بين الادب وواقع الجماهير عامة ..

– ان الاعمال الادبية والفكرية الواعية لا تستجدي الحياة والكينونة من الصالونات والنوادي وحفلات التكريم والمؤتمرات « الكرنفالية » ..

– ان المواقف التقدمية لا تكون الا اممية النزعة والممارسة، لا شوفينية ساقطة ..

– ان الكتابة اليوم مواجهة تنظيمية دائمة ضد المناخات الكهنوتية المتعفنة وقوالب الثقافة الوبائية وجميع مظاهر الاستغلال .. وهي بالتوازي محاولة لانتاج قيم وتطلعات انسانية جديدة ديناميكيةمتطورة.

ـ ان مسؤولية الكاتب التحرري تنطلق اساسا من وعي ذاتي شديد بضرورة التغيير يقف بـه احيانا على حد الجنون او النزيف الدموي ، ومسؤولية بغير هذه الصفة المبدئية اللازمة لا يمكن لها بأية حال ان تمارس عملية التحول على الجماهير ..

اعتبارا مني لهذه المقولات المبدئية وغيرها حول الكتابة الادبية فكرة واختيارا وتحركا اعلن انسحابي من اتحاد الكتاب التونسيين.

تونس — الطيب الرياحي

رسالة من المانيا الغربيـة

قرأت في الصحف العربيـة المختلفة ومنها البلاغ والرايـة البيروتيتان وجريدة (LINKS) الالمانية عـن موقف اتحاد الكتـاب اللبنانيين في تونس . واود ان اشد على اياديكم مهنئـا بهذا الموقف الشريف الرائع ، ايها الشرفاء ، يا فرسان الكلمة الوهاجة الصادقة والحقيقـة التي غدت في دنيا العرب مهشمـة ذبيحة . واذكـر لكم ان لدينا الان مشروع بيـان بالالمانيـة هو احتجاج على موقف السلطة في القاهرة من الادباء والصحفيين الذي اقل مـا يقال فيه انه موقف ظالم ، وسيوقع على البيـان هانيريش بل (الحائز على جائزة نوبـل لعام ٧٢) واريش فريد وغيرهم من كبار الادباء ، وسارسل لكم ترجمة البيـان عندمـا يصدر لينشر في « الآداب » .

المانيا الغربيـة — د . عيسى علاونـة

رسالـة من الكويت

الاخوة اعضاء اتحـاد الكتاب اللبنانيين

تحيـة طيبـة ..

لم يكن غريبا هذا الاكتشاف الذي اكتشفتموه في المؤتمر التاسع «للادباء العرب» في تونس ، وانمـا الغريب هو تأخركم حتى اليـوم في كشف هذه المؤتمرات الهزيلـة .

على ايـة حال اعتبر بيانكم وثيقـة تاريخية ، وكلي امل في ان تأخذوا على عاتقكم مهمـة تأسيس الملتقى الذي اشرتم اليه . ومهمة اخراجه الى حيز الفعل . وسابذل جهدي هنا في الدعوة لهذه الفكرة واعطائهـا المكـان اللائق في كتابتي هنا في « الطليعة » الكويتية .

لقد كنت أدرك تمامـا ان لا بـد من رفع الصوت عاليـا ضد كـل ما تمثله المؤسسات الرسمية من هيمنـة قاتلة على حياتنـا بمختلف جوانبها وخاصة الادبيـة والفكرية منها ، وكنت ادرك ضرورة المبادرة لتنظيم نـوع من اللقاء الدوري بيـن « الخوارج » علـى الانحطاط والانحلال في عصرنا العربي الحديث ، لنتلمس معـا خيوط الضوء القليلة الباقيـة بين انقاض هذا الواقع المنهار .

اؤيدكم مرة اخـرى .

الكويـت — محمد الاسعد

«مسرور» وأصابع الميدوزا ...

آخذوا من حامل الضوء الاشارة
ومضة « الاوكاي » من نور خرافي معلق
راودوه املا ، وانتظروا
زمنا في مفرق الدرب اخضراره
شدت الخيطان أيد
في الدجى النائي ، خضيه ...
تحسن التوقيت والتحريك من خلف الستاره
ليسيروا في طريق رسمتها
اصبع الضوء المشيرة
حيث يلقي عظة الوحي الاخيرة
عالم ، في الفتك .. يدري
كيف يغدو الريش خنجر
بيد الصقار يفري
عنق الطير .. ويذبح :
« اختموا الافواه بالصمت ...
فدور الجهر في مسرحنا الان انتهى
بعد أن لاح لعين الظامىء المكدود
في سجادة الصحراء لمع المشتهي ...
اخمدوا الحرف الذي يغلي بكبريت الحرائق
اخنقوا انفاسه .. اغتالوا العباره
قبل أن تخرج للنور وتفضح
كل من صاغوا الاكاذيب ولفوها باثواب الحقائق
اجعلوا الاضلاع مهدا ابديا !..
وقماط الرمل ، قبل البوح بالمكنون ، اكفانا لها
وليغلف بالدياجير ويطمس
ممكن في دمها الناري يوما يتنفس !
كافئوا من رفع الصرح الغمامي لكم
مثلما كوفىء من شيد للنعمان قصره ..
اوكلوا للجند أمره ..
انه الكاشف والعارف أسرار السراديب
واسرار الحجاره !
فاريحوا ريش غربان القصائد
وطواويس البلاط المترفه
واستريحوا ، من سهام المعرفة !
لا تخافوا ، بعد حشر الماء والنشّاب ، صائد
يطلق المكبوت اكداس دخان
من فويهات القماقم !
أجدب العصر وصارت
لارتضاء الذل ، ماء
في الشرايين الدماء !
والقطيع المستباح
هو قربان رعاة
لهوى النار يتاح !..
شعبكم يا سادة العربان اغنام خضوع وامان
وبحد الخنجر المشحوذ في مملكة الخرفان يجزر
كل كبش يتنمر !»
– يا طغاة يزرعون الريح آمال سكون
وينامون على حلم مضل ... جاهلين
ان هذا الحرف زئبق
يرفض القبض .. ويأبى الضغط ..ينزو
من أكف القمع والاذلال نافر
انهم ، في ما استخاروا ، تحت استار العشية ،
قوس ذاك الصنم النصّاح بالازلام للغادي المسافر
في تبني سيف مسرور ونطع الجاهلية ،
كلما قصّوا الحرف بصفاء الحق نابع
اصبعا ترفع في وجه الغبي المستبد
نبتت فيه لميدوزا التحدي
ولخنق الشر آلاف الاصابع
وابى « لبّيك » عبد مستكين
في حضور بين أيدي امّعات يفركون
للمطيعين الخواتم
ان اطفاء المنارات الى « المهد » السليب
ليس يثني زائرا في الريح عائد
دلّه النجم المجوسي المرافق
والتفات القلب للطيف الحبيب
وبأن الراصف الثلج الجليدي على
فوهة البركان كي يخمده
في زمان يتقي فيه انفجاره
سيجر الحمم الحبلى بما شاء الجنون
ويلاقي اللظى الجاري انتحاره !

بيروت — **فؤاد الخشن**

دراسة علمية لمؤتمر أدبي !

بقلم فرانسوا باسيلي

مؤتمر الادباء العرب التاسع الذي عقد في تونس في آذار ـ مارس الماضي ، والذي افردت له « الآداب » عددها الرابع ، انتج ظاهرة لم ينتجها اي من المؤتمرات الادبية السابقة له ، وهي بالتحديد ذلك الشرخ الهام الذي احدثته الجماعات المؤمنة « بالفعل » ، في الواجهة الزجاجية الزخرفية العريضة التي كان يريد المؤتمر ان يستمر في تراث الانعقاد والانفضاض خلفها . فقد حدث لاول مرة في مؤتمراتنا الادبية انشقاق اساسي وهائل بين الذين يريدون ان « يفعلوا » شيئا واقعيا مفيدا ومؤثرا ، والذين يريدون الاكتفاء بانتاج المنسوجات الادبية الزاهية الفضفاضة . وانتهى المؤتمر باعلان الوفد اللبناني انسحابه من المؤتمر ومن الاتحاد العام للادباء العرب بكل هيئاته ، واستقالة امينه العام من مجلس تحرير مجلة « الادباء العرب » ، بالاضافة الى عدة قرارات عملية هامة اخرى اتخذها اتحاد الكتاب اللبنانيين(١). وكانت هذه كلها معا تشكل في الواقع انسلاخ اول حركة ادبية رسمية عن الاطار العام الذي يضم الزخرف الادبي العربي من المحيط الخليج ، في محاولة نهائية لتخليص الكلمة من الاطار الميت وحملها الى الشارع .

لذلك فالمؤتمر التاسع يختلف ، بهذا ، عن المؤتمرات السابقة ، ويستحق ، لهذا ، ان يدرس دراسة خاصة . لم يعد كافيا ان نأخذ من المؤتمرات والاحداث الادبية في حياتنا موقف المعلق العام ، فالمقصود من هذه المؤتمرات أن تثير عددا من الدراسات المصاحبة والمكملة والمعمقة لها . والمحاولة التي سأبدأها هنا الان تطمح الى تطبيق الاساليب العلمية الحديثة في دراسة الاحداث والظواهر الادبية ، فالظاهرة الادبية ليست ظاهرة واقعة خارج العالم بل هي ، مثلها مثل كل الانشطة البشرية والطبيعية الاخرى في العالم ، ظاهرة « مادية » تخضع للاسلوب العلمي في الدراسة والتحليل والبحث . والفرق بين ان اكتب مقالا اعلن فيه رأيي ـ بالتأييد او المعارضة ـ في الظاهرة الادبية وبين الدراسة العلمية التي اطمح الى ان اجريها على الظاهرة الادبية ، هو ان المقال ـ الرأي يظل في النهاية رأيا شخصيا وذاتيا خاصا بي ، يظل ادعاء فرديا برؤية الحقيقة دون ان يصل ابدا الى الاستقلال عن قائله ليصبح الحقيقة نفسها . بينما الدراسة العلمية يمكن ان تتوصل الى نتائج غير ذاتية ومستقلة عن رأي صاحب الدراسة . المقال ـ الرأي يساوي ان اقول : هذه الشجرة طويلة . الدراسة العلمية تقول : هذه الشجرة طولها خمسة امتار . فبينما يمكن أن نختلف حول تصريح ان « هذه الشجرة طويلة » المعلن في المقال ، لا نستطيع أن نختلف حول تصريح ان « هذه الشجرة طولها خمسة امتار » لان هذه حقيقة علمية مقاسة بمقياس خارجي مستقل لا يتأثر بالعوامل الذاتية ، ويمكن لكل من يشك في صحة هذه الحقيقة أن يذهب بنفسه ويقيس الشجرة ، وهناك حالات كثيرة يمكن فيها استخدام مثل هذه المقاييس العلمية المستقلة في دراسة الظواهر والاحداث الادبية ، وبذلك يمكن استخلاص نتائج او حقائق علمية ليست محل خلاف .

اذا اردنا مثلا آن نقوم بمحاولة « لتقييم » مؤتمر الادباء العرب التاسع ، فان من المناسب جدا ان نحاول هنا استخدام مقاييس علمية محايدة « نقيس » بها قيمة هذا المؤتمر ، حاصلين بذلك على نتائج او حقائق علمية لا تكون محل خلاف ، متخلصين بذلك من حالة انعدام الوزن الهائلة التي تتميع فيها الحقائق نتيجة تضارب الاراء وشطط الاحكام من أقصى طرف الى اقصى الطرف المقابل ، بسبب غياب مقياس عام مستقل متفق عليه. والاسلوب العلمي المناسب للتطبيق هنا ، والذي يمكن ان ينظم لنا عملية التحليل والتقييم ، هو ذلك المتبع حاليا على نطاق واسع في جميع الدراسات العلمية والعملية التي تتناول حيزا واسعا من المعلومات او المعطيات المرغوب دراستها ، والمسمى بـ « Datei Processing » وهو اسلوب تنظيمي للمعلومات نشأ مع بداية استخدام « الكومبيوتر » ـ او العقل الالكتروني ـ واختص بعمليات تجميع وتبويب واستقراء ـ المعلومات واعدادها للدخول الى الكومبيوتر . هذا بالاضافة ايضا الى استخدام اساليب علم الاحصاء في تناول المعلومات وتنظيمها وتحليلها واجراء اختبارات تقييمية عليها .

الطريق الصحيح بالطبع لدارسة وتقييم مؤتمر الادباء دراسة كاملة هو عن طريق استخدام جميع آثاره ـ الكلمات الافتتاحية ثم الدراسات والقصائد والآثار الادبية التي طرحت فيه ، ثم بيانه الختامي ـ كمواد او شرائح تطبق عليها جميعا الاساليب العلمية المقترحة . وهذه بالطبع عملية ضخمة جدا وان كان من الممكن اجراؤها بسرعة باستخدام الكومبيوتر ـ ولعدم توفر كل هذه الآثار الادبية لي حاليا ، بالاضافة الى الرغبة في تجنب ادخال الكومبيوتر في هذه المرحلة الاولية من تجربة استخدام الاساليب العلمية في تقييم الآثار الادبية (٢) . سأقتصر دراستي فقط على كلمات رؤساء الوفود التي القيت في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر ، بالاضافة الى البيان الختامي له . ولذلك فيجب ملاحظة ان النتائج التي سنحصل عليها لن تكون حكما او مقياسا للمؤتمر كله وانما فقط للاتجاهات الادبية المعلنة في كلمات الوفود وفي البيان الختامي .

(١) تفاصيل ذلك بالعدد الرابع من الآداب ١٩٧٣

(٢) سأحاول استخدام الكومبيوتر مستقبلا في مراحل أخرى من التجربة العلمية ـ الادبية .

١ ـ الشرائح التي ستستخدم في الدراسة :

سنستخدم ، اذن ، ١٢ شريحة للدراسة هي ، بترتيب نشرها في الاداب ـ العدد الرابع ١٩٧٣ ـ

١ ـ كلمة رئيس المؤتمر ، ٢ ـ كلمة رئيس وفد لبنان ، ٣ ـ كلمة الامين العام ، ٤ ـ كلمة ممثل الجامعة العربية ، ٥ ـ كلمة رئيس وفد البحرين ، ٦ ـ كلمة رئيس وفد الجزائر ، ٧ ـ كلمة الوفد السعودي ، ٨ ـ كلمة الوفد السوري ، ٩ ـ كلمة رئيس الوفد الفلسطيني ، ١٠ ـ كلمة رئيس الوفد المغربي ، ١١ ـ كلمة رئيس الوفد اليمني ، ١٢ ـ البيان الختامي للمؤتمر . (*)

٢ ـ موضوعات المقارنة والمضاهاة :

يتلخص المنهج العلمي المقارن الذي سأتبعه واطبقه على الشرائح الاثنتي عشرة المعروضة للبحث ، في قـراءة الشرائح واستخلاص الموضوعات الاساسية المشتركة بينها واعتمادها نقطا للمقارنة . ثم اعتماد « قيم » عددية لهذه النقط وتوزيعها على الشرائح ، ثم حساب القيمة العددية النهائية لكل شريحة ، حاصلين بذلك على «رقم قياسي» لكل وفد من الوفود وللبيان الختامي ايضا ، يعبر عن « القيمة النسبية » لكل ، وسيتضح ذلك اكثر وببساطة خلال تطبيق المنهج نفسه كما يلي :

بعد استقراء الشرائح الاثنتي عشرة يمكننا ان نستخلص الموضوعات المشتركة التي دار فيها حديث تلك الشرائح . والمذهل اننا سنكتشف ان الكثير من هذه الموضوعات هي نفسها الموضوعات التي كان يدور فيها الشعر الجاهلي القديم مثل الغزل والمدح والفخر والحماسة .. الخ . وقد وجدت انه يمكننا استخلاص ستة موضوعات رئيسية هي محور احاديث الوفود والبيان الختامي ، وهذه سنعتمدها نقطا للمقارنة والمضاهاة . والموضوعات هي :

١ ـ الغزل :

كما كان يبدأ الشاعر القديم قصيدته بالتغزل في حبيبته ، حتى لو كان موضوع القصيدة بعد ذلك لا علاقة له بالحبيبة او الغزل ، نجد ان بعض رؤساء الوفود قد استهلوا كلمتهم بالتغزل في البلد المضيف تونس . ففي كلمة الوفد السعودي نجد « حيا الله تونس ربع السحر والجمال ، ونجع بني هلال ، ومهد الزيتونة والقيروان وجاجة .. ووطن سحنون ، وابن رشيق ، وعبدالرحمان بن خلدون وابي القاسم الشابي واضرابهم .. وحيا الله تونس المجاهدة الصابرة ، والمناضلة الظافرة .. الخ » . وفي كلمة الوفد الجزائري نجد « ان المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس الشقيقة يكتسي صبغة خاصة بالنسبة للوفد الجزائري ، فهو ينعقد في ربوع الخضراء التي تثير في قلب كل جزائري اعمق الذكرى . وابعد الصدى .. الخ» وبعض الوفود ارجأ ذكر تونس ومديحها للختام بدل الاستهلال . وفي الحالتين راجع كلمات ـ رئيس المؤتمر ـ والامين العام ـ البحرين ـ الجزائر ـ اليمن ـ والبيان الختامي .

٢ ـ مدح الخليفة او السلطان :

كما كان يقف الشاعر القديم ايضا مادحا الخليفة او

(*) ملاحظة من التحرير : لم ننشر « الاداب » من كلمات رؤساء الوفود الا ما كان معدا سلفا ومطبوعا في وثائق المؤتمر . وهذا يعني ان هناك عدة كلمات ناقصة من كلمات رؤساء الوفود ، هي التي القيت ارتجالا او لم تثبتها الوثائق . فلا بد للقارىء من ان يأخذ ذلك الاعتبار عند التقييم النهائي الذي يورده الكاتب .

السلطان وهو في قصره ، حرص الكثيرون في المؤتمر على ذكر « الخليفة » ـ وهو في هذه الحالة الرئيس بو رقيبة ـ وامتداحه في كلماتهم ، وبعضهم حرص على ذكره ثلاث مرات في كلمته . ففي كلمة رئيس المؤتمر نجد :

انه ليوم أغر هذا الذي نفتتح فيه على بركة الله مؤتمر الادباء العرب التاسع ، وانه لمن حسن طالع هذا اليوم ومن بهجته ان يتفضل قائد هذه الامة فيشرف فيه بنفسه على مؤتمرنا هذا ويبرز بذلك ـ مرة اخرى ـ مدى تقديره لرجال الفكر والادب .. وانه اذ يطيب لي ان اشكر لكم سيدي الرئيس باسمي الخاص وباسم كافة الادباء العرب الحاضرين هنا ، هذه اللفتة الكريمة وهذا التشجيع الصادق الذي ما فتئتم تغدقونه على الشعراء والكتاب ورجال الفكر ... الخ » . لاحظ هنا معاني « التشجيع » و« العطف » و« الاغداق » التي يوصف بها موقف الرئيس من الكتاب والشعراء . انها تشي بانها ما زالت علاقة سؤال ومنح ، الشعراء يمتدحون الخليفة والخليفة « يغدق » على الشعراء . وهي نفس العلاقة القديمة بين السلطان العربي والشاعر العربي . تتأكد بكل صدق في المؤتمر التاسع للادباء العرب ـ في القرن العشرين ! ـ انظر معاني « التفضل » و« الرعاية » و « الكرم » التي يوصف بها الخليفة ، ومعاني « الامتنان » و « الشكر على الحفاوة » التي يقدمها الكتاب في كلمات الامين العام ووفود السعودية ، واليمن ، وفي البيان الختامي .

٣ ـ الفخر :

وكما كان الشاعر القديم يدبج القصائد في الفخر ـ بقبيلته او عائلته او اصله ونسبه أو دينه او محاسن صفاته ومهاراته ـ نجد « الفخر » أيضا موضوعا محببا لدى بعض الوفود . وهو اما الفخر بالبلد القادم منه الوفد ، وبانتصاراته وامجاده ، او الفخر بالعروبة ككل ، او بالماضي ، او الفخر باللغة والدين ، فنجد الفخر بتونس في كلمة رئيس المؤتمر . والفخر بالجزائر في كلمة وفد الجزائر ، والفخر بالكتاب (طليعة هذه الامة) في كلمة الامين العام ، والفخر بالبحرين في كلمة وفد البحرين ، والفخر بـ « مهد العرب » و« منطلق الاسلام » و« مبدأ الفصحى » كلمة الوفد السعودي . والفخر بالبطولات الحربية في كلمة وفد فلسطين .. وعبارات الفخر بكل هذا في البيان الختامي ـ وهذه ليست سوى صورة معاصرة لاسواق عكاظ ، حيث كان يجتمع الشعراء من مختلف القبائل والعشائر ، ليلقي كل منهم قصائد الفخر بقبيلته . ممارسات بدائية بالطبع يلجأ اليها دائما غير الناضجين الذين يحتاجون بشدة الى امتداح انفسهم كتعويض عن فقدانهم الثقة بالنفس . قد يمكن تبرير الفخر عندما تكون مثلا في مؤتمر عالمي ونريد ان نذكر العالم بحضارتنا وتراثنا القديم الاصيل . لكن الغريب ان المؤتمر عربي وكل من فيه عرب فلا افهم ما معنى التفاخر هنا ولا اي غرض يؤديه ! الا يفترض ان الادباء العرب يعرفون تاريخهم على الاقل ؟! ما معنى اذن الفخر بالماضي او باللغة او بالدين او بالاعلام من القدماء او بالاقطار المختلفة ؟ ما معنى ، مثلا ، ان يستفيض وفد الجزائر في الحديث عن انتصار الثورة الجزائرية امام ادباء عايشوا جميعا فترة الانتصار تلك ولا بد انهم قد سمعوا بها وعرفوا عنها جيدا ؟ المسألة ليست محاولة لتقليل قيمة اية ثورة ، بل المسأله فقط هو اننا يجب كلما اجتمعنا ان نجتمع لكي نستمع الى شيء جديد ، اعادة ذكر الاشياء المعروفة ليس غير مضيعة للوقت ، وفيه اهانة ضمنية للمستمعين ، الذين يجب ان يفترض فيهم انهم يدرون بما يدور حولهم ، والا فكيف نسميهم « طليعة هذه الامة » ؟ !

٤ ـ حرية الكلمة ـ الكاتب :

رغم الاهمية البديهية لهذا الموضوع كأساس اولي وباعتباره اقرب الموضوعات صلة بمؤتمر للادباء ، اقرب حتى من اية تصريحات سياسية ، فقد طالب بحرية الكلمة وحرية الكاتب اقل من نصف الوفود الاعضاء . فبالاضافة الى وفد لبنان الذي اعتبر الموضوع همه الاول ، طالبت به ايضا وفود البحرين والمغرب وسوريا والجزائر .

٥ ـ اقتراحات عملية محددة :

رغم ان الكثيرين قد تحدثوا عن اهمية ان يفعل المؤتمر شيئا ولا يكون مجرد توصيات وامنيات تظل حبرا على ورق ، فالذين طالبوا باتخاذ « افعال » محددة اوضحوها في كلماتهم الافتتاحية هم اقل من ربع عدد الوفود . واقصد هنا بالاقتراحات العملية المحددة تلك التي يقول لنا صاحبها ماذا « نفعل » بالضبط وكيف ومتى .. وليس فقط مجرد نشر الامنيات العامة مثل « تقوية أواصر التبادل الثقافي بين المشرق والمغرب » . فالمهم هو كيف ؟ هل بتكوين لجنة للاشراف على ذلك ؟ متى سنكونها ؟ ما سلطاتها .

باختصار ، ان الهدف من اي مؤتمر هو الخروج بكمية من « الافعال » المؤثرة التي تعمل على رفع المستوى الادبي والفكري بالبلاد العربية . كل اقتراح محدد ومفصل هو وحده الذي يستحق التقدير والالتفات ، وكل الامنيات او الاقتراحات العامة التي لا تصاحبها تفاصيل تطبيقها ستسقط من عملية التقدير والحساب. فهذا هو الفرق بين ان نعقد مؤتمرا ـ يقرر تطبيقات عملية معينة ـ وبين ان نلقي خطبا مستقلة او نكتب مقالات بالصحف عن امنياتنا واحلامنا الجميلة . المؤتمر الذي يتمخض عن امنيات عامة وتصريحات مكرورة يمكن دائما الاستعاضة عنه بمجوعة مقالات منفردة في الصحف .

٦ ـ الموقف العلمي النهائي :

هذا هو اخر موضوعات المقارنة والتقييم ، ويقصد به امتحان كمية وحجم الصدق في كل شريحة عرضت للبحث . وفيه نقارن بين الاقتراحات التي تحدث عنها كل وفد ، وبين الموقف الختامي العملي الذي اتخذه ذلك الوفد بصدد هذه الاقتراحات . وهذا في الواقع مقياس للقيمة العملية والفعلية للكلمات المطروحة فاذا ضربنا مثلا برئيس وفد البحرين ، نجد انه يعلن في كلمته الافتتاحية : « اننا مطالبون ، وبالذات في هذا المؤتمر ،بالعمل على اعطاء الكلمة حرمتها وحريتها وطاقتها المفجرة ..

هل من الممكن ايها الاخوة ان نحقق هذا في مؤتمرنا الحالي ؟ « هذا كلام جميل ، ولكن اي كلام يمكن ان يكون للاستهلاك المحلي، والمقياس هو « الفعل » عندما تحين ساعة الفعل . وبفحص الموقف العملي النهائي لرئيس وفد البحرين نجد انه قد انسحب من المؤتمر مع وفد لبنان عندما وجد ان المؤتمر لن « يفعل »شيئا. معنى هذا ان الكلام المعلن قد طبق في الواقع عندما لزم الامر. هذا ، اذن ، رجل صادق . بالمقارنة نجد ان وفودا اخرى قد طالبت بشدة ، ايضا بضمان حرية الفكر ولكنها مع ذلك وافقت ، في الموقف العملي النهائي ، ان تتمشى مع الاكتفاء بمجرد « اعلان » ذلك في البيان دون اتخاذ خطوات فعلية في سبيله .

٣ ـ التصنيف :

بعد عملية التعريف السابقة لموضوعات المقارنة التي سنقسم ونصنف على اساسها الشرائح المطلوب دراستها ، نقوم بالتصنيف الذي يمكن وضعه في شكل جدول كالتالي :

موضوع المقارنة	الذين عثر لديهم على موضوع المقارنة	الذين لم يعثر لديهم على موضوع المقارنة
الغزل : ذكر البلد المضيف ـ التغزل فيه ...	رئيس المؤتمر ـ الامين العام ـ الجزائر ـ البحرين ـ السعودية اليمن ـ البيان الختامي ـ	لبنان ـ ممثل الجامعة العربية المغرب ـ فلسطين ـ سوريا
مدح الحاكم : ذكر الحاكم ـ « السلطان » والمدح والشكر ...	رئيس المؤتمر الامين العام ـ اليمن ـ السعودية ـ البيان الختامي	لبنان ـ ممثل الجامعة العربية ـ البحرين الجزائر ـ سوريا فلسطين ـ المغرب
الفخر : بالقطر ، الاصل ، البطولات الانجازات ، اللغة ، الدين التاريخ ـ ...	رئيس المؤتمر ـ الامين العام ـ ممثل الجامعة العربية ـ البحرين الجزائر ـ فلسطين ـ اليمن ـ السعودية ـ البيان الختامي .	لبنان ـ سوريا ـ المغرب
المطالبة بحرية الكاتب	لبنان ـ البحرين ـ الجزائر ـ سوريا ـ المغرب ـ البيان الختامي	رئيس المؤتمر ـ الامين العام ـ الجامعة العربية ـ فلسطين ـ اليمن ـ السعودية .
اقتراحات عملية محددة	لبنان ـ المغرب ـ فلسطين ـ البحرين ـ الجزائر	رئيس المؤتمر ـ الامين العام ـ الجامعة العربية ـ سوريا ـ السعودية ـ اليمن ـ البيان الختامي
الموقف العملي النهائي	لبنان ـ البحرين	(بقية الشرائح العشر)

٤ ـ التقييم :

بعد تصنيف الشرائح حسب موضوع المقارنة في الجدول السابق. نبدأ عملية التقييم وذلك بمنح الموضوعات السلبية القيمة (ـ ١) والموضوعات الايجابية القيمة (+ ١) الحكم على الموضوع انه ايجابي او سلبي سيتوقف على علاقة الموضوع بالهدف المفترض في مؤتمر الادباء ، وهو العمل على وضع المستوى الفكري والادبي في المجتمع العربي . ننظر الى موضوع المقارنة الاول ـ الغزل ـ ونتساءل .. هل لهذا الموضوع اية علاقة الموضوع بالهدف المفترض في مؤتمر الادباء وهو العمل على وضع المستوى الفكري والادبي في المجتمع العربي . ننظر الى موضوع المقارنة الاول ـ الغزل ـ ونتساءل .. هل لهذا الموضوع اية علاقة برفع المستوى الادبي ؟ لا استطيع ان ارى احدا سيجيب بنعم . نمنح الغزل ، اذن ، القيمة (ـ ١) ، بالمثل نقول عن مدح الحاكم ـ وعن الفخر ، فكلاهما ايضا لا يحققان شيئا للادب . فترصد لهما القيمة (ـ١) . المطالبة بحرية الكاتب لا خلاف ان لهـا

علاقة برفع مستوى الادب . ولذلك نرصد لها القيمة (+١) ، تقديم اقتراحات عملية معينة ايضا هو قيمة ايجابية فنرصد لها القيمة (+١). وعن الموقف العملي النهائي ، سنرصد (+١) لمن وقف موقفا عمليا متفقا مع اقتراحاته وكلمته ، وسنرصد لا شيء (..) لمن لم يقف موقفا عمليا من كلماته وآرائه . وسنرصد (-١) لمن وقف موقفا عمليا مضادا لآرائه المعلنة .

ونضع القيم في الجدول التالي :

موضوع المقارنة الشريحة	الغزل	مدح الحاكم	الفخر	حرية الكاتب	اقتراحات عملية	الموقف العملى	قيمةكل شريحة
رئيس المؤتمر	-١	-١	-١	..	..	..	-٣
لبنـان	..	..	..	+١	+١	+١	+٣
الامين العام	-١	-١	-١	..	..	..	-٣
الجامعة العربية	..	..	-١	..	..	..	-١
البحرين	..	..	-١	+١	+١	+١	+٢
الجزائر	-١	..	-١	+١	+١		متعادل
السعودية	-١	-١	-١	..	..	..	-٣
سوريا	..	..	..	+١	..	..	+١
فلسطين	..	..	-١	..	+١	..	متعادل
المغرب	..	..	..	+١	+١	..	+٢
اليمن	-١	-١	-١	..	..	..	-٣
البيان الختامي	-١	-١	-١	+١	..	..	-٢

باضافة القيم الموجبة معا نحصل على مجموع القيم الايجابية وهي +٣+٢+١+١+٢=+٨ وباضافة القيم السالبة معا نحصل على القيم السلبية وهي -٣-٣-١-٣-٢-٢=-١٥ معنى ذلك ان لدينا ٨ قيم ايجابية و١٥ قيمة سلبية فتكون القيمة النهائية لمجموع الشرائح الاثنتي عشرة التي درسناها هي قيمة سلبية مقدارها -١٥+=-٧ وهذايعني ان حصيلة المؤتمر (من خلال دراسة الكلمات الافتتاحية والبيان الختامي فقط) هي حصيلة سلبية - والسلبيات بها (-١٥) تكاد ان تكون ضعف الايجابيات (+٨) وهذا يدل على ان المؤتمر خسارة وليس ربحا ، وبذلك يكون عدم انعقاده اكثر فائدة من انعقاده ..

نستطيع ايضا ان نرتب الشرائح ترتيبا تنازليا حسب القيمة التي حصلت عليها كل شريحة . وبذلك نحصل على ما يلي :

الشريحة	القيمة لكل
لبنـان	+ ٣
البحرين - المغرب	+ ٢
سوريا	+ ١
الجزائر - فلسطين	متعادل
الجامعة العربية	- ١
البيان الختامي	- ٢
رئيس المؤتمر - الامين العام	- ٣
السعودية - اليمن	

٥ - ملاحظات اخيرة :

١ - يجب العناية بملاحظة ان النتائج السابقة تختص بالمواد المدروسة فقط ، والمفروض لكي تكون الدراسة شاملة ان تجري - كما قلت - على جميع الاثار الادبية التي قدمت في المؤتمر .

٢ - يجب ملاحظة ان اهم ما في الاسلوب السابق هو حيدته واستقلاله عن الذاتية . بمعنى ان القيمة السلبية النهائية التي حصلنا عليها (-٧) ليست هي رأيي الشخصي في المؤتمر وليست رأي أحد ،انما هي قيمة مقاسة باسلوب محايد لا يتوقف على الشخص الذي يستخدمه ، تماما كما ان القيمة (خمسة امتار)هي مقياس طول الشجرة الذي لا يتوقف على من الذي يقيسها ، ذلك لان الاسلوب السابق يعتمد على قراءة المواد وتبويبها كما هي ، دون اضافة ، ورصد قيمة موحدة (هي الوحدة) لكل موضوع مقارنة. الخطوة الوحيدة التي مارسنا فيها الحكم الذاتي والتقدير الشخصي هي التي قدرنا فيها ان قيم الغزل ومدح الحاكم والفخر هي قيم سلبية لانها لا تؤدي الى تحقيق الهدف المفترض في المؤتمر ولاعلاقة لها برفع المستوى الادبي . وايضا بالمقابل ان قيم حرية الكاتب . والمقترحات العملية والموقف العملي النهائي هي قيم ايجابية لانها تعمل نحو هدف المؤتمر .

ولكن هذا التقدير الشخصي هو من الاستنتاجات البديهية المستخرجة من منطق العلاقة السببية بين الاسباب والنتائج .لانه يبدو بديهيا انه لا توجد علاقة سببية بين الغزل والمدح والفخر وبين النتائج المطلوب من المؤتمر تحقيقها ، وبذلك يكون اعتبار هذه الموضوعات ذات قيمة سالبة اعتبارا منطقيا . قيمة هذا الاسلوب انه يمكن لاي انسان اخر غيري ، بمجرد ان يتفق معي على القيم الايجابية والسلبية ، ان يقوم باجراء التصنيف والتقييم المبني على المواد المدروسة ، فيحصل على نفس القيمة النهائية (- ٧) ، وهذا معناه ان هذا الاسلوب هو مقياس محايد تقاس به قيمة الظاهرة الادبية دون تأثر بالاهواء الذاتية لاحد .

٣ - يفيدنا هذا الاسلوب في الواقع افادة اكبر عندما نطبقه على مؤتمرات اخرى ونقارن النتائج . فاذا حدث ان اجريناه ، مثلا ، على المؤتمر الادبي العاشر - بعد عامين ؟ - وحصلنا على النتيجة النهائية للدراسة بالقيمة السالبية (- ٣ ١/٢) ، اي نصف القيمة السالبة للمؤتمر التاسع . فهذا معناه انه قد حدث تقدم في القيمة الادبية والفعلية في العاشر عنها في التاسع . وان التقدم كان بمقدار الضعف . بالطبع اذا حصلنا على قيمة مثل (- ١٠) فسنعرف ان مستوى المؤتمرات الادبية يزداد هبوطا . وهكذا . ٣)

احب ان اقول في النهاية ان هذه صورة اولية مبسطةكتجربة اولى في استخدام الاساليب العلمية في المجال الادبي ، وكمحاولة لتقريب الهوة المفتعلة بين الفكر العلمي والفكر الادبي . لا يجب ان ينظر اليها كتدخل من العلم في حرمة الادب بل باعتبارها تسخيرا للعلم في خدمة الادب كما يسخر في بقية الانشطة الانسانية الاخرى خادما للانسان ووسيلة للتقدم . ان الدراسات الادبية يمكن ان تستفيد كثيرا من استخدام الاسلوب العلمي المبسط . كما ثبت عمليا فعلا في علوم انسانية اخرى مثل الاجتماع والسياسة .

فرانسوا باسيلي

نيويورك

(٣) تسمى مثل هذه القيم الدالة بـ Index Numbers وتستخدم كثيرا في علوم الاقتصاد والاحصاء والاجتماع والتخطيط .



القصص اللبنانيــة

بقلم الدكتورة سامية أحمد أسعد

في عدد « الآداب » الممتاز الخاص بالقصة العربية القصيرة ست قصص كتب مؤلفوها كلمة بيروت قبل اسمائهم . لكننا وقعنا في حيرة قرأنا امام اسم غادة السمان : بيروت دمشق ، وامام اسم ديزي الامير: بيروت بغداد . ففضلنا الصمت ، خاصة ان المقام لا يتسع لنقد ثماني قصص ، حتى لو كانت قصيرة ، في مقال واحد . ونأمل ان تتاح لنا فرصة الحديث عن هاتين القصتين مستقبلا ، خاصة انهما نموذجان ممتازان لما يمكن ان يسمى بالادب النسائي العربي .

قصة د. سهيل ادريس « القراءة في العيون المغمضة » قصة محكمة البناء ، مكونة من جزءين يسيران في خطين متوازيين ، تسبقهما مقدمة معقولة ، وتليهما خاتمة مركزة الى اقصى حد ، ما دامت مكونة مـن جملتين قصيرتين لا اكثر . ونجد هذا التوازي البنائي في الاحـداث ذاتها ، حيث يعيش البطل ما يمكن ان تسميه مغامرتين عاطفيتين مـع امرأتين مختلفتين . كما نجده في زمان الاحداث ، حيث تتارجح هذه الاخيرة بين الحاضر والماضي بصفة مستمرة . واذا ما انتقلنا الـى الموضوع الذي تعالجه القصة ، وجدنا فيه ايضا تلك « الازدواجية » التي تحدث عنها المؤلف ، فهو يعالج الصراع بين الاجيال ، جيـل الآباء ، وجيل الابناء ، محاولا تخطي حاجز الزمن الذي يفصل بينهما ، لكن بلا جدوى . فالشباب ، الزمان المفقود هنا ، لا يعود ، وان حاول البطل استعادته هنا من خلال مغامرتين عاطفيتين مع امرأتين تصغرانه سنا ، احداهما في سن ابنته ، والاخرى في الخامسة والعشرين . ويبلغ الصراع ذروته عندما تحاول الفتاة الايطالية الصغيرة حمل البطل على رقص الجيرك ، مما يعيد الى ذهنه موقفا مماثلا حاولت فيــه ابنته حنان حمله على رقص الجيرك أيضا .

والزمان هنا محور القصة . فالاحداث تدور في فترة زمنية محددة، تتمثل في « يوم » يسبق عودة البطل الى بلاده . ولا ينحو د. سهيل ادريس نحو الكتاب الكلاسيكيين في القرن السابع عشر الفرنسي ، ويحشر في تلك الفترة القصيرة احداث كثيرة معقدة . فالبطل يحاول ان يملأ هذا الفراغ الزمني باحداث عابرة ، تعرض له بالصدفة ، لا مقدمة لها في الماضي ، ولا اثر لها على المستقبل . كل ما هنالك انها، اذ تقع ، تكشف تدريجيا عن الماضي الذي يرتبط به البطل ارتباطا وثيقا ، وفيه مستقبله ايضا . كما يرتبط هذا الزمان المعلق اذا جـاز القول ، زمان الانتظار ، بأماكن تتميز بالوقتية والزوال . يتم لقـاء البطل الاول ـ مع ياتريشيا ـ في احد الميادين ، ويتم لقـاؤه مع البطلة الثانية في قاعة انتظار المطار . واطار الاحداث دائما مقهــى ، او مرقص ، او طائرة ، او سيارة ، او مطار ، أو فندق ، وكلها اماكـن يمر بها المرء ، ولا يثبت فيها .... ومما لا شك فيه ان الكاتب مدرك كل الادراك اهمية الزمان والمكان في الادب الروائي الحديث ، منذ ان كتب بروست مجموعته « البحث عن الزمان المفقود » .

واذا انتقلنا الى التكنيك ، لمسنا فيه ، هنا وهناك ، لمسات مجددة . فالكاتب لا يلجأ الى السرد الا قليلا ، ويعمد في اغلب الاحيان الى الحوار . ويدور هذا الاخير على مستويات ثلاثة : حوار تقليدي بين البطل عمر وكل من ياتريشيا ورفيقة السفر الى روما . وحـوار بين البطل وما يسميه الكاتب « الصوت الاخر » ـ ولربما كان صوت الماضي ، او صوت الضمير ـ ، ولقد حل هذا الحوار الثاني محـل التحليل النفسي للشخصية ، واضفى على القصة مزيدا من الحيوية . وحوار ثالث بين المتكلم ـ البطل ـ والمخاطب ـ الغائب الذي لا يسمع وبالتالـي لا يرد : حنـان تارة ، وبا تريشيا تارة ... كل هذا جعل القصة اقرب الى مسرحية من فصلين قوامها الحوار . كما لجأ الكاتب الى تداعي الخواطر ، مما اتاح له فرصة العودة الى الوراء ، بأسلوب « الفلاش باك » في الصور المرئية .

لقد تخطى البطل ، عمر مرحلة الشباب . وها هو يمر بتجربتين عاطفيتين تنتهيان الى الفشل ، ولكن لاسباب مختلفة . يرجع فشله في التجربة الاولـى الى مطابقـة صورة باتريشيا ، في لحظة مـا ، لصورة ابنته حنان مطابقة تامة . أي ان الخوف ، لا شعوريا ، من ارتكاب الحرام ، ينهي الموقف . اما التجربة الثانية ، فتنتهي بالبطل الى نوع من الشلل النفسي يجعله يلزم الصمت ، ربما لان المرأة هذه المـرة « امرأة اعمال » ، كما تقول ، تتولى المبادرة وتتحكم في سير الاحداث وبطلنا الشرقي لم يعتد مثل هذا السلوك عند المرأة .

قصة د . سهيل ادريس في مجموعها جيدة ، محكمـة البنـاء ، مبتكرة وان بدت تقليدية لاول وهلة ، يبدو فيها بوضوح تأثر الكاتب بقراءاته الفرنسية ، لا سيما بروست والآن فورنييه ، وربما ميشيل بوتور في « التغيير » ، ولا يعيبها الا الغموض الذي يكتنف نهاية مغامرة البطل الثانية .

مع توفيق يوسف عواد ، وقصته « حنا الفانوس » ، ننتقل الى جو مختلف كل الاختلاف ، جو الحواديت والاساطير جو لا يسعنا ازاءه الا ان نذكر علاء الدين ومصباحه السحري . منطلق القصة حدث واقعي، شراء احد القضاة لعودة تدعى « عودة بوحنا » . وسرعان ما يختلط الواقع لا بالخيال فحسب ، بل بالعجيب غير المألوف . على سبيل المثال ، فانوس حنا خال من الزيت منذ ان ماتت ام حنا . ومع ذلك ، يرى الراوي ذات صباح « حنا بلحمه ودمه على سطح القبو ، والفانوس بيـده يرفعه الى الشمس ، وباليـد الاخرى يهيل من الفضاء شيئا او يصب . حنا يزيت فانوسه » . ويستطرد الراوي قائلا : « يجب ان اقول لكم ان حنا كان يعبيء فانوسه من اشعة الشمس .... وحينما رفعت شركة الكهرباء أسعارها ، تذكر الفقراء فانوس حنا ، وتذكرء كذلك البخلاء من الاغنياء » ... كما ان الذين « اعطوا عمرهم من اجل الضيعة » يسهرون بأرواحهم كل مساء عند حنا . أي ان العالـم اللامرئي جزء لا يتجزأ من نسج القصة . ذلك ان « حنا والفانوس » تقوم اساسا على رمز يتمثل ، فيما نرى ، في مفهوم العمر . من هو

الاعمى ؟ الاعمى لا يرى الحقيقة . ومن يراها يوصف بالجنون . وفانوس حنا ليس اكسسوار يلعب دورا ثانويا . فهو اداة للكشف عن الحقيقة . بل ان وجهته لها دلالتها . تارة يوجهه حنا الى الوجوه وتارة الى الاقفية . لان العمى اثنان ، « واحد من الامام وآخر من الوراء ، وربما كان الذي من الوراء اعظم » . هكذا نرى كيف استخدم الكاتب الشخصية التقليدية ، واستخدم شخصية اخرى من الجماد ـ الفانوس ـ استخداما مبتكرا . ففي النهاية ، لا نهتم بزواج حنا بقدر ما نتساءل عن السبب الذي جعل حنا يحطم فانوسه . ولعل الكاتب دفعه الى اختيار العنوان ، عندما جعل الفانوس صفة لحنا. فكلاهما مكمل للاخر ، ولا يفترق عنه . وتحطيم الفانوس يرادفه ضياع حنا ماديا ومعنويا ، بلا رجعة . وكما لا ينفصل حنا عن فانوسه ، لا ينفصل عن « القبو » . والقبو هنا بمثابة القوقعة الآمنة التي تحمي ساكنها من كافة الشرور . حنا في مأمن طالما يسكن القبو . وخروجه منه معناه ضياعه ، واصابته بالعمى معنويا . ومن ثم تتضح اهمية المكان كما اتضحت اهمية الزمان في قصة د . سهيل ادريس .

واذا كنا قد قلنا ان « حنا والفانوس » حدوتة او اسطورة ، فذلك لانها تشتمل على حكمة بعينها . فالكاتب يسلط الفانوس هنا، في سلسلة من المشاهد الوثيقة الصلة بالتكنيك السينمائي ، لقد قام بعملية مونتاج ربط بها ما يقرب من خمسة عشر مشهدا قصيرا ـ على قطاعات مختلفة من المجتمع ، وبعض الانظمة الاجتماعية ، وبعض النماذج البشرية . فالصورة التي يرسمها للرهبان لا تخلو من السخرية، اللاذعة احيانا . وكذا الحال بالنسبة لمختار الضيعة ، رمز طبقة الحكام . والزواج في نظر حنا ضرب من عمى القلب . فالزواج خيبة امل ، وشجار ، وابناء لا يفكرون ، اذا ما مات الاباء ، الا في التنازع على التركة . والخيانة الزوجية جزء لا يتجزأ من الزواج الا ان الحكاية هنا لا تسير الى نهايتها المألوفة ، اي الى انتصار الخير نهائيا على الشر . وهنا يكمن العنصر المبتكر الذي ادخله المؤلف على هذا النوع التقليدي من القصص . حنا العاقل المتهم بالجنون ، حنا المبصر ، يصاب بالعمى ، ويحطم فانوسه ، بسبب تلك التي طالما تجنبها : المرأة ها هنا تكمن مأساته .

ان « حنا والفانوس » واحدة من تلك القصص التي ترسخ في ذهن قارئها لانها تخاطب فيه شيئا يشترك فيه البشر أجمعين ، الا وهو اللاشعور الجماعي . فضلا عن ان الكاتب عالجها معالجة مبتكرة ، مستخدما لغة سلسة توفق في استخدام النبرة الساخرة في كثير من الاحيان ، وعرف كيف يركز الضوء على شخصياته الرئيسية : حنا ، وفانوسه ، والقصة ، وان كانت هادفة فيما نرى ، تتجنب تماما اللهجة الواعظة ، التعليمية ، خاصة في النهاية ، عندما ينقل لنا الراوي مأساة حنا ، دون اشارة الى الحكمة التي يمكن ان نستخلصها منها . وهكذا يظل السؤال ... بلا جواب .

عنوان قصة يوسف حبشي الاشقر « الوقت والحرباء والكسندرة » يطابق مضمونها ، فيما عدا شيء واحد هو الحرباء . فالنص لا حرباء فيه ولا ذكر لها . ولو فرضنا ان الكاتب جعل منها رمزا لشيء ما ، فان ما ترمز اليه غير واضح في النص ، في نظرنا على الاقل . اما الوقت فنهار يحاول بطل القصة ان يسترجع احداثه . اي اننا ازاء فترة زمنية قصيرة ، فارغة ، تتطلب الامتلاء . لقد رأينا كيف ملأ بطل «القراءة في العيون المغمضة » هذا الوقت . أما هنا ، فيملأ البطل نهاره بمجموعة من الاحداث التي لا يربط بينها خط واضح ، فيما يبدو . فنحن ننتقل مع البطل من مكتبه الى اجتماع في احدى المؤسسات ، ثم الى دار الفانية ،ثم الى سور احدى الحدائق ، ثم الى بيتين يغري فيهما ثم الى بيته ثانية . والكسندرة اسم يطلقه البطل على الفانية التي يذهب لزيارتها . وابراز اسمها في العنوان قد يبرره تركيز الكاتب على الجنس . اولا نقرأ في النهاية هذه الكلمات الواردة على لسان البطل : « انا اعلن ان الجنس هو المنفذ الوحيد ، الممكن شعبيا في الوجود . قد تكون هنالك منافذ معه . ولكن لا منفذ دونه ، وهو وحده يكفي ، اعني انه الاصلي ، والمنافذ الباقية هي الفروع » .

ولنر ، اولا ، كيف عالج الكاتب هذا الموضوع . البطل رجل في الاربعين من عمره ، نراه يزور الكسندرة ويقبل ركبتيها العاريتين ، ويولي هاربا عندما يسمع جرس التليفون . ثم تراه يتحدث تليفونيا الى اخرى ، ويركز على مأساة الانفراد الانساني ـ او عدم الاتصال بين البشر كما يقول العبثيون ـ وعلى مأساته هو ، فيقول لمحدثته : « احيانا كنت عاجزا جنسيا . الموضوع ليس هنا . بل هو عجز النفس ـ المعنوي » . اننا اذن امام مأساة انسان عاجز ، لكن الكاتب عالجها معالجة مفككة سطحية .

ولربما كان سبب ذلك التكنيك الذي عمد اليه المؤلف . فلقد اراد ان تكون قصة البطل حصيلة حركاته التي صورتها كاميرا « مثبتة في الجدار » ، وافكاره التي سجلها شريط « يدخل من احدى اذنيه ويخرج من الاخرى » أي انه التقط مجموعة من الصور الخاطفة تذكر القارىء مباشرة بذلك الكتاب الممتاز الذي كتبه آلان روب جرييه ، احد رواد الرواية الجديدة في فرنسا ، وسماه « صور خاطفة » . ولا يسع القارىء ايضا الا ان يذكر ما يسمى ، في مجال السينما ، بالسينما الحقيقية ، اي الكاميرا التي تسجل كل ما يقع في حقلها ، دون ايما تمييز . فكانت النتيجة سلسلة من الصور الباهتة الممزقة ، بعضها موغل في الغموض ، والبعض الاخر واضح وضوحا مبتذلا . والعجيب ان المجموعتين تتجاوران احيانا في المشهد الواحد . وهناك صور تشير فورا الى مصدرها . فالقارىء لا يسعه ، ازاء وقوف البطل امام احدى الحدائق ، ووعيه بفراغ حياته الذي يتوق الى تحويله الى امتلاء ، الا ان يذكر مشهد الحديقة الشهير في رواية سارتر «الغثيان» واخيرا ، ما رأي القارىء في هذه الصورة الختامية التي نرى فيها البطل مستلقيا على فراشه ، وابنه الى جواره ، وقد راح يحلم غصب عن الابن الطفل ، « بالكسندرة وفستانها ، وعينيها الكبيرتين » ، وبزوجته وغلالتها السوداء القصيرة . ويقول : « العب بهن : تارة رأس هذه على جسم تلك ، وطورا اراهن جسما واحدا برؤوس ثلاثة ، وطورا آخر رأسا مع ثلاثة اجسام » .

لا يمكن ان يكون الغموض غاية فنية ، في حد ذاته . والتسجيل، مهما كان نقلا للواقع ، لا بد وان يخضع للاختيار . لقد أراد الكاتب ان يكتب قصة عبثية ، لكنه لم يوفق في مهمته ، وجاءت النتيجة صورة ممسوخة لما اعتدنا قراءته في الادب الاجنبي . حتى اللغة التي استخدمها محاكاة سافرة للغة يونسكو القائمة على تداعي الالفاظ : « عيناي خفاقة ـ سجل الشريط خفاقة . فكرت بالكاتو : خفاقة ، بيض ، كاتو . تعبت عيناي من التحدبق ، من الخفق ، أغمضتهما » .

وتذكرنا قصة احمد سويد « الحصار » بتلك الكتابات العديدة التي اوحت بها مأساة فلسطين ، التي لا يسع اي انسان في العالم العربي الا انه ينفعل لها ويتأثر بها . والقصة هنا قصيرة بمعنى الكلمة ، مركزة ، ملتزمة بقضية بعينها ، وان صب التزامها في قالب فني جميل. البطل شاب ثائر يدخل مكانا مغلقا ـ احد الملاهي ـ يتحول في النهاية الى سجن يؤمه السكارى والباحثون عن المتعة ... مما يبرر العنوان الى حد كبير . والقصة تقوم اساسا على التناقض بين مكانين ـ هنا ،

الملهى ، وهناك ، حيث الثوار والفدائيون ـ وزمانين : الحاضر في الملهى والحاضر حيث الفدائيون من ناحية ، والحاضر في الملهى والماضي من ناحية اخرى . هكذا نتلمس مرة اخرى اهمية الزمان والمكان . وكما سبق ان لجأ د. سهيل ادريس الى صوت « آخر » غير صوت البطل ، يعمد احمد سويد الى شخصية لا ترى ، اسمها الآخر ، ومن الواضح ان « الصوت الآخر » هنا هو صوت الضمير اليقظ الذي لا يبيح الخطيئة ، ولو لليلة واحدة . والخطيئة هنا خيانة للقضية وللذات . كان بوسع ماجد البطل ، ان يصم اذنيه امام نداء الآخر ، لكنه لا يفعل ، بل لا يحاول ان يفعل . فالحاضر هناك ، والماضي هناك ، ماثلان دائما ، حتى لو حجبهما الحاضر . فالكلمة او اللمحة تكفيان لبعثهما . على سبيل المثال ، عندما تتحدث احدى بنات الملهى الى ماجد سائلة عن « حدائه البعيدة » ، تبعث هذه الكلمة صورة امه الحبيبة التي ابت ان تغادر ديارها . والام هنا صورة حقيقية ورمزية في آن واحد . ولعل أجمل ما في القصة فقرة يخاطب فيها الثائر امه ، مرددا كلمة « يمة » التي تضفي على كلماته ايقاعا موسيقيا جميلا . هذا ولقد وفق الكاتب في نقلنا بين المكانين ، والزمانين ، مستخدما كاميرا تعود بنا الى الوراء تارة ، وتصور تارة احداثا تقع في نفس الوقت ، ولكن في اماكن مختلفة .

وعندما صورت ليلى عسيران « سهرات الموتى » ، استوحت مأساة فلسطين ايضا . لكنها اختارت بطلة ، لا بطلا . تعيش مريم بين عالمين متناقضين ، عالم الصالونات ، وعالم الفدائيين . لكن العالم الاول غريب عليها ، لانه تافه ، فارغ ، خال الا من الاوهام . ولم تعمد الكاتبة بالصدفة الى تشبيه لعبة اللاشيء التي تدور في صالونات بيروت بمسرحية تتكرر كل مساء . ولقد رسمته الكاتبة مستخدمة صورا بعينها : الصقيع ، البرودة ، الثلج ، الرصاص ، كناية عن الموت الذي يخيم عليه ، في الواقع ، بالرغم من بريق الذهب والفضة . اما العالم الآخر ، فعالم الحياة الدافىء المنير ، المشتعل . ومريم الفدائية اداة لكشف عن العالمين . ما يدور في عالم الموتى يعبر عنه الحوار ـ في مكان ما حواران يتداخلان في شيء من الافتعال ـ والسرد المباشر . اما ما يدور في عالم الفدائيين الاحياء ، فتبعثه مريم نتيجة لتداعي الرؤى والخواطر ، بفضل ذاكرة قوية لا يغيب عنها شيء ولن يغيب .

كلمة ، في النهاية ، عن « الوهم الضائع » ، لكاتبها د. جميل جبر . انها نموذج ممتاز للقصة القصيرة التقليدية ـ تلك التي كتبها الفونس مولاسان في القرن التاسع عشر ـ بكل ما تشتمل عليه من عناصر : التركيز البالغ ، السرد الطويل الذي تليه خاتمة تحتوي على عنصر « المفاجأة » . لكن « الوهم الضائع » جاءت اقرب الى النكتة منها الى اي شيء آخر . فالمفاجأة الختامية تثير الضحك ، بعد تشويق واثارة استوليا على القارىء حتى اللحظة التي اكتشف فيها ، مع البطل ، ان شعر الشقراء المموج الجميل مجرد باروكة . ونتساءل عما اذا كان الكاتب قد أراد ان يدين ، من خلال هذا الموضوع الاليف ـ اصبحت الباروكة جزاء لا يتجزأ من اكسسوارات المرأة اليوم ـ ما يشتمل عليه واقعنا من زيف واصطناع .

سامية أحمد أسعد

القاهـرة

القصص المصريــة

بقلم الدكتور أحسان عباس

حين تجمع عددا من القصص القصيرة تنشرها في مجلة ادبية ، حتى ولو كانت تلك القصص تنتمي الى قطر عربي واحد ، فليس من الضروري أن تحمل سمات متشابهة . ان الازهار من الوادي الواحد تختلف في النوع واللون والرائحة ، ورغم ذلك كله ، فان هذه الاقاصيص الست لا تزال ـ رغم التباعد في المنتمى والغاية والطريقة ـ تتحدث عن مظاهر مشتركة ، لا اعني المظاهر التي تلمحها العين بسرعة لانها ترصد اثر البيئة ، وانما اعني شيئا أعمق من ذلك . قد يحلو لغيري ان يقول : انظر ، هذه قصص مصرية حقا يحتل فيها براد الشاي مكانة هامة ، لا ذكر فيها لمتعة شرب القهوة (انظر ص : ١٦١ و ١٦٤ و ١٧٥) او ما شأن هذه العناية بالحقيبة التي تحملها السيدة ؟ انها عند يحيى حقي « حقيبة يد صفراء لها حمالة تعلق بها على الكتف ، تشبه حقيبة كمسارية المترو » وهي عند يوسف ادريس « تشبه حقائب الدبلوماسيين » ـ ولكن من التشبيهين صلته الضرورية بالموقف في القصة ـ ولكن ليست هذه المظاهر المشتركة التي أعنيها ، انما انا ارى في هذه الاقاصيص جميعا غير ذلك من السمات التي تجعلها ـ رغم التفاوت والتباين في التقنية والهيكل الخارجي والاحداث ـ تتفق في المنطلق والغاية : انها جميعا تعبر عن ما يمكن ان اسميه « العجز عن التحول » تحت ضغط ظرف كبير ، وتتلمس في شيء من التخبط بين السلبية والايجابية طريقا لهذا التحول . كلها ـ بعبارة اخرى ـ موصولة بهزيمة حزيران ، تحاول ان تتمرس بمشكلة اللاحرب واللاسلم ، وقد تخطىء هنا وتصيب هنالك ، لان ضغط الظروف الكبرى يفقدها على رؤية صحيحة لحركة التاريخ . انها مرحلية اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية ، ولكن اصالة من كتبوها ـ وجميعهم ممن لهم قدم راسخة في كتابة القصة القصيرة ـ تجعلها تتجاوز تلك المرحلية بحق التقنية الفنية ، لتحتفظ لنفسها بالديمومة التي لا يقتصر تأثيرها على مرحلة معينة . وانا اذ انصدى للكلام عن هذه الاقاصيص الست ، لا اجدني محرجا ايضا ـ بحق الموضوعية المجردة ـ حين اتناول من بينها قصتين لصديقين حميمين هما يحيى حقي ويوسف ادريس ، فان هذه العلاقة تتراجع تماما حين يكون التقييم الفني الخالص هو المنطلق . ولكني احب ان اسجل هنا ان القصة القصيرة في مصر ، قد اصبحت ، من الناحية الفنية ، مفروضة بقوة ـ رائعة في مدى الاتقان ، رائعة في التفرد ، رغم انتمائها الى مشكلة واحدة . اننا ازاء قصاص يتحدثون بواقعية وبساطة ، ولكنهم يدركون جميعا طبيعة المسؤولية المنوطة بالكاتب الواعي المفكر في هذه المرحلة من تاريخنا العربي . فأما عبق الارض المحلية فانه يجب ان يكون مميزا بارزا حين يقال ـ في عالمنا العربي ـ : هذا قاص مصري او عراقي او شامي . ان الصدق الكلي في هذه المجموعة من الاقاصيص هو انها لا تريد ان تتكلم من زاوية اخرى غير المنطلق الذي تعانيه امتنا ، ولهذا فانها سواء اكانت في التحليل الاخير سلبية او ايجابية ، فانها لا تزال تتمتع برؤية دقيقة للمشكلة الكبرى ، وفي هذا وحده يكمن تفردها واخلاص كاتبيها : ان منظورها النهائي هو « الحرب » ، ولكنها ليست الحرب العدوانية ، بل هي حرب مقدسة من اجل الحقوق المهدورة ، وفي هذا تتمثل ايضا انسانيتها وعدالة غايتها . واذا كانت هذه القصص تلح على « التفسخ » الداخلي اكثر من الحاحها على وحدة القوى ، فما ذلك الا لان واقعنا يواجه هذه المشكلة بقوة ويتلمس ـ في عمى غير مدرك الابعاد ـ طرفا المخروج منها .

واصرح هذه القصص واشدها التصاقا بالمشكلة الكبرى ـ دون تعمية او تعميق ـ هي قصة « البراءة ليوسف ادريس . فانه وجد في العجز عن التحول ، في التخلص من الركود المسيطر على كل شيء ،

في محو حلقة الصفر الفارغة ـ تحديا كبيرا شاهرا ، ووجد طريقة الخلاص من ذلك التحدي في شيء لم يكن يتوقعه : « ولكن شيئا جديدا لم اتوقعه ابدا لمحته هناك » ـ . هذا الشيء الذي بدأ يحطم دائرة الصمت المطلق هو ثورة جيل الابناء ... لان جيل الاباء استطاعوا بالخداع الذاتي ان يقنعوا انفسهم بان عملية التوفيق بين البراءة المطلقة من الانصياع لسحر المغريات وبين الصمت المتفرج فضيلة كبيرة ، فكانت طلقة الرصاص التي اطلقها الابن هي بداية التحول الى مرحلة ايجابية من التعبير ، كشفت عن زيف تلك الفضيلة المزعومة .

واقصوصة « البراءة » ـ بهذا النحو ـ امثولة مصرّحة ا رمز تحكي قصة الواقع العربي الراهن : زورق يفري بالزيارة والفرجة ، يقف ازاءه الجمهور صامتا مشدوها متطلعا ، وكل شيء في هذا الوضع يلبس قناع الوداعة واللطف والاغراء : الجنرال في ثياب مدنية ، أدوات القوة تلبس قفازات ، فليس هناك أظافر او رؤوس حراب او خناجر غدر بادية للعين ، ووسائل الاغراء المالي والجنسي الوان صارخة متعددة . هل يكفي المفكر المسؤول ان يتذرع بالفرجة حتى ليقول انه لم يبع ضميره ولم يذعن للمغريات ؟ هل يحمل الصمت المطلق في ذاته علامات رفض وأستنكار ؟ ان اكبر كذبة مختلفة في النظم الديموقراطية هي ما يسمونه « الاكثرية الصامتة » لانها تزييف لحقيقة الانسان الذي يجب أن يتميز بالقدرة على التعبير ، فكيف اذا كان الصمت ازاء تسلط غاشم ؟ وكيف اذا كان هذا الصمت يشمل الجمهور كله : « الجمهور على المرسى الخشبي القديم متدلي الرؤوس من فوق الحاجز ، يتطلع ساكتا سكوت الدهشة ، سكوت حب الاستطلاع ، سكوت الفرحة ، سكوت يوم الدين ، ولكنه سكوت » ، غير ان اشد انواع الصمت خذلانا وانهزامية صوت الكاتب المفكر المسؤول . انه لا يستطيع أن يظل متفرجا ودوره دور من لا يتجاوز المشاهدة الصامتة ، متبجحا بانه لم يقترف دنسا ، وانه « نظيف القلب مثل بفتة المحلة البيضاء » ، ربما كان يجد في موقفه قوة اذ يرفض ان يصافح الجنرال ، وربما كان شعوره بالثقة يزداد حين يجد نفسه مراقبا ولا يعير تلك المراقبة اهتماما ، بل لعل شعوره بمناعته الذاتية تضخم حين استعلى على كل صنوف الاغراء : فقد جاءه هذا الاغراء قويا عارما في صورة المال والجنس مجتمعين ، ثم تحداه في الوان من الاستثارة الجنسية التي تزلزل اعتى الصامدين : « امامك طابور الاسى الانثوي كاملا غير منقوص ! خضرة المراهقات امامك ، خبرة المدربات امامك ، خجل ربات البيوت امامك ، الارامل الفتيات امامك ، الفقيرات الجميلات امامك » ، وامامه ايضا « الجنرال » يبارك اختياره مشجعا ، حتى لو انه اختار ابنة العاشرة . أسلحة قوية تصوب حول مناعته وهو صامد لا يلمس شيئا ، يريد أن يظل نظيفا يتفرج . ولكن ما الفرق بينه وبين اصحاب الاعناق المتدلية على الحاجز ؟ الفرجة في حد ذاتها اصبحت دنسا ، والقلب الذي في بياض البفتة تخترقه رصاصة تقضي عليه : انه ابنه ، انه الجيل الذي لم يعد يؤمن بان « السلبية » طريق الى التغيير والتحول . استغاث بابنه لعله يرحم ابوته وعفة يده وطهارة ذيله ، ولكن « الوجه وجه قاض والنظرة نظرة جلاد ، والفم يتمتم بالحكم . لا ، انا لم ألمس يا بني شيئا . يا مجنون كنت مثل هؤلاء جميعا أتفرج ارجع . لا تكن مجنونا . ما الجريمة ان اقف واتفرج .... » لم يقل له ابنه ان الجريمة كل الجريمة كامنة في تلك الفرجة وذلك الصمت ، لان ذلك معروف ، ولم يقل هو لنفسه انه كان يدرك انه يقترف جريمة دون ان يجرؤ على الاعتراف ، رغم انه وصل الى حد فاصل : « لم يعد في طاقتي البشرية ان ابقى وان اتفرج » ـ البقاء والفرجة اصبحا معا متعذرين ، لان الطاقة البشرية تنكرهما وتعجز عنهما ، ولكنه لم يكن يستطيع الكلام ... الثورة ، في وجه هذا الوضع ، الثورة الداخلية على الصمت هي الطريق الى التحول : هل هذا نوع من الامل الرومنطيقي المعقود على الاجيال القادمة ؟ مهما يكن من شيء ، فان قصة يوسف ادريس قد تكون امثولة صريحة في رموزها ، ومع ذلك فان القارىء يحس بان التوتر الاسلوبي ، والكابوس الحلمي ، وهذا التوازي المستمر بين الايجاز والتدقيق بحسب المواقف المختلفة ، والتكرار الايقاعي الذي يستدعيه الجو العام ، كل هذه الامور قد وفرت لها عناصر فنية اصيلة تجعل الشكل القصصي فيها ذا طابع متميز .

ويبدو ان يحيى حقي قد وجد طريقه الى التحول على الصعيد المعاشي ، اذ توحي اقصوصة « امرأة مسكينة » لاول وهلة بان لا علاقة لها بالازمة الكبرى ، وكأنها لا تعنى الا بمصير امرأة ، اسمها فتحية ، وجدت ـ بعد مرض زوجها ـ انها قد اصبحت مسؤولة عن القيام بشيء ما يكفل لها ولولديها استمرار الحياة . وتنفتح امامها فرصة العيش حين تعين « مشرفة على المواد الغذائية » في شركة الطيران التي كان يعمل فيها زوجها ، ثم تحرز تقدما في عملها بخطى ثابتة واتزان حتى لتحصل على اذن بالسفر الى اوروبا للاشراف على جميع موردي طائرات الشركة في المطارات الاجنبية ، ويصبح بقاء زوجها في المستشفى عاملا ضروريا لنجاح وصولها الى العلالي ، وحين وقفت على سلم الطائرة ، كان برفقتها مدير الشركة نفسه ....

وتعد فتحية نموذجا للمرأة القوية التي كان اهلها يصفونها بالشجاعة والثبات ، واحيانا بالقسوة ، الا انها كانت تنكر اتهامهم لها بالقسوة وترى أنها في الحقيقة « امرأة عملية عقلها في رأسها » ، وقد استطاعت ان تتقدم في الحياة لانها لم تبتذل نفسها ، بل كانت تحيط تصرفاتها بحسابات تبدو مدروسة ، حتى اذا سنحت لها الفرصة في العلالي ، لم تبد « في صورة امرأة متهالكة تتهدم عند اللمسة الاولى » ، لانها تحب اذا آن الاوان أن تكون هي انثى تجود ، وهي انثى تقود » ، وبمثل هذا الاحكام استطاعت أن تصل دون أن تدفع الثمن على مراحل ، بل ظلت سمعتها نقية . ولكن السر الحقيقي ليس في قوتها بل في اعتقاد الناس انها « امرأة مسكينة » تحاول أن تجد الطعام لعيالها بجهدها ، وقد استراحت هي الى هذا الوصف ، فلم تعد تحاول ان تنفيه عن نفسها ، وازاء هذه « المسكنة » الظاهرية كانت انسانية من حولها تهب لمساعدتها ، وعن طريق هذه « المسكنة » نفسها كانت الابواب المغلقة تفتح لها ، فلم يخب لها رجاء ، ولكنها كانت في قرارة نفسها تحتقر الضعف والضعفاء وتحاول أن تستخدم ذلك الضعف في خدمة غايتها .

وينأى يحيى حقي بالقارىء عن المستوى الرمزي كثيرا حين يمعن في تصوير الشخصيات . فهو يوضح شخصية فتحية عن طريق الاهتمام بكل شخصية أخرى في القصة : الحماة ، الزوج فؤاد ، الابنة ، الطفل ، عبد الرحيم قريب فتحية ورفيق طفولتها ، وان اهتمامه برسم الشخصيات يبدو متعمدا لانه يريدنا ان نرى كيف أن فتحية تركت كل الاخرين في منطقة الظل وبرزت هي بروزا ساطعا . ويأتي تطور الحدث في القصة ثانوي القيمة ، لانه لا قيمة له في ذاته ، بل كل قيمته في تطور شخصية فتحية ، ولانه يبدو حتميا في تدرجه ، وكأن القاص يقول لنا : لا اخفاق يمكن أن تواجهه مثل هذه الشخصية لان طموحها مربوط بالعلالي ، ولها من عناصر شخصيتها ما يكفل لها ذلك ، او ـ بعبارة اخرى ـ : ان السلم مهيأ للصعود وهو يتطلب من يستطيع ذلك ، وفي مثل هذا اللون من التدرج في الحدث يتوارى العامل الجنسي وراء اقنعة من مشاعر العطف الانساني ، ومن محاولة الافادة من تلك المشاعر ، ويقبع الجنس في زاوية متربصا ان يكون مكافأة نهائية لمن بيده ضمان البقاء في العلالي . وليس في القصة صراع بين فتحية والدوائر الاجتماعية الخارجية ، اذ يبدو ان لشخصيتها ، او للمسكنة الشائعة عنها ، او لطريقتها في البت الحاسم ، فعل السحر في تمهيد الطرق التي تبدو أول الامر مسدودة ، ولكن الصراع قائم على الصعيد العائلي بينها وبين الضعفاء ممن يمتون اليها بصلة قرابة ، وحين تعلو على ضعفهم تذوب من طريقها جميع المشكلات وتختفي .

ومع ذلك كله نستطيع ان نقرأ قصة « امرأة مسكينة » على ضوء الازمة الكبرى . فحين اختار القاص أن يرسم صورة للقوة وهي تنداح تلقائيا بما فيها من زخم ذاتي فتبسط وجودها على كل ما حولها، وحين جعل الفوز الفردي للخطوات المدروسة في واقع الظروف المحيطة، والاتزان والتعقل وللسيطرة على ما قد يثور في النفس بين الحين والحين من نزوات ، وحين علق بصر فتحية بالعمل من اجل الغد (« يا ترى يا ربي ماذا سيحدث لنا غدا ؟ ») بينما كان بصر الام ـ ام فؤاد ـ مثال الاستسلام للواقع معلقا باليوم (« يا ترى يا ابني يا فؤاد كيف حالك اليوم ؟ ») ـ حين فعل ذلك كله ، كان يومىء ـ ولو من بعيد ـ الى الحالة التي تعانيها الامة العربية بعد الهزيمة ، حين لا تجد من وسائل القوة ما يجعلها تسير نحو الغد بخطى ثابتة متزنة . اننا اذا لم نقرأ هذا المعنى في قصة « امرأة مسكينة » لم نستطع ان نسوّغ كيف اباح الكاتب لنفسه ان يضعف عنصر الصراع بين بطلة قصته والمجتمع ، بل حتى بين الفرد واللوائح والقوانين ، ولا تفسير لذلك الا انسياقه الى الايمان بان القوة ـ بكل ابعادها ـ هي وحدها التي تستطيع ان تشق طريقها دون ان توقفها عقبات .

وتمثل قصة « القرين » لسليمان فياض موقفا معقدا بالنسبة للقارىء من حيث الشكل والمحتوى : اما من حيث الشكل ، فانه ليس هناك ما ينبىء عن تسلسل مقصود عامد ـ أيا كانت وجهة هذا التسلسل ـ في الفقرات الاربع والعشرين التي عنونها الكاتب ، مميزا كل فقرة في قصته على حدة (« كيف تعرفت الى وجود القرين فجاة ذات صباح » ـ « كيف رأيت قريني يقلدني مثل القرد في المرآة » ـ « كيف جرني القرين لمناقشة فقرة وعابثة في الحمام » ـ « كيف اكتشفت ان قريني له عدة اسماء مضحكة » ....) ـ الى آخر تلك العناوين الاربعة والعشرين : نعم ان الفاتحة والخاتمة تشيران الى بداية طبيعية ونهاية طبيعية كذلك ، ولكن هل الاضطراب فيما بينهما مقصود ليصور حقيقة ان « نزوات » القرين لا تخضع لنظام ؟ ام هل اختيار الرقم (٢٤) مقصود ايضا ليكون بعدد ساعات يوم كامل ، وهو ـ اي اليوم ـ اختصار طبيعي للعمر ؟ واما من حيث المحتوى ، فان الاطوار والادوار والصور والهيئات التي يمكن ان يظهر بها القرين لا يمكن ان تحصر ، فهل هناك انتقاء مدروس له دلالات متفاوتة في كل حالة من تلك الحالات ؟

والقصة على المستوى البسيكولوجي محاولة نفسية للغوص وراء تشكلات الذات الداخلية ، والاقنعة التي استحدثها الانسان ، فالقرين موجود في الاساطير والمعتقدات الشعبية (انظر رقم : ٤ و ٢٢) وهو يتجسد شيطانا يتلبس بالسندباد فيسكره السندباد ويقتله (رقم : ١٨) وهو الغريزة ، وهو الانسان البدائي ، وهو الذكريات القابعة في (الليبيدو) منذ عهد الطفولة ، وهو غير ذلك من تجسدات واشكال ، « هو الذي حملناه معنا من الغابة الى المزرعة ، روضناه ليكف عن الصيد وارتداء جلود الحيوانات وانتعال جلود الافاعي ... واعددنا له الان الاقنعة ليظل صامتا متمدنا ومؤدبا » ـ هو الانسان ، او صورته ، ما الفرق ؟ ويبدو الموضوع في ـ مداه العام ـ اكبر من ان تستوعبه قصة قصيرة ، لولا هذا الاختيار ـ غير المعلل ـ الذي اتبعه الكاتب ، ومع ذلك فان سليمان فياض استطاع ـ رغم استطالة القصة ـ ان يملك انتباه القارىء في كل مرحلة بما كان يثيره من عناصر الاغراب (الاغراب نسبي ، وسبب الشعور به احيانا كثرة الاقنعة في حياة الانسان) والسخرية والجرأة على نبش ذكريات الطفولة واطلاق المخبآت التي تعشش في الظلمات الكثيفة داخل النفس ، وتكاد الخاتمة ـ وهي « الجنون الهادىء » ـ ان تكون هي الحل الوحيد المؤقت لانهاء هذه القصة التي تملأ فصولها حياة الفرد بشكل لا يمكن حصره بالساعات (فكيف اذا كان الفصل يتشكل احيانا في ثوان) . وانما اسميه حلا مؤقتا لانه الجنون الذي يسمح باستمرار نوع ما من العلاقة بين الانسان والقرين (لا كالانتحار مثلا) .

وتطرح القصة في حقيقتها مشكلة وجود الانسان من زاوية وجودية يعاش فيها الموت (والهرب من الحياة ـ الموت) في كل لحظة : « ها هو يوم آخر ، عليّ ان احمله كالصليب والحجر ثم ادعه يسقط وراء الافق ، واشهد قريني يرقص عند الحافة ، فاتحا ذراعيه ، يدبدب بساقيه عاديا كالذئب الجائع ، كأنه يولد ، كأنه يحتضر » ـ ولا فرق بين الولادة والاحتضار ـ في ظل الموت ـ ومن ثم لا انفصام بين الانسان وقرينه بالنظر الى المرحلة بينهما .

ولكن ما الصلة بين هذه القصة وبين الشعور بالعجز عن التحول ؟ اقوى الصلات فيما اعتقد ، لا لان الانكفاء على اعماق الذات يشير وحسب الى حيرة واشاحة بالنظر عن الازمة الجماعية الكبرى ، بل لان الفرد حين يحرم حتى من حق « الموت » في الجماعة (فضلا عن العيش) يغدو متشككا في مدى جدوى ما يسمى « الحياة » ابتداء ، ويتحول لتآمر الاشياء كلها ضده الى « وحدة مدهشة ورعب حقيقي » ويبلغ ـ بكل اطمئنان ظاهري وفجيعة داخلية ـ مرحلة الجنون الهادىء. ان هذه القصة تمثل مرحلة جديدة (لها بذورها) في قصص سليمان فياض ، فبعد تلك التفة التي كان يستمدها من الكفاح الجماعي في مجموعة « احزان حزيران » وذلك الانفساخ المكاني (رغم ما فيه من ذبذبات الاسى الفردي) في مجموعة « العيون » ، وجدناه في هذه القصة يعود الى فوضى العالم الداخلي الشاسع بكل ما يوحي به من وحدة وانبتات ، ويختار مكانا محصورا لا يتعدى المطبخ وغرفة النوم ـ في بعض الاحيان ـ لكي يقول لنا انه اصبح محصورا ، محاصرا ، يحيط به عالم مشلول من الفراغ الخارجي ، وهو ضائع في بؤرة الذات التي (رغم انها قد تسع العالم) تفضي بمن ينحصر فيها الى جنون ـ أليست هذه هي حقيقة المأساة اذن ؟ اليس هذا تعبيرا عن فداحة ما بلغه اثر الازمة الكبرى ؟

ذلك انه حتى هذا الفرد الذي اختار زاوية مظلمة يقبع فيها ، لا يستطيع ان ينجو من المؤثرات الخارجية التي تزيده سخرية من موقفه ومن الوضع العام ، فليس هو على المستوى الوجودي قد فقد الحاضر ، وانما فقده ايضا على المستوى العملي القومي ، واصبح يجهل الغد (لانه يعجز عن رؤية الحركة التاريخية في مسيرها الطبيعي): « لاحرالي ذلك الاخر كل ماضيّ الذي فات ، كل غدي الذي لا اعرفه ، حسرة ووعدا ، وحاضري بينهما لحظة متنتة في الزمن لا نكاد تمسك ، مضيعة بيني وبين ذلك الاخر » . وفي التعليقات الساخرة التي يرسلها سليمان فياض بين الحين والحين حكم على هذا الوضع الذي ساقه لمعايشة القرين ، وذلك مثل قوله : « حقا وما الذي تراه حولك ولا يضحكك ايها الغافل ؟ ما الذي تراه جادا في هذا كله حتى لاتضحك، بل حتى لا تموت من الضحك ؟ » ، وحين يلتفت دون مواربة الى الجانب السياسي الاذلالي من الازمة لا يملك الا ان يقول في صراحة : « يصرح ابا ايبان ان العرب قد ادركتهم امراض الشيخوخة . يصرح موشي دايان بان وجود الجنود الاسرائيليين في سيناء هو بمثابة رادار يرسل نبضاته المدمرة تقلب مصر . بدت لي الكلمات ما تزال فاقعة موجعة . نظرت الى قريني بدهشة لانه يضحك لها ، ما يزال يضحك ، وركبني الهم » .

ولا تتطلب القصة « الصيد الاخير » لمحمود دياب اجتهادا كثيرا في التأويل لتبين بعدها الرمزي وصلتها بواقع الامة العربية في حالة اللاحرب واللاسلم ، وان لم تكن من هذه الناحية في مثل صراحة قصة يوسف ادريس . وتعتمد القصة فكرة لا يفتأ القصاصون يعالجونها، كل من زاويته ، وخلاصة هذه الفكرة ـ مستوحاة من قصة « الصيد الاخير » ـ ان لكل امرىء منا في هذه الحياة « سمكته » التي تمثل سبب وجوده ، ولولاها لخرج به محور وجوده عن اتجاهه الطبيعي . ذلك هو حال « ابو فكري » الذي كان احد سكان الاسماعيلية ، فلما احيل على المعاش ذات يوم انفذ سنوات عمره الباقية من حالة الركود

الميت بان تعلم صيد السمك بالسنارة والحداف ، وذات يوم صاد سمكة « أروسة » - اكبر سمكة صادها خلال ثلاث سنوات عند مدخل القنال الى البحيرة ، وقدر احد العارفين انها تزن ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين كيلو ، وانه يستحق على صيدها وساما . ولكن السمكة كانت هي الوسام الحقيقي الذي ميز سنوات عمره بعد الاحالة على المعاش ، ويوم رحل اهل الاسماعيلية عنها واصبح « ابو فكري » لاجئا ، كان كل شيء في حياته قد ارتبط بهذه السمكة لانها تمثل له كل شيء : حياته وقدرته وحركته وبلده ونعمة الحرية فيه ونعمة الخروج من حالة الانتظار، من هذه البحيرة الراكدة الى تلك البحيرة التي تعج بالسمك : « فما من شيء يهد الانسان مثل الجلوس على حجر ، سنة بعد سنة ، لا يفعل شيئا سوى ان ينتظر ...... » واي انتظار ؟ ومن يعرف كم يدوم؟ أهو شيء بلا نهاية ؟ ورغم انه تعود الانتظار في حرفة الصيد ، الا انه كان يدرك ان هذا الانتظار غير مماثل له في قليل او كثير . ان هذه السمكة هي « الارض » و « البيارة » و « خلة الزيتون » و « كـرم العنب » و « البيت » عند لاجئين آخرين ، هي الماضي والمستقبل معا ، اما ما بينهما فانه مرحلة انتظار (او تحويل لهذا الانتظار الى حركة استشهاد في سبيل « السمكة » او استرداد لها) - والسمكة لا تموت ، لانها سر وجود : « ولكن اروسنه لم تمت ... وقد عـادت بالفعل تطفو الى السطح واطلت برأسها في عناد وكأنها تتحداه ان يمسكها وتدعوه للنزال ...... » وكان يريد ان يعمل شيئا لانه لم يعد يطيق انتظارا شبيها بالموت ، ولكن عمله ظل في نطاق الحلم : « اعاد معدات الصيد الى المحفظة بعناية شديدة .. وحزم سيورها ووضعها الى جانبه فاسند راحته عليها ، ونظر الى زوجته وقال في هدوء : كل شيء جاهز الآن » .

ان هذه الاقصوصة بمقدار ما تؤكد العامل الذي يكفل للفـرد « سبب قدرته على الاستمرار » تؤكد ايضا على مدى ما يعانيه الفرد العربي حين يكون الانتظار وحده هو كل نصيبه من الواقع . انتظار ماذا ؟ العودة الى حياة مستقرة ، ولكن لم الانتظار وحده ؟ انها طبيعة القصة التي بلغ بطلها سن الثالثة والسبعين ، انه انتظار مربـوط حتميا بحركة الاخرين ، ولكن يبدو ان الاخرين قد عجزوا ايضا عـن الحركة (تلك هي ايحاءات القصة وايحاءات الانتظار الطويل معا) .

وتجتمع في قصة « اصوات في الليل » لابو المعاطي ابو النجـا عناصر من قصتي « القرين » و« الصيد الاخير » - لا اعني ان هناك استعارة من احداهما ، وانما اعتمد ابو المعاطي الجو النفسي في قصته (كما هي الحال في «القرين») لانها صورة مـن حلـم تضيع فيـه اللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة ،وينتهي البطل فيها الى نهاية مشابهة : « كيف يوضح لها (لزوجته) فيم يفكر ؟ كيف يقول لها ان الرجل الذي يعجز عن التمييز بين اصوات الحلم واصوات الحقيقة لا يمكن ان يكون رجلا سليما ؟ كيف يوضح لها ان الحقيقة اصبحت تراوغه هي كالاحلام ، وان اللحظة الفاصلة بينهما تهرب منه دائما ؟ كيـف يوضح لها انه لم يعد يملك سوى شجاعة الاحلام حيث نصبح كـل المغامرات عقيمة ؟ كيف يوضح لها ذلك كله دون ان يدفعها الى العجز عن التمييز بين العقل والجنون في كلامه ؟ » . وبطل القصة الذي يشبه « صاحب » القرين في شجاعة الحلم يشبه ايضا« ابو فكري » صاحب السمكة ، فهو ايضا يملك سمكة ، ولكن من نوع آخر ، وسمكته هذه ليست سر وجوده ، ولكنها سر الحلم الذي اصبح هو مسرح الحياة الحقيقية .

وسمكة بطل القصة (او قرينه) هي العم سليم الشامي - رجـل نزل قريتهم ذات يوم ، فاذا به يبسط وجوده على كل القرية بطريقة غامضة ، فهو يبيع الارض ويشتريهـا ويداوي الحيوانـات ويطحن الحبوب ويصلي بالناس ويحل كل مشكلة : وبالجملة « يعرف كل شيء عن بلدهم ولا احد يعرف عنه شيئا حقيقيا يريح القلب .... يأكل اطايب الطعام في كل البيوت ، وضحكات النساء وراء الابواب مـن اجله ، وعيونهن عليه ، والناس كلهم يتبعونه كالكلب » .

اثنان كرها « العم سليم الشامي » في القرية كراهية مستعلنة (اما سائر الناس فكانت كراهيتهـم مقهورة خفية غامضة)، احدهمـا هو شلبي (الاجير الزراعي) الذي ادرك بحدسه الطبيعـي السليم خطر هذا الغريب على اهل القرية ، وكانت اخت شلبي من بعد احـدى « الخادمات » اللواتي يوقفن على رضاه ورعايته ، فاضطر شلبي الى قتلها ، واختفى « العم سليم » عن الانظار على اثر ذلك ، وربما نجا بنفسه لانه كان يسمع ان شلبي يهدده بالقتل ، الى ان كان يوم فقد فيه شلبي نفسه ، وقيل فيما قيل ان اهل القرية قتلوه لانهم ضاقوا بكلامه عن الموضوع وبذلك استراحوا منه . امـا الشخص الثاني فهو بطل القصة نفسه ، ولكنه حينئذ كان صغيرا ، وكان كل ما يستطيعه ان يحرض اباه على « العم سليم الشامي » ، اذ كان نافما على ما يلحظه من اهتمام امه بسليم ، وذلك الاهتمام يثير ريبته ، وقد حفرت تلـك الذكريات في اعماق نفسه جرحا لا يندمل ،وهذا هـو الذي ظل يؤرقه على مدى الايام ، فتتراءى له في احلامه عودة « العم سليـم الشامي » - بشكله القديم ، او بنسبة جديدة : « العم سليم المغربي » - وتنشب المعركة الفاصلة (شجاعة الحلم) التي نجعله يحاول ان يصفي الحساب القديم ، وفجاة يستيقظ ليدرك ان الواقع غير الحلم ، وان اصوات اللصوص المختلطة في الواقع هي التي جعلته احيانا يصحو في الليل - ثم يواصل نومه ، وانهم قد سرقوا التلفزيون والراديـو وتمثال ابي الهول .

في هذا الكابوس الثقيل الذي ينوء به بطل القصة لحظة اصبحت تهرب منه ، لحظة تفصل بين اليقظة والحلم ، بين حالتي اللاحرب واللاسلم فراغ هائل مخيف يحتوشه ، وهو يواجه عدوين : اللصوص الذين سرقوا تمثال ابي الهول والراديو والتلفزيون واشياء اخـرى : اي عاثوا بالرموز الحضارية واستولوا على الوسائل الثقافية والاعلامية، اما اللص الذي يتسلل في الحلم فانه « لص من نوع غريب رهيب ، ذلك انه لا يضع كرامة ضحاياه في مازق ، على الاقل في بداية الامر ، ولكنه سيضع حياته كلها وحياة اولاده مع الايام في مازق لا مخرج منه ». هذا اللص هو الذي قتل شلبي بطريقة غامضة او تسبب في قتله ، وشلبي رمز الطبقة الفقيرة الطيبة التي لا تستطيع ان تتقبل الخنوع ، اما بطل القصة فقد عاش ليكبر في نفسه « الجراح » - عار الهزيمة (العدوان على الام) - ويظل هو فريسة للاحلام ، لان الواقع كلـه مضروب بالعجز الشامل ، غير انه يعرف الحل المريح ، وليس من حل سواه : « دمه او دم سليم الشامي يجب ان يسيل امام عيونهم حتى لا تتكرر المأساة . ليس هناك من طريق آخر » .

ويفترض أبو المعاطي انعدام الاحساس بالزمن في اللحظة الفاصلة بين اليقظة والحلم ، كما هي الحال في الحلم نفسه ، ولهذا فـان الحلم يمتد ويمتد ، وكأنه لا فواصل هناك ، وحين تتم اليقظة يكون الرجل المعلق في مرحلة بين الجنون والعقل قد اصبح منفصلا عما حوله لا يستطيع ان ينقل الى الاخرين حقيقة ما يؤرقه ، او ان يستبيـن بنفسه هل سمع في الليل اصواتا حقيقية او كان يسمعها في الحلم ، لقد اصبحت سعادة البطل - لا شجاعته وحسب - هي ان يظل حلمه مستمرا ، وان يعي في الوقت نفسه انه يحلم : « احيانا كان يعي في حلمه انه يحلم دون ان يوقظه ذلك من حلمه ، وحين كان يصل الى هذه الدرجة الشفيفة من الادراك ينتابه فرح شيطاني : يفعل كل مـا يعجز عن فعله في الواقع ، يحاول الامساك بالمستحيل ، يقفز فـي المنحدرات ، ويستحم في الاماكن البعيدة عن الشواطىء ، يرتفع صوته بكل ما يخاف ان ينطق به ، يتحرر من قيود الزمان والمكان » ... ولكن اذا كان الحلم يعيد اليه صورة « العم سليم الشامي » ويضعه وجهـا لوجه امام تحدي المتسلط ، فكيف تكون سعادته في الحلم ؟ ذلك حلم لا يكفل له الوعي به ، ولكنه قد اصبح - من دون كل الاحـلام -

« سمكته » التي يتلمس من خلالها انه ، رغم كل شيء ، لا يزال ذا صلة باولاده وزوجته واهل قريته (باوطن على اتساعه) ، وبشلبي ، نعم بشلبي ، الذي كان ضميرا يقظا خنقه الذين رضوا بالكراهية المقهورة او ساعدوا على خنقه .

اما قصة « يوم مصري جاف » لمحمد المنسي قنديل ، فانك تستطيع ان تسميها « يوم عقيم » وتكون التسمية اقرب الى دلالتها العامة . وتنقسم القصة في ثلاث مراحل : الصبح والظهر والليل ، وهذه القسمة اساسية في المبنى ، لان الاحداث تناسب الجو الزمني في كل مرحلة . وتدور القصة حول يوسف ، الفتى القروي الذي دخل سلك الجندية وغادر قريته ولم يعد ، وخلف في انتظاره اباه وامه وزوجه (بدرية) واخا ابله يدعى غباشي . ولكن يوسف كان اكثر من فرد قروي غائب : كان سر الحياة في القرية ، وكان « سؤالا » عبر عشرات القرى الفقيرة الجائعة » ، فلكل قرية يوسفها ، انه الانتظار مرة اخرى ، ولكنه انتظار لعودة « المنقذ ») البطل الذي يخرج القرية من العقم الشامل . ولكن اذا استثنينا بصيصا من الامل في نفس الاب والام والزوجة بعودة يوسف ، فان الاخرين كانوا قد يئسوا من عودته ومن معاودته زراعة القطن وان تكون الشجيرات التي يزرعها اعلى شجيرات في البلد .

واظل صباح اليوم النهائي : كانت ارحام الارض تنفتح عن القطن ، ولكن في هذا الموسم « تهب ريح البوار عبر زهور القطن واشواك الحطب » ، وغباشي الابله ، تمتزج فحولته وبلهه معا في مطاردة الفتيات وفي جانب من الحقل يضاجع بدرية ، التي طال بها الظما لعودة يوسف : « ما راودتها هذه الخواطر يوما ولا تخيلت هذه اللحظة ، لكنها كانت في اعماقها تنمو عبر ليالي الوحدة ولحظات الجفاف » ، ولعلها في لحظة خادعة رأت فيه صورة « يوسف » تحت وقع غشاوة من الشبق الجنسي العارم . وتستأثر المضاجعة بالقسم الاعظم من المنظر في وصف غلمة - كغلمة الارض - لعودة يوسف ، وحين اخذت تصرخ باسم زوجها الغائب ، انطلق غباشي يركض عاريا وسط الحقول .

وتتميز فترة الظهر بالترقب . تغيب صورة « بدرية » التي كانت كالارض عقيما ، وكالصفصافة التي زرعها الاب وسماها « شجرة يوسف » ، وتظل الام والاب في حالة انتظار ، الاب يحس انفاس يوسف ، ثم يتبين لخيبة امله انه كان واهما ، وتنفجر الام بالبكاء .

ويحل الليل (فترة الحزن والموت) فيجيء يوسف ، يحمله بعض الجنود ومعهم ضابط ، في صندوق خشبي ، ويتكلم الضابط عن يوسف : « كان من احسن رجالي ... ثم تكلم كلاما غريبا عن بلد اسمها مصر ، وعن ارض لا تموت ، وآلهة قدامى تطلب القرابين واعراس الدم والخضاب » ولكنه حين سأله احدهم : « هل مات في الحرب حقا ؟ » فزع للسؤال واختفى السائل هربا من وجه الضابط بين الرجال الاخرين ، وحين سأل الضابط وقد رأى ابوي يوسف في حالة مؤثرة : « هل كان ابنهما الوحيد ؟ » اجابه العمدة بلا مبالاة : « هناك ولد آخر ... غباشي ... اهبل » ؟ واحيل التراب على القبر ، ونظر الضابط نحو قبر بعيد فرأى شخصا ضخما يبكي في هستيرية عالية ، وكان عاريا تماما ، وكان هو غباشي .

يوسف - أو البطولة ، رمز الامل والخصب - ماتت ، ولكن في غير حرب ، ماتت وعقمت البلاد ، وماتت كل قدرة على التحول . الارض بدرية : كلتاهما في ظمأ للخصب ، ولكن .... هل كان من الضروري لبدرية (الارض يوسف) أن تخطىء فتخلط بين البطولة والبلاهة ؟ انها الضرورة ، انه العطش القاتل ، وغباشي سيعيش عاريا ، اذ لا غطاء يستطيع ان يخفي بلهه ، فعريه هو ظهوره على حقيقته . وبين ظهور غباشي في آخر القصة واختفاء بدرية من القصة كلها بعد لحظات المضاجعة عند جانب الحقل تتحقق فكرة العقم المطلق.

احسان عباس

القصص السورية

بقلم جورج طرابيشي

اذا كان بعضهم يرى ان العقل يميل بطبيعته الى التشميل والتوحيد في كل واحد ، فلاقر بأن السؤال الاول الذي طرحته على نفسي ، بعد ان قرأت القصص العشر المنشورة في عدد الآداب الخاص لقاصين من القطر العربي السوري مرة واثنتين وثلاثا ، هو : هل تتميز هذه القصص بوحدة ما ، هل لها طابع مشترك يجمع بينها ويميزها عن غيرها في آن معا ؟

ولأقر ايضا بأن هذا السؤال ينطوي هو نفسه على شيء من الالتباس . فانا حين اتحدث عن وحدة او عن سمة مشتركة ومميزة لا أزعم البتة ان هناك شيئا اسمه « القصة السورية » ، شيئا قائما في ذاته ، متميزا عن غيره . صحيح ان من النقاد من يتكلم عن قصة « مصرية » او عن قصة « عراقية » او عن قصة « فلسطينية » ، وصحيح ان هذه التسمية قد يكون لها ما يبررها في التحليل الاخير ، لكنني آثرت عن عمد أن اتحاشى استخدام تعبير « القصة السورية » لان مثل هذا التعبير تفوح منه رائحة اقليمية ، وان تكن لا ارادية ولا واعية .

ولو كان قصدي من السؤال الاول الذي طرحته على نفسي عن مطالعتي القصص « السورية » هو العثور على سمة مشتركة تميز هذه القصص ككل عن القصة العربية ككل ، لما كنت طرحت السؤال اصلا ، لعلمي بان الاجابة عليه مستحيلة ، وذلك ما دامت القصة « السورية » عربية الانتماء والملامح والقسمات .

بالطبع ، هذا لا يعني انه ليس في القصة العربية من تمايز جغرافي ، سواء أكان اقليميا أم قطريا . لكن هذا التمايز لا يصل البتة الى درجة من الحدة والعمق تنتفي معها وحدة القصة « العربية » . وليس هذا لسبب قومي فحسب ، بل هو ايضا لسبب بنياني يتعلق باللغة وبدورها في توحيد الجماعة الانسانية الناطقة بها . فالابحاث المعاصرة تشير الى أن اللغة شرط ، وبالتالي توحد من خلال هذا الشرط ، لا الانشاء الايديولوجي فحسب ، بل الانشاء العلمي ايضا . وعلى هذا الاساس لا يمكن الكلام عن « موضوعية خالصة » حتى في العلوم الفيزيائية والرياضية ، لان هذه العلوم المتمتعة بأقصى درجة ممكن تصورها من الموضوعية تظل ملونة بلون من الذاتية ما دامت المعرفة تتم عن طريق اللغة . وما يصح بالنسبة الى الانشاء العلمي يصح أضعافا مضاعفة بالنسبة الى الانشاء الايديولوجي الذي تلعب فيه اللغة دورا أشد حسما . فكم بالاحرى اذن بالنسبة الى الانشاء الادبي الذي هو بالتعريف انشاء لغوي !.

واذا لم نأخذ بعين الاعتبار غير هذا العامل وحده ، وجدنا انفسنا ملزمين باستبعاد تعبير « القصة السورية » - او « اللبنانية » او « العراقية » الخ - لان دور اللغة كعامل توحيد أقوى بما لا يقاس من الجغرافية كعامل تجزئة ، هذا فضلا عن أن الشعور بالانتماء القومي أقوى بما لا يقاس ايضا من الشعور بالانتماء القطري ، على الاقل في الاقطار العربية التي نفضت أو هي في سبيلها لان تنفض عن كاهلها غبار القرون الوسطى (1) .

على ضوء ما تقدم ، يصبح السؤال بصدد السمات المشتركة والمميزة سؤالا لا يتعلق بالقصة السورية من حيث انها سورية ، وانما بالقصة في القطر السوري من حيث انها تجل للقصة العربية ، تجل قد يكون متمايزا ولكنه حكما وبالضرورة غير مستقل .

وعلى ضوء ما تقدم ايضا يصبح مفهوم « السمة المشتركة المميزة »

(1) ربما كان هذا هو السبب في أصرار كتاب القطر السوري على عدم استخدام اللغة العامية .

القصة في سورية جزءا ومظهرا من مفهوم أوسع واشمل هو مفهوم « السمة المشتركة المميزة » للقصة العربية . وبعبارة اخرى ، ان بحثنا عن سمة مشتركة مميزة للقصة في سورية يصبح بحثا او مساهمة في البحث عن سمة مشتركة مميزة للقصة العربية . وكل ما أتمناه هو ان تكون رئاسة تحرير « الآداب » قد كلفت ناقدا أو اكثر بدراسة قصص العدد الخاص ككل ، في نفس الوقت الذي كلفت فيه نقادا بدراسة التجليات (٢) السورية او المصرية او الفلسطينية للقصة العربية . وهي معذورة على كل حال ان لم تفعل ، او ان عجزت عن فعل ذلك ، لانني لا ارى الناقد الذي يستطيع ان يقدم خلال اسبوعين من الزمن لا اكثر دراسة جدية عن القصص الخمسين التي ضمها عدد « الآداب » الخاص عن القصة العربية .

ولكن لنعد الى سؤالنا الاول :

هل نستطيع من خلال استقرائنا للقصص العشر التي ينتمي كتابها الى القطر السوري أن نحدد لها سمة مشتركة مميزة ؟

يخيل اليّ هنا ان السؤال بحاجة الى شيء من التعديل في الصياغة ، لا على ضوء ما تقدم فحسب ، بل ايضا على اعتبار اننا سنكون من المتعسفين لو طالبنا عشرة كتاب ينتمون الى اتجاهات شتى ويرون الى الحياة والادب من منظورات مختلفة أن يكتبوا قصصا لها بشكل مسبق سمة مشتركة مميزة وعلى اعتبار اننا لن نكون الا مفرطين في التعسف لو اصررنا على ان نكتشف ، بأي ثمن ، سمة مشتركة مميزة لقصص عشر كتبت كل واحدة منها في ظرف خاص ، ومن نقطة انطلاق خاصة ، وعلى أساس رؤيا خاصة ، ومن قبل كاتب بعينه يشحن كل سطر يكتبه بكل تاريخه الشخصي .

بيد ان هذا لا يعني نفيا لكل اطار عام لهذه القصص . فهي جميعها ، على سبيل المثال ، قد كتبت برسم العدد الخاص من « الآداب » . وعلى هذا يمكننا ان نفترض ان كل واحدة منها تمثل فن كاتبها ورؤياه على أحسن ما يمكن ان يكون التمثيل ، وذلك على وجه التحديد لانها كتبت برسم العدد الخاص . هذا من الزاوية الفنية او الشكلية الخالصة . اما من زاوية المضمون ، فالقصص جميعها كتبت ، على سبيل المثال ، في أواخر ١٩٧٢ واوائل ١٩٧٣ ، اي في زمن يتحدد بوجه عام بالشعور المتعاظم بوطأة هزيمة حزيران وباستمرارها بعد خمسة أعوام ونصف (واليوم ستة اعوام) من وقوعها وبغياب اي علامة تشير في الافق الى احتمال محو آثارها في يوم قريب . هذا الاطار الزمني للقصص يكفي وحده لتحديد ما ينبغي ان ننتظره منها : انكفاء على الذات للبحث في الداخل لا في الخارج عن اسباب الهزيمة، وبالتالي فضح وادانة لتردي الاوضاع العربية على اعتبار ان سر الهزيمة يكمن في تخلفنا لا في تفوق العدو .

وبعبارة اخرى : ان ما ستحدثنا عنه هذه القصص ليس الحرب والقتال ، وليس الصمود والمقاومة (٣) ، وانما الشعور المتفاقم بأن جزمة الاحتلال ستدوسنا باذلال اشد فاشد ، وبان المسؤولية في ذلك انما تقع علينا نحن ، وبان العلة تكمن فينا ، لاننا ارتضينا قبل الهزيمة وبعدها على السواء بأن تدوسنا جزمات الطبقات الحاكمة ، جزمات السجون والتعذيب والجلادين ، جزمات النفاق الايديولوجي ، جزمات التقاليد العفنة ، جزمات كل ما كان يحول ـ وما يزال ـ بيننا وبين الدخول الى العصر الذي هو طوق نجاتنا الوحيد .

وبمختصر القول ، ان لهذه القصص مناخا عاما اكثر مما لها سمة مشتركة مميزة . مناخ يأس ومرارة ، مناخ انهزام وسوداوية ، وبكلمة واحدة ، مناخ كابوسي . وانما في اطار هذا المناخ العام يعبر كل كاتب عن رؤياه ويعطيها اسمها الخاص . واذا لم يكن هناك بد في كل مقدمة من تحديد ما هو عام ، فان علينا الآن ان نتناول كل قصة على حدة لنرى كيف لوّن كل كاتب ذلك المناخ بذاتيته .

غادة السمان والازدواجية

ان للكابوس عند غادة السمان اسما محددا : الازدواجية . والازدواجية موضوعة اساسية لا في قصة « الساعتان والغراب » فحسب بل في جميع قصص مجموعتها الجديدة « رحيل المرافىء القديمة » (٤)

وغادة السمان في هذه القصة ، كما في معظم قصص مجموعتها الجديدة ، تقدم البرهان على انه ليس ثمة من حدود في تجاوز الانسان لذاته والفنان لفنه .

ولعله لا يكفي ان اقول ان « الساعتان والغراب » هي من اجمل واعمق ما قرأت لغادة السمان ، بل ينبغي ان اضيف بانها من أجمل واعمق ما قرأت للقاصين العرب .

وبديهي ان الازدواجية ليست هي التي تعطي « الساعتان والغراب » قيمتها وانما الطريقة التي تم بها رسم هذه الرؤيا الكابوسية .

عائدة بطلة « الساعتان والغراب » تحمل الازدواجية في كل خلية من خلايا جسدها . ولدت في الازدواجية وستموت في الازدواجية رأت النور في اليمن وترعرعت في سويسرا ، وستموت على أرض يمنية لانها سويسرية الجنسية . اسمها نفسه يتفجر ازدواجية : اسماها ابوها ، وهو من المقربين الى السلاطين ، عائدة ، وها هي تفاجأ بقومها بعد طول غياب عنهم يدعونها آيدا .

يمنية ولدت في أرض يتفجر الحر من احجارها وصخورها وبحرها وسويسرية عاشت في ارض يعانقها الضباب والبرد ابدا . من اسرة مسلمة سلطانية عريقة ولدت ، وفي مدرسة مسيحية داخلية نشأت وتثقفت . تنطق بالفرنسية وكأنها من بناتها ، وتعجز عن النطق بالعربية ، وهي لغتها الام ، الا تلعثما . اذا احبت اوروبيا فضلته ان يكون أسبانيا ، لان في دمه ، على ما تتصور ، بعضا من دمها . واذا ضاجعته ، آثرت ان تضاجعه في غرفة الوقود في معمل للكبريت ، لانه بذلك يخيل اليها انها تضاجع الصحراء اللاهبة . هي كما تصف نفسها زنبقة ، ولكن زنبقة سوداء ، زنبقة صحراء .

الازدواجية لعنة تطاردها حتى من قبل ان تولد : فقد كان والدها من سلاطين اليمن وكانت امها خادما عنده . لا تشتهي شيئا كما تشتهي حمى المرض ، لان في قشعريرتها التي تهز اوصالها رعشة تبث الدفء في جسدها المسافر ابدا في قطار سهوب الثلج اللامتناهية. في سويسرا كانت على الدوام عرضة للرشح والبرد ، وحين عادت الى اليمن اصيبت بالانفلونزا المدارية .

تقول عن نفسها بوعي رائع الصحو : « لا مناعة لديّ في بلادكم (اوروبا) . ولا مناعة لديّ ضد امراض وطني . أنا شتلة عاشت في غير أرضها ... طحلب هجين أنا ، ولا نجاة لي ... » .

والقائمة تطول لو أردنا تعداد جميع مظاهر الازدواجية في شخص عائدة .

لكن لقطة غادة السمان الرائعة التي محورت عليها قصتها القصيرة ـ الطويلة (٥) هي في تلك الساعة الغريبة المصابة مثل بطلتها بالازدواجية . ففي اليوم الذي قررت فيه الصحيفة السويسرية التي تعمل فيها ان ترسلها الى عدن لتكتب تحقيقا عن الثورة ، سارت

---

(٢) نستخدم هذا التعبير الهيغلي لا لانه مطابق تماما ، وانما لانه الانسب .

(٣) شأن بعض القصص التي ظهرت في اعقاب الهزيمة مباشرة ، وبوجه خاص بعد ظهور العمل الفدائي .

(٤) من المفارقات ان كابوس الازدواجية يطارد غادة السمان حتى على صفحات « الآداب » . فقد نشرت قصتها مع قصص لبنان ، مع انه كان ينبغي ان تنشر مع قصص سورية ...

(٥) استغرقت عشر صفحات مرصوصة من « الآداب » ..

في شوارع جنيف طويلا ، ووقفت طويلا ايضا امام واجهة محل لبيع الساعات تتأمل ساعة يد عجيبة : ساعة تتألف من ساعتين في اطار واحد . دفعت ثمنها كل ما تملك من نقود ، واسرعت الى البيت لتضبط اولى الساعتين على توقيت جنيف ، والثانية على توقيت عدن .

هذه الساعة الفوكنرية تتكثف فيها عقدة القصة في رمزية شفافة . فعائدة التي تسعى وراء هدف أوحد : تطابق شخصيتهـا ووحدة هويتها ، لن يعود لهـا مـن هم الا ان تتمكن من ضبط الساعتين على توقيت واحد : توقيت عدن ، عدن الثورة ، عدن الاسطورة والحقيقة .عدن المتخمة جوعا وفقرا ومرضا وأمية فيمواجهة اوروبا المتخمة تقدما ورفاها وتكنولوجيا . عدن الجنة ، وعدن الجحيم . عدن المزقة الارض الى شمال وجنوب . وبكلمة واحدة : عدن الساعية الى استعادة شخصيتها الانسانية ، مثلها مثل عائدة.

ومن التقاء هذين المشروعين الراميين الى استعادة الشخصية تتولد في الافق امكانية موضوعية لرأب الصدع الذاتي .

وما تؤكده غادة السمان في هذه القصة ، كما في سائر قصص مجموعتها الاخيرة ، هو ان الذات لا تحرر نفسها من اسارها ، من احزانها ، من ازدواجيتها ،بله من انفصامها ، الا اذا وجدت طريقا لها الى الواقع الموضوعي الذي هو قيد الحركة والتغير والتحول .

ان القفزة الكبرى التي حققتها مضامين قصص غادة السمان هي اكتشاف البعد الاجتماعي ، البعد الواقعي ، البعد الموضوعي للتحرر الذاتي .

ولكن حذار من التفاؤل الساذج ! فما الواقع الموضوعي في التحليل الاخير الا التقاء ذوات . وبقدر ما ان الواقع الموضوعيبهذا المعنى ذاتي ، فانه يحمل هو الاخر ، لا محالة ، تناقضه وازدواجيته.

ان الواقعية الوردية ليست حلا وانما مهرب . ليست منفذا وانما فخ . فخ لا يقع فيه الا الثوريون السذج او المبتدئون . وان لم يكن بد من القول بانهحل ، فلنقل انه الحل السهل .

وغادة السمان لا تختار في « الساعتان والغراب » ـ بخلاف قصص اخرى لها (٦) ـ الحل السهل .

وبالفعل ، كان سهلا للغاية أن تجد عائدة الخلاص من ازدواجيتها في حبها لفضل ، احد قادة الثورة فيالجنوب اليمني. كان سهلا للغاية ان تستغني عن ريكاردو ، عشيقها الاسباني ، بفضل العربي ، وأن تقول بينها وبين نفسها :« فضل عربي الاسم .عربي اللسان عربي الوجه . عربي النزق . عربي العطاء ، عربي الثورة الثورة والكفاح والالم » .

لكن هذه الواقعية القومية الوردية، اذا جاز التعبير ، ماكانت لتحكم على القصة الا بالتسطيح محولة اياها الى موعظة قومية .وغادة السمان تنقذ الموقف لا بحملها بطلتها على ان نضيف بينها وبين نفسها ايضا :« انني أهذي .. » فحسب ـ فهذا حل سهل هو الاخر ـ وانما بتوكيدها على ان الازدواجية ليست قدر عائدة وحدها بل قدر الامة جمعاء ، بتوكيدها على ان الازدواجية تنخز كل ذات عربية لا ذات عائدة وحدها ، وعلى ان خلاص عائدة من حيث انها تعاني من ازدواجية الانتماء ممكن ولكن الخلاص غير ممكن ،في الوقت الراهن على الاقل ، من حيث ازدواجية الانسان والانثى في المرأة .

لقد احبت عائدة فضلا مناضلا وقائدا ثوريا وجسرا الى تجاوز قوقعة الذات وتناقضاتها اللامتناهية . ولكن ها هي ذي تكتشف أن التناقض ينخر فضلا هو نفسه لا من حيث انه مناضل وانما من حيث انه رجل . أجل ، ان فضلا عربي الثورة والكفاح والالم، ولكنه ايضا « عربي » النظرة الى المرأة . كان شعور بالعطف قد خامرها أول ما التقته . رأته يسير في الشارع ، يتدحرج خلفه كيس اسود هو زوجته : « كغريبين ارغما على المشي على رصيف واحد بالصدفة » .. وقالت بينها وبين نفسها :« كم هو مروع ان يكون مناضل كهذا وحيدا ، عاريا من نصفه الثاني » .

أجل ، ان فضل الذييعيش في الفكر مع الثورة والبندقية وماركس وغيفارا و « المسيح الذي أعيد صلبه » لكازانتزاكيس ، مضطر الى ان يعيش على صعيد الواقع والعلاقة الانسانية الاكثر صميمية ، علاقة الرجل بالمرأة ، لا مع امرأة ، لا مع انسان ، بل مع كيس اسود . ان فضل لا حيلة له بهذه الازدواجية ، لانها ازدواجية الوطن الذي اختار أن يصنع الثورة فيه . لكن هذه الازدواجية المنقوشة في واقع كل « رجل » عربي حتى لو كان ثوريا كفضل ، هي التي تفتح لعائدة نافذة الامل : انها اذ تتيح له ان يتحرر من ازدواجيته « الموضوعية » تحرر نفسها من ازدواجيتها « الذاتية » . انها ستأخذ من فضل ما لا يمكن لاي رجل اوروبي ان يعطيها اياه : انتماء ومشروع تغيير ، وبالمقابل ستعطي فضلا ما لا يمكن لاي امرأة يمنية أن تعطيه اياه : علاقة انسانية بالمرأة . لكن هنا بالضبط تنتظرها الهزيمة المرة : هزيمتها النوعية لا هزيمتها الفردية ، هزيمة من حيث انها امرأة لا من حيث انها عائدة . وبكلمة واحدة ، هزيمتها المنقوشة في صخر الواقع العربي لا في تلافيف ذاتيتها . ففيما هي تصارع سكرات الموت (لاصابتها بالانفلونزا المدارية) تكتشف أن لفضل زوجة هي غير ذلك الكيس الاسود الذي كان يتدحرج خلفه على الرصيف ، زوجة مثقفة ، مناضلة ، تعمل في التدريس ، لا مجرد انثى حاضنة للاطفال او « رحم يجتر القات والثرثرة والتثاؤب » .

فضل اذن زوج لاثنتين : واحدة محض كيس اسود لانجاب الاطفال وثانية تشاركه افكاره ونضاله الثوري . وفضل يريد عائدة بعد هذا وذاك ان تكون زوجته الثالثة : الاولى رحم متحرك ، والثانية بلا رحم ، والثالثة ، عائدة ، مطالبة بان نكون ثلاث نساء في آنواحد:

« هل تفهمين ؟ المأساة اننا قبل الثورة لم نكن نكتفي بامرأة واحدة . كنا بحاجة الى ثلاث نساء . وها نحن بعد الثورة بحاجة الى ثلاث نساء .. هل تستطيعين يا حبيبتي ان تكوني ثلاثنساء ؟».

وبديهي انها لا تستطيع . لا تستطيع ان تكون اي شيء الا ما هي عليه : امرأة استعادت انتماءها وبعدها الانساني ، وليست على استعداد لان تتخلى عنهما حتى لو كان البديل الوحيد هو الموت .

لهذا تموت عائدة . تموت لانها لا تريد ان تمزقها سياط الازدواجية من جديد . تموت لانه لا مكان لها حتى في ارض الثورة ، لان الثورة في ارضنا ما تزال من صنع الرجال وحدهم .

وغادة السمان لا تدين فضلا ، ولا تدين حتى الرجل ، تكن قصتها صرخة ألم من تناقض عميق يدمغ الواقع العربي حتى في مظهره الثوري ، تناقض لن يجد له من حل في وقت قريب لانه نتاج مئات والاف السنين من حضارة وتقاليد وموروثات لا تترك للمرأة التي تريد نفسها متحررة ومنتمية في آن واحد من بديل غير الموت.

هل ينبغي ان نقول بعد هذا ان غادة السمان متشائمة ؟ ولكن من منا غير المتشائم ؟ لا في سماء المطلق ولا في سماء المجرد ،وانما على ارض الواقع ، ارض الهزيمة الحزيرانية التي ليس في الافق ما يشير الى أنها ستغسل عما قريب ؟

---

(٦) كما في قصتها الرائعة « حريق ذلك الصيف » . ولايتسع المجال هنا لتحليل هذه القصة . واذا بدا في وصفنا لها بانها رائعة تناقض ، فهذا لاننا نعتقد بان هذه القصة كان يجب ان تكتب قبل ثلاثة اعوام او اربعة يوم ساد الاعتقاد بان المقاومة الفدائية هي البديل عن الهزيمة .

قد لا يكون من حق غادة السمان ان تكون متشائمة بالامس ، وقد لا يكون من حقها ان تكون متشائمة في الغد ، ولكن ذلك من مطلق حقها اليوم ، في عام ١٩٧٣ ، العام الذي «نحتفل» فيه بالذكرى السنوية السادسة للهزيمة .

حيدر حيدر والآلهات وراء الرمز

قصة حيدر حيدر ، « الفيضان » ، تنطوي على اكثر من مشروع. فهي تريد ، فيما تريد ان تؤرخ للانسان منذ ان كان الانسان .وهي تريد ، فيما تريد ،أن تؤرخ لازمة سياسية وحزبية محددة .وهي تريد ، فيما تريد ، ان تعيد تخطيط المجتمع العربي من وجهة نظر يسارية . وهي تريد اخيرا ان تؤدي هذا كله بلغة رمزية يفترض فيها ان تنقذ القصة من الوقوع في المباشرة .

قصة « الفيضان » اذن قصة ايديولوجية بكل ما تحمله هذه الصفة من معان . قصة ايديولوجية بالمعنى الايجابي لكلمة ايديولوجيا ، اي من حيث ان الايديولوجيا رؤيا ومشروع لتغيير العالم وايمان بان مثل هذا التغيير ممكن . ولكنها ايضا قصة ايديولوجية بالمعنى المرذول للكلمة ايديولوجيا ، اي من حيث ان الايديولوجيا غشاوة تحول بين الوعي وبين فهم الواقع على حقيقته.

القصة تستغرق ثماني صفحات مرصوصة من « الاداب » ،بيد ان تثمينها وتفكيك رموزها وبيان محاسنها وعيوبها « الايديولوجية » لا يحتاج الى اطالة .

بطل القصة يدعى عبدالله بن انس . وهذه التسمية تكفي وحدها للكشف عن احد المصادر التي يمتح منها حيدر حيدر . فالانسان هو في آن واحد ابن انسان (ابن انس) ومخلوق من مخلوقات الله (عبدالله) . ولهذا بالتحديد نرى ان هناك مبررا كافيا لربط « الفيضان » بالاتجاه الذي بداه نجيب محفوظ في « اولاد حارتنا » واوصله الى ذروته في مجموعة « حكاية بلا بداية ولا نهاية ». بيد ان الفارق هو ان حيدر حيدر لا يترك لنا مجالا لاكتشاف حقيقة شخصية عبدالله بن انس بانفسنا . فتراه يقول من الاسطر الاولى في القصة :« عبدالله الذي مات الان وفي جميع الازمنة الماضية ». وبذلك يكون حيدر حيدر قد دعانا الى اقتحام باب مفتوح . ويتعجل حيدر حيدر بعد ذلك في تلخيص تاريخ الانسان . فاسطورة الثمرة المحرمة يشار اليها بسطر واحد : « كان يعرف الظاهر والباطن وفي هذه المعرفة كان يكمن سر حياته وموته » .

وقصة تمرد الانسان على الله وقتله اياه (في صورة الله — الاب) يلخصها حيدر حيدر بسطر واحد ايضا :« في صباح يوم قائظ طعن عبدالله اباه بفأس حادة في صدغه فقتله ،ثم فر من بيته ولم يعد ». بيد ان التحرر من سطوة الاب الالهي (وبالتالي) من التقاليد ليس هو كل التحرر في نظر حيدر حيدر ، بل ينبغي ايضا ان يستتبعه التحرر من المرأة ، وهكذا يطلق عبدالله بن انس زوجته « ليهيم على وجهه تحت المطر » . وهنا بالتحديد يبرز الوجه المرذول للايديولوجيا : فعبدالله بن انس الذي يصور لنا على انه المتمرد المطلق على التقاليد يقع اسير تقليد هو من اعتى وابشع تقاليد جاهلية التاريخ الانساني : الافتراض بان المرأة قيد ينبغي التحرر منه (٧) .

ولكن لماذا يحطم عبدالله بن انس قيوده قيدا قيدا ؟ حتى يعبر، بطهارة مطلقة ، الى ارض القبيلة ؟ ولكن ما القبيلة ؟ انها رمز مكثف — وموفق — للهدف الذي ينبغي ان يضعه نصب عينيه كل ثائر ومناضل : مجتمع لا طبقي ، مجتمع يجدد هناء المشاعة البدائية ولكن بدون بدائية . واثناء الترحال باتجاه هذه القبيلة ، وبعد «الفيضان» (النوحي) الذي اجتاح الاحلام الطوباوية تفتية طوباويين (وكأني بحيدر حيدر يؤرخ هنا تطور الاشتراكية العلمية او بالاحرى للتطور باتجاه الاشتراكية العلمية) يلتقي عبدالله بن انس بفريق كتبت له واياه النجاة .وبعد طول صراع مع امواج البحر ، وبعد طول صراع مع امواج الرمل في صحراء لاهبة اللظى ، يقترب عبدالله وصديقه من مشارف القبيلة الموعودة .

ولكن من هو هذا الصديق ؟ انه كصديق الصياد الهرم في قصة همنغواي « الشيخ والبحر » . انه منه وليس شخصا منفصلا عنه . وفي القصة اشارات الى انه الجسد بينما يمثل عبدالله الروح. والجسد قد يتعب ويكل ، ولكن الروح لا تتعب ولا تكل . ولئن قيض لعبدالله وصديقه ان ينجوا من الموت غرقا والموت عطشا ،فهذا لان عبدالله كان يحدث صديقه طوال ترحالهما الشاق عن القبيلة وارضها الخضراء الخضراء (كما في قصيدة لوركا) . لكن سرعان ما نستكشف ان هذا الرمز يتحول الى رمز اخر . فعبدالله هو الفكر، وصديقه القوة المجردة ، ومعادلة ذلك لا تكاد تحتاج الى بيان، فعبدالله هو المثقف الثوري ، وصديقه هو السلطة ، هو العسكري، هو المباحثي ، وبكلمة واحدة ، هو استلاب الثورة لذاتها . واذا لم نفهم هذه الحقيقة ما استطعنا ان نفهم كيف يكافىء « صديق البحر والصحراء » منقذ حياته عبدالله بالوشاية والاعتقال والتعذيب .

وهذه ، والحق يقال ، لقطة بارعة من حيدر حيدر ، ولكنها لقطة مجانية . لقطة قد نجد لها تفسيرا على صعيد الواقع والتاريخ السياسي ، ولكننا لا نجد لها تفسيرات او دلالة على الصعيد الفني ، صعيد القصة .

بيد ان هذا كله مقبول ، على الرغم من كل شيء ، لولا النهاية التي اختارها حيدر حيدر لقصته .ففي نهاية القصة تسقط كل رمزية ، تموت كل الرموز ، فاذا بنا وكأننا امام كتاب في الاقتصاد او في علم الاجتماع ، وفي أحسن الاحوال امام مقالة سياسية. ففي محاكمة عبدالله بن انس ، وبعد طول غموض وابهام ، نكتشف ان التهمة الموجهة اليه هي الدعوة الى « استمرارية الحرب ، حرب الطبقات » ، هي فوته عن المسكين بزمام السلطة والقوة الغاشمة : « انهم اشد عداوة لشعبهم من الاعداء الخارجيين . ولا بد من القتال ضدهم اولا . المعركة هنا وليست هناك . لا بد من قهر سلطة الجنود الفاشية اولا » .

هكذا تتغلب الايديولوجيا على البناء الفني ، كما تتغلب افتتاحية الصحيفة السياسية على القصة .

وما دام حيدر حيدر قد خرج بنا عن نطاق القصة ليدخلنا الى نطاق الايديولوجيا ، فان من حقنا ان نسأله على صعيد الايديولوجيا لا على صعيد الفن : هل كان « صديق البحر والصحراء » سيصل الى السلطة التي وصل اليها لولا عبدالله بن انس نفسه ؟ ومن قال ان« صديق البحر والصحراء » كان خائر القوى ، على شفا الموت، لولا ان انقذه عبدالله بن انس ؟ اليس العكس هو الصحيح ؟ اي هل كان في مستطاع عبدالله بن انس ان يفرض وجوده وايديولوجيته لولا القوة الجندية لـ « صديق البحر والصحراء » ؟

وليد اخلاصي ووحدة المثقف

من مواقع معاكسة ، ولكن ايديولوجية بدورها ، يرسم وليد اخلاصي في « قضية الشيخ الواحدي » صورة نخبوية — وانعزالية لوحدة المثقف وعلائيته ومثاليته .

ومن العنوان ، من اسم البطل نفسه ، نستطيع ان نحدد مسبقا

(٧) : في « حفلة سمر » التي تريد نفسها « ثورة دائمة » يقع سعدالله ونوس في المأزق الايديولوجي نفسه : فأول عمل ثوري يقوم به فلاحو المسرحية هو قتلهم لنسائهم ، زوجاتهم وبناتهم ، حتى يتحرروا ويتفرغوا للنضال !!

ما يريد وليد اخلاصي نوكيده : ان المثقف وحيد ، واحدي .

كان ماركس يقول : ان الفكرةتتحول هي نفسهـا الى قوة مادية متى مـا استوعبتهـا الجماهير وتبنتها . ووليد اخلاصي يريـد ان يثبت عكس ذلك تمامـا : ان الجماهير لا تستطيع ان تستوعب الفكرة حتى تتبناها وتحولهـا الى قوة مادية . ومن هنا كتبت علـى المثقف الوحدة والعزلـة ، وبالتالي التعالي ، وبالتالي الموت .

الشيخ الواحدي في قصة وليـد يمثل العقل . اقول يمثل ولا يرمز لان قصة وليـد هي قصـة مجازيـة لا قصة رمزية . ولانالشيـخ الواحدي يمثل العقل فان السلطة ـ الغاشمة ـ تخشاه وتحكم عليـه بالاعـدام . بيـد ان الشيخ الواحدي لا يخاف الموت لانه يؤمن بـان « الموت هـو البداية » . ولكنه حيـن يمنح فرصة لاستبدال حكـم الاعدام بالسجـن المؤبد مقابل استعطافه الحاكم ، يقبل بهذه الفرصة بملء الخاطر ، ولا يجـد مذلة او هوانـا في استعطاف الحاكم .لماذا؟ لانه سيغتنم هذه الفرصة لكي ينقل الى الاخريـن افكاره . ان موتـه لن يفيد احدا ، ولكن بقاءه على قيد الحياة ـ ولو سجينا ـ يتيـح لـه ان يلقـن افكاره لزملائـه في السجـن ، وبذلـك يضمن استمرار القضيـة وعدم موتهـا .

وبالفعل يلتقي الشيخ الواحدي في الزنزانة بسجين قضى فيهـاعشر سنـوات ، ولم يبق لـه سوى اسبوع ليستعيـد حريته . هذا السجين اذن حيوان مخبري ممتاز . وفرحة الشيخ به كفرحـة من وجد كنزا ، لانه اذا نجـح في خلال اسبوع منالزمن في ان ينقل اليـه مبادئه وافكاره تكـون الرحمـة التي اذل نفسه ليطلبهـا من الحاكم قد اثمرت على خير وجـه .

وينصرف الشيخ الواحدي الى تعليم السجين معنى العقلوكيفية التفكير ووظيفـة المنطق في الوصول الى اللب من الاشياء . فالعقلفاس. وبهذه الفاس يهدم مـا يمنع عنه الحياة والحريـة ونـور الشمس ، ويبني مجتمع الغد الامثل . وكان السجين يسمع هذا الكلام بشغف ، ثم راحت دموعـه تتساقط ، واخيـرا طفق يبكي كالاطفال . وهتف الشيخ الواحدي بينه وبيـن نفسه : « الهذا الحد يمكـن للمنطـق ان يؤثـر ؟ »..

لقد انتصر الواحدي اذن على الحاكم . هذا ما قـد يتبادر الـى الذهن . لكـن وليـد اخلاصي يخبىء لنـا المفاجاة حتى الاسطـر الاخيرة . فحيـن يسال الشيخ الواحدي السجين عن سبب بكائه ، يجيب هـذا : « وانت تتكلم .. وانت تحدثني عـن كل شيء يا شيخي .. وانت تهز راسـك بثقة ، تذكرته ...

ـ من تذكرت ؟

ـ لحيتك السمحة يا شيخي ، ذكرتني بلحيـة التيس الوفيالذي كـان يلازمني ايام حريتـي .

هذا اذن كـل مـا استطاع السجيـن ان يستوعبه من كـلام الشيخ عن العقل . لحية تيس . وهذه نكتة لا يملك الشيخ حيالهـا الا ان يرفع صوته مناديـا الحاكم كالمسعور :

ـ اسحب طلب الرحمـة . اطلب اعدامي . لا رحمـة بـي الا باعدامي . الموت لي . اقتلوني .

هكذا تنتهي قصـة وليد اخلاصي . القصة ـ النكتة .المضحكة ـ المبكية . اي تنتهي على هذا النحو : الموت اهـون على المثقف مـن ان ينقل الى الاخرين افكاره ، والموت اسهل عليـه من ان يؤثـر عليهـم بمبادئـه .

لهذا كـان الشيخ واحديا . واحديا عاش وواحديا يموت ، يتلظى بيـن ناريـن : نـار السلطة الغاشمة ونار غباء الجماهير .

ان وجها يائسا لوليد اخلاصي ـ وان يكـن ساخرا ـ ابرز فـي هذه القصة . والسخرية على كل حال اللغـة الوحيدة الممكنة لليأس اذا اراد ان يتكلم .

ونحـن لا نماري في حق المثقف في ان يكـون يائسا ، ولا فـي حقه في ان يكـون ساخرا : يائسا من نفسه ومن الاخرين ، ساخـرا من نفسه ومن الاخرين .ولكن مـانماري فيه هو حقه في ان يكـون نخبوي النزعـة .

وقصة « الشيخ الواحدي » تعاني ، بعـد هذا ، مـن تناقض جذري : فاذا كان صحيحا ان المثقف لا يستطيع ـ وربمـا لا ينبغي ـ ان يصل الى الجماهير ، فـماالداعي لان تهابه السلطـة وتحكم عليـه بالاعـدام ؟

ان نقطـة انطلاق وليـد اخلاصي بالذات تناقض نقطة وصوله : فلو كـان المثقف وحيدا فعلا ، جسور الاتصال بينـه وبين الجماهير مقطوعة ، لما كـان شكل خطرا على احد ولما احتاجت السلطة الىاعتقاله ومحاكمته وادانتـه .

لهذا نقول : ان « قضية الشيخ الواحدي » ليست من جيد قصص وليد ، ولعلها من اردأها ، مع علمنـا الاكيد بان جيد وليد اكثـر بكثير مـن رديئه ، ومع علمنـا الاكيد ايضـا بان وليد ساهم فـي تطوير القصة العربية من حيث الشكل مساهمـة لا تنتقص من قدرها النكتة التي اسماها « قضيـة الشيـخ الواحدي ».

جـورج سالم ووحدة المـوت

يقدم جورج سالم بدوره برهانا على ما يمكـن ان يصل اليه قاص مصمم على تجاوز نفسه . فبيـن مجموعته الاولى « فقراء الناس » من جهـة ، وبيـن مجموعته « الرحيل » ثم القصص التاليـة اوا ومن بينهـا قصـة « الفندق الكبير » المنشورة في عدد « الاداب » الخاص من الجهـة الثانية ، فارق نوعي يكـاد لا يقاس . ولعلي لو اردت ان الخص تطـور جورج سالـم لقلت انـه القاص الذي اكتشف ما يريد ان يقولـه للنـاس .

ان الموضوعـة الكبرى فيقصص جورج سالم الجديدة هيالموت: وحدته ، وحشته ، قسوته ، الامـل الذي يحمله للانسان بالخلاص وربمـا ايضـا بالهلاك .

و« الفندق الكبير » لا تخرج عن هذا الخط . ففي ابهاء الفنـدق الكبير (الدنيا) تدور فصول مسرحية (الموت) على مسرح بلا ديكور، منصته فارغـة ، والمتفرجـون غير حضور . انه عري الموت بكل في ما في كلمة « عري » من معنى. وما يأسرنـا في قصـة جورج هـو ان اسلوبه ، كموضوعه ، يكـاد ان يبلـغ كمـال العري . والقصـة بعد هذا علـى درجـة عالية من الترميز ، ومن هنـا كـان احساسنا بتعدد ابعادهـا . بيـد ان جورج سالم يقترف ، على حـد تقديري ، خطيئة فادحـة في الاسطر الاخيرة من القصة .فهـو يقطع فجـأة عملية الترميز ليجعلنـا نحضر وجهـا لوجه سيرورة الموت البطيئـة بالسموم التـي يفرزها عنكبوت اسود كبير الحجم له عشرات الارجل . ان هـــذا العنكبوت ، وان يكـن يصلح في ذاته لان يكـون رمزا ـ نشاز فيالقصة ولا مكـان له فيهـا ، تمامـا كمـا ان وجوده فـي الفندق الكبيـر الفخم المتالق بثرياته ورخامه نشاز وفي غير مكانه .

بقي ان نشيـر الى استخدام جورج لضمير المخاطب فيالقصة. انه في مختصر الكلام ـ استخدام رائع . فضميـر المخاطب هنا يؤدي وظيفـة ضمير المتكلم على نحـو يعجز ضمير المتكلم نفسه عن ادائها. ثم ان الاستغناء عـن ضميـر المتكلم بضميـر المخاطب قـد اتاح لنـا ان نشعـر فعلا باننـا امام مسرحية ، كمـا اتـاح للبطـل نفسـه ان يشعـر بانه مجرد ممثل فيهـا .

واخيرا فان استخدام ضمير المخاطب ـ الذي ليس هو فعلابضمير المخاطب ـ قـد خلص القصـة من مازق : فالقصـة التي تنتهـيبموت البطل لا يمكـن ان تروى بضمير المتكلـم بتمامها والـى النهايـة ،

في حين ان استخدام ضمير المخاطب التجريدي يتيح ذلك من دون ان تفقد القصة حرارة الذاتية وداخليتها ومن دون ان تسقط في برودة الـ « هو » وخارجيته .

فاضل السباعي والسذاجة

قصة فاضل السباعي « الصمت والموت » مثال للقصة الساذجة بالرغم من زخم العنوان وتوتره .

وحين اصفها بالسذاجة لا اقصد بها « السذاجة » بمعناها الفلسفي العميق (وهو المعنى الذي يستخدمها به بعض كبار الروائيين العالميين المعاصرين) . انما السذاجة في قصة « الصمت والموت » سذاجة خالصة : سذاجة في الموضوع . في الشخصيات . في الحوار . في كل شيء . في اسماء الابطال بالذات . فالبطل الذي يفترض فيه ان يكون ناقما ، رقيقا ، سالما ، مناهضا للعنف ، يطلق عليه الكاتب اسم « مهذب ابو سلام » ، كما يطلق على نقيضه اسم « ضرغام ».

ولكن نظرا الى أن « ضرغام » هو عنيف المبادىء لا عنيف الافعال ، عنيف الالفاظ لا عنيف الممارسة ، فان الكاتب « يرمز » الى تناقضه هذا بتناقض في اسمه اذ يدعوه « ضرغام أبو سلام » . وبالمقابل فان الجريدة التي تنطق بلسان حزب العنف ، العنف العملي لا اللفظي فحسب ، تسمى جريدة « القوة » .

وما يريد فاضل السباعي ان يقوله في قصته هو أن ثمة تناقضا مطلقا بين المثقف والعسكري او الجلاد او الحاكم او رجل السلطة . فالمثقف مصيره الموت ، سواء أكان من دعاة العنف ام من دعاة السلم ، وموته سيكون على يد رجل القوة .

بيد ان هذا التناقض هو في ذاته تناقض ساذج . اذ اننا مهما بحثنا عن مقولة سوسيولوجية لتصنيف رجال القوة او رجال الدولة او رجال السلطة ، فلن نجد سوى مقولة واحدة : انهم بدورهم من المثقفين .

ان السذاجة في قصة « الصمت والموت » ليست سذاجة فنية فحسب ، بل ايضا ، وفي الاساس ، سذاجة اجتماعية .

ان لفاضل السباعي قصصا أجود من هذه بكثير ، وبخاصة تلك التي يسجل فيها لقطات شعبية آسرة ، وما كان أغناه بها عن « الصمت والموت » التي تريد نفسها قصة فلسفية .

عبدالسلام العجيلي واللغة الواحدة

حين تقرأ لقاص مبرز قصة لم تحدث في نفسك الاثر المطلوب، تراجع نفسك قبل ان تراجع القصة وتضع ذوقك موضع استفهام بدلا من ان تضع مقدرة القاص .

هذا ما كانه شأني مع قصة الدكتور عبدالسلام العجيلي «حديث بلغتين » . فالدكتور العجيلي قاص من خيرة قاصي سورية ، بل من خيرة قاصي العربية . ومع ذلك ، لم يكن لقصته « حديث بلغتين » الاثر المتوقع في نفسي . فلماذا ؟

لانها في التحليل الاخير ، على ما اعتقد ، قصة حديث بلغة واحدة لا قصة حديث بلغتين كما يشير عنوانها .

ولاشرح فكرتي .

ان التناقض في نظر الدكتور عبدالسلام العجيلي ، في هذه القصة على الاقل ، هو تناقض بين العسكر والمثقفين كذلك . وهنا كما في قصة « الصمت والموت » يغيب عن انتباه الدكتور العجيلي ان المقولة السوسيولوجية التي يمكن ان تضم العسكريين تحت جناحها هي مقولة المثقفين ، مثلهم في ذلك مثل الموظفين والاطباء والمهندسين الخ . بالطبع ، انني لا أنكر لحظة التفرد والخصوصية في المهنة العسكرية ، ولكننا لا نستطيع ايضا انكارها في المهنة الهندسية او الطبية او الوظيفية . هذه على كل حال مسألة اجتماعية لا مسألة فنية . ولكن ما دامت قصة « حديث بلغتين» اجتماعية الموضوع والمغزى ، فلا شك في ان صحة الرؤية الاجتماعية لها تأثيرها على المفعول الفني والجمالي للقصة .

واذا ضربنا صفحا عن هذه المسألة ، وجدنا في القصة عيبا اخر ، وهو سذاجتها الى حد كبير . فصورة العسكري في القصة هي الصورة التوفيقية ، الخطاطية ، المتعارف عليها :شهواني، منساق وراء غرائزه ، عملي بالمعنى التحقيري للكلمة ، لا يعرف سوى الاغتصاب في الحب كما في السياسة .

وصورة المثقف هي نقيض ذلك تماما ، وان كانت على نفس الدرجة من التوفيقية والخطاطية : آدمي ، مثالي (بالمعنى المستحسن للكلمة)، وديع ، مسالم الى درجة العجز .

هذه الماهية الثابتة الدائمة ، بله الخالدة لكل من المثقف والعسكري تبرز في موقفهما من ليندا ، ابنة صاحبة البنسيون الذي كانا ينزلان فيه ايام الشباب . فليندا ، وهي كتلة من اغراء وشهوة (٨) ، تعرض جسدها النضر على المثقف فيرفضه بكل انفة المثالي ، بينما يشق العسكري طريقه الى هذا الجسد بكل عنوة وخيلاء . والعسكري بعد هذا لا يكتفي باغتصاب جسد ليندا ، بل يغتصب ايضا السلطة في البلاد ويقف على رأسها دكتاتورا . اما المثقف فمقضي عليه ابد الدهر بالعجز والعنة ، في الحب كما في السياسة .

ونحن لا ننكر ان الدكتور العجيلي كان موفقا في اختيار عنوان القصة وفي التورية به . لكن التورية غير الرمز . وهذه هي نقطة الضعف الجوهرية في القصة . ان « حديث اللغتين » يفترض ان يكون اعمق وابعد مدى من التكلم الفعلي بلغتين . وان يتكلم المرء بالفرنسية عن الحب والنساء ، وبالعربية عن السياسة الوطن ، فهذا لا يجعل من الحديث حديثا بلغتين بالمعنى الرمزي العميق لذلك . صحيح ان الدكتور العجيلي نجح في تورية حديث بحديث ، ولغة بلغة ، لكن لا بد من الاضافة في هذه الحال انه قد ولى منذ زمن ليس بقليل العهد الذي كان يقاس فيه الادب الجيد بالتورية الجيدة.

ونحن لا ننكر بعد هذا ان قصة « حديث بلغتين » كان يمكن ان تكون قصة رائعة ، اي حديثا بلغتين حقا . كان ذلك ممكنا لو ان الصراع بين العسكري والمثقف على جسد ليندا هو صراعهما على دفة البلاد ، لا مجرد صراعين متوازيين . وبعبارة اخرى، كان من الممكن ان تكون القصة رائعة ، اي مشحونة بطاقة عالية من الترميز ، لو أن جسد الفتاة لم يكن مجرد جسد فتاة، بل كان ايضا رمزا وصورة مجسمة للوطن . ولكن الدكتور العجيلي لم يترك لنا مجالا - لسوء الحظ - لمثل هذا التأويل ، وذلك حين أطلق على بطلته اسم ليندا وجعلها ابنة صاحبة بانسيون، مضفيا عليها بذلك صفة الفتاة الاجنبية .

اجل ، ما كان اروعها من قصة لو كانت حقا حديثا بلغتين .

اديب نحوي وتمثيلية فلسطين

« حفلة نهاية السنة » لاديب نحوي قصة اخاذة . ولو كان يسمح للناقد بأن ينقد قصة من القصص ويقيمها في سطر واحد او ما دون السطر ، لاكتفيت بالقول ان « حفلة نهاية السنة »قصة اخاذة .

هي قصة تمثيلية . والتمثيلية عن فلسطين . وما دامت فلسطين

(٨) وهذه ايضا صورة ماهوية ، خطاطية ، للمرأة .

نفسها قد اصبحت ، بفضل الايديولوجيا او الكلامولوجيا العربية ، تمثيلية ، فان اديب نحوي يوفق الى دون ما حدود حين يختار المسرح ولغته اطارا لقصة عن فلسطين ولغة لها .

و« حفلة نهاية السنة » قصة تضحكك وتبكيك في آن واحد. أهي اذن ميلودراما ؟ لا ،بل هي تراجيديا غير قابلة للتمثيل الا اذا حولت الى كوميديا ، في زمن هو بحق زمن التهريج .

« ماذا ستمثلون لنا هذه السنة، يا اولاد ؟ هل صحيح كما سمعنا ، انكم ستحررون لنا فلسطين ، مثلما تفعلون كل سنة؟ ».

سؤال لا يحتاج الى جواب ، لانه جواب نفسه . مثلما لا تحتاج قصة « حفلة نهاية السنة » الى تحليل ، لانها تعطيك نفسها ببراءة ، بطلاقة ، بلا رسميات ، كنكتة ذكية ترغمك على الضحك حتى البكاء .

واديب نحوي ، بعد هذا وذاك ، يملك ما لا يملكه غيره : يملك القدرة على أن يكتب ما يمكن تسميته بالقصة القومية . ففي زمن اشهر فيه حتى الشعر القومي افلاسه تقدم « حفلة نهاية السنة» الدليل على أن كل شيء لم يقل بعد وعلى انه ما يزال في الامكان ان يقال ، ولكن شريطة أن تحول التراجيديا كما قلنا الى كوميديا ، والقصة القومية الى قصة قومية مضادة .

زكريا تامر والاعداء

قصة زكريا تامر ، « الاعداء » قصة قومية مضادة هي الاخرى، ولكن في اطار جديد ، جريء ، لم يسبقه اليه سابق .

وزكريا تامر يملك هو الاخر ما لا يملكه غيره : القدرة على تجديد نفسه باستمرار ، حتى بين القصة والقصة .

يروى ان تشيخوف - وكان فتى - حمل قصة له الى استاذه ليأخذ رأيه فيها . فقرأها الاستاذ ثم ردها اليه قائلا : « اختصر ». فغاب تشيخوف مدة ،ثم حمل اليه القصة من جديد بعد اختصارها. فقرأها الاستاذ وردها اليه قائلا :« اختصر ». فاختصر وعاد اليه. لكنه قال له من جديد :« اختصر » . وظل تشيخوف يختصر حتى باتت القصة لا تتجاوز سبعة اسطر. وحينئذ قال الاستاذ : « الان اصبحت القصة معقولة » .

وزكريا تامر يحقق في « الاعداء » حلم استاذ تشيخوف المستحيل في قصة لا تتجاوز سبعة أسطر وقد لا تزيد عن ثلاثة اسطر .

و« الاعداء » تتالف من ست وعشرين قصة ،او بالاحرى من ستة وعشرين « اسكتشا ». ويخيل اليّ ان زكريا تامر متأثر فيها الى حد كبير بتجربته مع ما يعرف في القطر السوري باسم مسرح الشوك . ولكن مع فارق جوهري، وهو ان كل واحدة من هذه القصص الست والعشرين ليست مجرد شوكة وانما قنبلة .

قنبلة . وأنا لا ابالغ . قنبلة تدك دكا كل الكلامولوجيا العربية . قنبلة لا تدع حجرا على حجر قائما في كل البناية الايديولوجية العربية .

ان زكريا تامر في قصته الجديدة فنان التدمير. ولكنه مدمر يعرف حدوده لانه يعرف طبيعة سلاحه : الكلمة . والكلمة لا تدمر ، في مرحلة اولى على الاقل ، سوى الكلمة . وزكريا لا يحيل عالم العرب الايديولوجي الى خراب كي يبني عليه ايديولوجيا جديدة . بل يدمر ولا يدع غير الانقاض والاشلاء .

انه يقطع على الايديولوجيا العربية (السائدة) الجسور كافة . يدمر ايديولوجيا الاخلاق،وايديولوجيا الدين ، وايديولوجيا التقاليد، وايديولوجيا الحكم والامثال والكلم الجامعة المانعة وايديولوجيا الشرطة والعسكر ، وايديولوجيا اللغة ، وايديولوجيا الكلامولوجيا، وايديولوجيا الطائرات (٩) ، وايديولوجيا رجولة الرجال وانوثة النساء . وبكلمة واحدة ، يدمر « الاعداء » ، الاعداء الذين في انفسنا.

ومهما اطلنا التدقيق في القصص الست والعشرين ، فلن نعثر الا على ايجابية واحدة لا غير .. الاطفال . فالاطفال هم وحدهم الذين يستثنيهم زكريا من قنابله لانهم هم وحدهم الذين لم يدخلوا - ويرفضون ان يدخلوا - في لعبة الايديولوجيا .

زكريا تامر في « الاعداء » شاعر . وانا لست من المولعين بالشعر. ولكنني احيي في زكريا شاعر التدمير وشاعر الطفولة معا.

ياسين رفاعية وتاريخية القصة

قصة ياسين رفاعية « الثلج » تذكرنا بان القصة العربية كان لها ما قبل تاريخ ، ومرحلة نمو بدائية ، ومرحلة تطور تاريخي بلغ غايته قبل حوالي عشرين عاما من الزمن .
ومن هذا المنظور وحده يمكن أن تكون قصة « الثلج »مقبولة: لو انها كتبت ونشرت قبل عشرين عاما .

هذا ، بصراحة ،كل ما استطيع ان اقوله عن « الثلج »، لانها كمعظم قصص مرحلة النشوء والنمو والتطور نبيلة العواطف والاهداف ، بدائية التقنية ، ساذجة التعبير ، مباشرة الالتزام .

نبيل المهايني وبلوتو

قصة نبيل المهايني ، « بلوتو » ، قصيرة بسيطة ، لطيفة ، محببة الى النفس لولا انها مضادة للعلم .

وقد يكون من حق الكاتب في الغرب ان يشكو من تضخم العلم. اما في الشرق ، الشرق العربي تحديدا ، فلا يحق للكاتب ، على ما اتصور ، ان يتكلم عن العلم الا ليشكو من قلته وهزاله .

ولو كنت ناقدا من نقاد الغرب لاستعرت قول الناقد العربي: « هذه بضاعتنا ردت الينا !» .

بيد أن لنبيل المهايني ، في خاتمة المطاف عذره : فالقصة مكتوبة في الاصل بالايطالية وموجهة الى جمهور غربي .

ولي اخيرا سؤال : لماذا اطلق نبيل المهايني على قصته اسم « بلوتو » وما معنى هذا الاسم ؟ اله علاقة باسم اله الغنى عند الاغريق بلوتوس ام باله الجحيم بلوتون؟ أتمنى لو يفيدنا كاتب القصة .

جورج طرابيشي

---

(٩) من حيث اننا نسب هزيمتنا قبل ستة اعوام الى الطائرات وحدها .

قصص الكتـاب الفلسطينيين

بقلم نجيب المانـع

كتاب فلسطينيون ؟! اليس الكتاب العرب بعد فقدان سنة ١٩٤٨ جميعهم فلسطينيين بمعنى ان الهاجس الفلسطيني يشدهم اينما توجهوا في سفرتهم الابداعية ، يصاحبهم في اليقظة والمنام والغياب ؟ مهما افترقوا في المكان والمشاعر وحركة العقل والرؤيا التخيلية فانهم يجتمعون على هذه الرقعة الجغرافية من الارض التي تؤرخ وجدانهم ويؤرخون بالارتباط معها مصيرهم وارادتهم وعذابهم وحلمهم . وليس الكتاب العرب وحدهم يحملون الصليب الفلسطيني لوعة وخلاصا ووعدا بالحرية بل الاقتصاديون ورجال النفط والمخططون العسكريون والمجربون السياسيون والمهندسون وكل عربي واع على نحو يزيد او يقل ، كلهم يتظاهرون هذه التظاهرة التاريخية ووجهتهم فلسطين .

فما اعجب هذه الرقعة الصغيرة الواقعة بين البحر الوسيط وصحراء الاردن كيف تنامت بعد اغتصابها واستعصت على الامحاء فصارت حدودها الخليج والمحيط . قصيدة الفخر انشودة للاستعادة وقصيدة هجاء هذه الامة (قباني) محاولة ايقاظ وتنويعات نغمية على اللحن الفلسطيني المتباعد في الصدى ، المقترب ، المخنوق ، الهادر ، المنسي ، المتذكر ، المهمل ، المحتضن ، المتعالي عليه ، المتواضع بازائه الذي تبلغ به نقطة يأس قتالة الى القبر فينتفض ساعة الدفن جسدا يتفجر دما وشبابا ، بصره بعيد وانفاسه حارة .

فلسطين هي جحيم كل عربي ومطهره وفردوسه . في طبقات جحيمها يتلوى الكذبة والمهاذير والمتاجرون والذين فقدوا الصلات مع الانسان العربي والذين خانوا وغدروا والذين تهوروا وغامروا والذين انطووا مع حمقهم وغفلتهم واطماعهم والذين اختنقوا في اقليميتهم ، وما زال بعض العرب اذا صعدوا الى مطهرها ينزلقون احيانا الى الجحيم فيما هم يصعدون بصرهم الى فردوسها حيث لا تكمن استعادة الارض فقط بل تلك الموجه الحضارية الغامرة الفرح اذ تحقق الذات العربية كل ابعاد موجوديتها على ارضية العالم . واذا كان العالم الغافل عن العربي وجودا وحضارة يطوق حبه بسجون الكراهية ، اذا كان العربي لا يطا الان الا فوق صبير حقده الشائك فان في تحقيق الذات العربية عبر الوجدان الفلسطيني ، عبر هذه الرحلة الطويلة في دروب الاحزان والاخفاقات والارتطامات والانزلاقات والاخطاء والتمردات والتجاريب السياسية والانسانية المجهضة ، ان في الوصول الى استعادة الكبرياء المرغة في التراب كشفا عن قارة جديدة ستنعم بها الدنيا .

ولنعد الى قصص العدد التي كتبها فلسطينيون بوصفهم اناسا ولدوا في فلسطين الارض او انحدروا من آباء ولدوا هناك ثم هاجروا عنها كما يهاجر الدم من القلب الى انحاء الجسد في كل ثانية من الحركة والسكون ، من القلق والدعة ، من الخيبة والنجاح .

قصة علي زين العابدين « خميس يموت اولا » نضالية مباشرة ، وحين يتزاوج الادب المتلىء ب « زخات الرصاص » مع المرأة فاننا بازاء صورة امتص عصارتها الاستعمال المبالغ في كثرته : الرومانسية النضالية ، الرجل والمرأة في اتون الحرب ، الحرب التي هي امرأة ، المرأة التي هي تجسيد لارادة النضال ، الحب المتضامن حتى الموت ، كل هذه التراكيب تتجانس حين ننظر اليها من زاوية « الغنائية النضالية » ويصعب على محتوى رومانسي استهلك هذا القدر من الاستهلاك ان يجاد التعبير فيه . ان هناك من يرون ضعفا حتى في رواية همنجواي « لمن تقرع الاجراس » حاصرين الضعف في تجسيد العلاقة بين المرأة والنضال ، ومن دعاها رواية رومانسية لم يجانب الصواب كثيرا ، علما بان النفس في الرواية اطول من حيث الحرية على تناول شخصيات واجواء وعلاقات اخرى تطامن من طغيان العلاقة الحثية على تيار الكتابة . ولسنا بحاجة الى اندريه جيد كي ندرك ان النية الطيبة لا تخلق بالضرورة فنا جيدا . وليس في طاقة النية الطيبة ان تنقذ مقاطع في هذه القصة تجعل من الاشجار كائنات حية بهذه اللهجة التقريرية « كان يدرك ان الاشجار كالناس ، مخلوقات تحس ، تسمع ، تبكي وتحب . لكنها لا تخون . الشجر لا يخون الشجر » . ان في هذا التفاعل مع الطبيعة وهذا الالقاء الحكمي (نسبة الى حكمة) ، هذا الانطاق الساذج لها يهز اركان هذه الاقصوصة هزا لا تقوى معه على الوقوف . بعد الثورة الظاهراتية في الرواية التي اعلن عنها الان روب غرييه وميشيل بوتور وناتالي ساروت ونقاد مثل رولان بازت وموريس بلانشو منذ خمسينات هذا القرن ، اصبح الحديث عن كلام الاشجار ومشاعرها واحساس النهر والحوار مع البيوت والخيول كلاما مبتذلا بل هو في الحقيقة يدل على تصور في التقصي وانعدام اهتمام بالاصغاء الحقيقي لصوت الاشياء . نعم ان للاشياء والحيوانات صوتا ولكنه ليس صوتا بشريا . ولم يكن روب غرييه غير كاشف لذلك لان غالبية الكتاب الجيدين قبله بزمان طويل لم يتحاوروا مع الاشياء ولم يجعلوا الاشياء تتجاوز مع الناس ولم ينطقوا الجمادات ، فاذا احس راسكولينكوف باختناق في غرفته فهو لا يخاطبها ولا تخاطبه ، انها فقط « ضيقة كدولاب » هكذا سيصفها دوستويفسكي وذلك يكفي لجعل عجلة « الجريمة والعقاب » تدور دورانها الرهيب . حين تقف ناتاشا في الشرفة تنظر الى القمر في « الحرب والسلم » واندريه بولكونسكي على مبعدة ينظر اليهما فان ما هزه ليس ما يقوله القمر لان القمر لا يقول شيئا بل تلك العذوبة الفائقة اللطافة التي تتنجس في الليل عن كيان ناتاشا الموجهة وجهها نحو شفافية وصفاء بعيدين .

ولم تجد تجزئة الاقصوصة الى اقسام مرقمة ومعنونة فاذا كانت الغاية ابعاد السرد عنها فان السردية ظلت متصلبة فيها حتى ان المقطع رقم (٥) المعنون ب«الوعد» والقائم على سطر واحد هو « ان نظلا عاشقين حتى الموت للوطن » يتجمد في بطولية تقريرية ساذجة . واذا كانت التجزئة والترقيم (وهما بالمناسبة قد اصبحا موضة لدى كتاب القصة القصيرة عندنا) غايتهما تقريب القصة من الشعر فقد عجزت هذه القصة بالذات عن ان تكون شعرا . واذا كانت الغاية من ترقيم الاجزاء وعنونتها ان يستطيع الكاتب تبديل « المقام » او « المفتاح » النغمي لكل حركة كما يحدث في الموسيقى صعودا وهبوطا ، شدا وجذبا ، تسارعا وتباطؤا ، فان الترقيم هنا لا يحدث اكثر من تفكيك السياق في محاولة للتشبث بالطفرة لعلها تكون موصلة للغاية اكثر مما تستطيعه الخطوات الماشية .

هناك حوار في هذه القصة يجرجرها نحو التكلس والتحجر ، حوار واهن لا يستطيع ان يملأ القالب المتضخم الذي يسكب فيه « واصلت فيما يشبه البكاء : الم تقل انك تثق بي مثلما تثق الاغصان بالجذور » ؟ فبالاضافة الى ان هذه جملة تئز بالكلفة فان جعل الجذور تثق بالاغصان تكرار لما ذكرناه من اسباغ وعي وحياة مؤنسة لما ليس بانسان .

يصل الكاتب في المقطع الختامي نهاية رعب في الوصول اليها منذ السطر الاول وهو ان يجعل الحبيبين يموتان معا تحت وابل من الرصاص وكأني بالكاتب يريد في هذه الخاتمة ان يصف الموت باسلوب سمته العلو على الحدث والمجالدة الساخرة في لقياه من اجل التحرر من المأساوية الحزينة ، ولكنك تقرأ فلا تثيرك قوة التحمل هذه ولا السخرية لان الافتعال واللاواقعية يسدان على القارىء طريق المشاركة :

« سهيلة كانت مفتوحة العينين ... هي تعرف انها لم تمت وانها ليست حية ايضا .. احنوت عيناها عشرات الثقوب ، اطلقوا رصاصا كثيرا على الجدران ، ستغرق غرفتنا تماما عندما تهطل غدا الامطار .

« هل تسمعني ... اصطدمت اصابعها في صدر خميس . مررت اصابعها في حنان بالغ حول حافة الجرح ... بدأت تبحث عن الفجوات الاخرى ، اثنتان ، ثلاث ، اربع ، يا خميس .. حاولت ان ترفع يده لتضعها على صدرها ايضا لكنها لم تستطع ...

وهكذا تنتهي القصة . ان سهيلة وهي تقترب من الموت محتضنة حبيبا قتيلا تفكر لا في جراحها وجراحه وانما بالغرفة « التي ستعرق تماما عندما تهطل غدا الامطار » ولماذا ؟ لانهم اطلقوا رصاصا كثيرا على الجدران ، وعلى القاريء ان يفترض ان السقف اطلقت عليه النيران ايضا وذلك سيكون السبب في غرق الغرفة عندما تهطل الامطار لان الجدران على فرض ثقب الرصاص لها لا تسبب غرقا ، ولم يذكر الكاتب انها اطلاقات مدفع لكي تحدث ثقوبا حقيقية تسبب غرق الغرفة الذي لا يمكن ان يكون احدى هموم جريحة على عتبات الموت الا اذا اراد الكاتب السخرية من الموت والمجالدة في تلقيه الى حد نسيان وجوده في خضم الحب والحرب . ثم اذا كانت سهيلة ستموت بعد لحظات فان جراحها من النوع الذي لا يمكنها من التامل الساخرفي مصير غرفة ستبقى بعدها « حين تهطل غدا الامطار » . انا لم اقتنع بذلك ، وقد يكون الكاتب مقاتلا رائعا وهذا حسبه ، اما ان تكون هذه القصة جيدة او مقبولة فنيا فلا . ان كثيرا من الكتابة عن البطولة يصدق فيه قول همنجواي« وضع شعر مستعار على الصدر » ..

اقصوصة « عازف الارغول » لرشاد ابو شاور لا تقل ضعفا عن الاولى فالفاظها تتململ في مكانها قلقا من عدم ارتكازها على سياق متين ذي دلاله ، والقصة على قصرها محشوة بست اغان مدارها الحب والمديح واللوعة وصيحة الثأر ، وبين هذه المقاطع المعبرة احيانا نعلم ان عازف الارغول عبدالله العفش كان المختار قد باع اباه للانكليز الذين قتلوه وهذا المختار هو الذي يريد ان يزوج ابنه لوطفه على كره منها ، وطفه التي يحبها عبدالله . والمختار الخائن الغادر المغتصب يريد من عبدالله ان يعزف في ليلة زفاف ابنه . قال المختار « يا جماعة وين عبدالله العفش ، ملعون هالوالدين ، من دون ارغوله الفرح مثل المأتم » . الم يكن المختار يدري بحب عبدالله لوطفه فكيف ينتظر اذن منه الحانا تجعل الفرح فرحا هذا على افتراض انه سياتي للفرح ، ام ان المختار يريد من عزف عبدالله اذلاله حتى النهاية بعد ان دفع اباه للموت واجبره على التخلي عن حبيبته واغتصب ارضه . والمختار المتنفذ المتحالف مع اسرة باغية غنية اليس اقدر على احياء حفلةمأمونة « الفرح » من اللجوء الى ارغول عبدالله العفش الذي فيه ما فيه من مطبات ومغامرات ؟ ولا ندري اذا كان عبدالله مجرد بهلول القرية وعازف نايها ام انه الرجل الواعي الذي تقع عليه مسئولية استعادة الارض ، لا ارض القصة وانما ارض فلسطين ! اما انه استطاع ان ياخذ وطفه بعيدا عن العرس فقد فعل ، ولا ندري كيف ، ذلك لان القصة تبدأ بالعرس الذي تتمكنوطفه من الهرب منه بشكل ما ،وتنتهيبعبدالله ووطفه بعيدين عن المختار « وعندما وصلا الى قطعة الارض التي لهما والتي اغتصبت قال لها : ما رأيك ان نرتاح قليلا هنا .. » فنعلم انهما هربا بكل بساطة والقصة فيها احلام واطياف فمنها طلوع طيف والد عبدالله ، كما يظهر لهاملت ضيف والده ، ويقول له :

« المختار دعاني الى بيته ثم بعث للانكليز فجاءوا ، قابلتهم حتى خلصت الذخيرة وعندما وصلوني كنت انزف ، قتلت غدرا ... كنت صغيرا انت ، فلم يكتف المختار بقتلي بل سرق ارضي .. ارضك » .

ويظهر طيف والد عبدالله العفش في المنام لعبدالرحمن مرشد « تعرف يا محمود عليان .. والحكي للجميع ، ليلة امس ، خير والصلاة على النبي ، جاء الي والد عبدالله العفش ـ الله يرحمه في قبره ـ وكان يرتدي ملابس خضراء ولكن الدم كان يسيل من صدره .. كان دمه يشخب مثل دم العنز عند ذبحها .. فتح ذراعيه وقال لي والابتسامة تملأ وجهه : يا عبد الرحمن انت صاحبي .. تعال اخذك بالحضن .. مشتاق لكم جميعا ولكني زعلان منكم .. لماذا سكتم ؟ لماذا قبلتم الذل والهوان ؟ المختار باعني للانكليز .. والذين قادونا خانونا .. دمنا امامكم يا عبد الرحمن ، انه يصيح بكم ان تلحقوه ، والا فقدتم كل شيء » .

اذا كان الكاتب يريد بمثل هذه الركاكة ان يثير حماسة احد فلن يحظى من احد بغير الابتسام اذا كان متساهلا ،هلهذه هيالكتابة المسئولة عن قضية كبرى ؟ ما هذه الاطياف والاغاني والسذاجات والمباشرة الدعائية كانها بيان صحي يقرأ على اميين في قرية بغية حثهم على الاسراع في التطعيم ضد الجدري .

مع يوسف شرورو في قصته « حين يذوب الليل » نصعد من السذاجة والتقريرية الى سفوح وعي يضيء على البعد فتكون اضاءته اكثر انتشارا . نحن هنا مع كاتب يعرف على الاقل ما هي الكتابة الجيدة ، ولشدة معرفته يضل طريقه احيانا في متاهاتها ، فهناك عبارات مثقفة اكثر مما نستدعيه المناسبة « فالضباب ينبح كالبحر » ولا بد من دخول كتاب لكولن واسن ، جبار الفلسفة الصحفية وشيخ اقزام الفكر الحديث ، يقرؤه راوية القصة وتزيد صفحاته على نصف الالف ويكون اسمه « المبهم » ، وهي تفاصيل لا تقدم شيئا للقصة .

واسم راوية القصة « وطن » وهو ينادي في لندن ب « المستر وطن » فاذا كان الانكليز ينادونه باللفظة العربية فما يدرينا انهم يعرفون معناه ؟ الا يكون مجرد لفظة خالية من المعنى لديهم وحينذاك يستوى معه اي اسم اخر ؟ انا على اية حال لم اجد في هذه الرمزية الحادة ، الرمزية التقابلية ، الرمزية الانعكاسية كمرآة ، شيئا مثيرا بل بالعكس وجدت ان حمل الوطن كاسم في متاهات المدن الكبرى يصبغه بصبغة من السخرية فلا يصل به الى جعل القضية تشع هناك بعنفوان بطولي ولا مأساوي ولا ملحمي ، فهل لي أن أضيف انني شعرت بتكليف في ان يدعو الراوية نفسه « وطنا » .

وهناك في القصة شهاب الذي خرج سالما من جرح بالغ بعد ان خصي وبتر عضوه . وقد يستشم من ذلك أن الكاتب يريد ان يدل بشخص شهاب الى الخصاء العربي الراهن . وحينما يقول شهاب « اريد ان انتشي هذا المساء . لاتحد مع البهجة » نشاهد ايماءة الكاتب الشديدة العلانية الى مصير الذين يفقدون الرجولة . ثم نسمع شهاب بعد اقتراب فتاة انكليزية منه « انها ناعمة يا وطن وحارة . لا تدري أن البريق خامد » فهي إذن نشوة مشلولة لا تقف الا على عتبات اللذة وفيها حرقة الحرمان ولا اكتفاء . في المطعم المرقص يقابل وطن وشهاب ستيف المنتمي الى حزب الاحرار البريطاني فيلقي عليهما هذه الزمرة من الجمل التي لا ادري كيف اصف تكلف بلاغتها او تبالغها لانها ملصقه لا بصمغ وانما باللعاب .. هل فكرتم في معنى ما تقومون به الان ؟ انكم تغيرون وجه الارض هناك ، المستقبل باقة ورد ستنالونها . انا اعرف اننا سبب المرض ، انتم تجابهونه باستمرار ونحن في حزب الاحرار الشباب ندفع قواربكم المحملة نحو المجرى .. الخ.. الا يمكن العثور على شخص يؤازرنا بدون هذه الفورة الخطابية في مرقص ؟ في اعتقادي ان الكاتب حقق اخفاقا مدهشا (مدهشا بسبب ثقافته المعروفة) في ان يخلق حوارا من النوع الذي لا بد منه ، اي تلك الكلمات التي تسيل بضرورة السياق وضرورة الموقف وضرورة المكان والاشخاص ، الحوار الذي يعني شيئا لانه لا يحاول بالاكراه ان يعني شيئا وبصورة خاصة لا يحاول ان يعني شيئا متورم الضخامة . ان مشكلة الحوار في ادبنا الحديث لا حدود لها ، فاني اقرأ روايات كتاب بلغوا من الشهرة حدا لا يوصف فاذا بحوار شخوصهم كلمات يظنون انها محفوظة حفظا جيدا في الثلاجه دون ادراك ان التيار الكهربائي انقطع ، فهي الفاظ ليست مجمدة فحسب وانما هي متفسخة . لم اجد في قصة يوسف شرورو سوى اصوات صارخة في البرية التي هي لندن ولا ادري ان كان ذلك هو ما يريد فعلا .

ولنعد لموضوع الحوار . فهمنا ان تراثنا ليس فيه مسرحية ولا رواية ولا ملحمة ولكن فيه حوارا هائلا . لنفتح اي فصل في كتاب « الاغاني » ولننظر في الجانب النثري منه فسوف نرى ان الناس يتحدثون حوارا متقنا ذكيا رائع التركيب والدلالة ، وما يصدق في هذا الكتاب يصدق ايضا على الحديث الذي يجري بين الناس في الكتب التاريخية وكتب التاريخ الادبي بوجه خاص .

قصة « يوميات المواطن سين » ليحيى خلف تحكي حوارا مزعجا بين جد مات في السبعين وهو يلعن حفيده راوية القصة « عليك اللعنة .. صار عمرك عشرين عاما ولا تزال تجهل استعمال البندقية » وسبق لهذا الجد ان « اغوى ثماني نساء وتزوج ثلاثا منهن ، وكان اشجع اهل زمانه في الفروسية واقدرهم على اصابة الهدف ... » وتبقى من الجد صورته المعلقة وهي تظل تحاور البطل تستحبه على شراء بندقية ، وحين يخفق البطل في شرائها يخاطب صورة جده قائلا « لم استطع ان احصل على بندقية » وعند ذلك يقول الكاتب « شعرت ان غضبه قد ازداد وانه بعد حين سيقفز من اطاره ويصفعني فاستمحته عذرا ووعدته بان اكون حفيده الذي سيحصل على بندقية ». لا ادري ان كان الكاتب قد تأثر بانشودة ام كلثوم (من كلمات نزار قباني) « اصبح عندي الان بندقية » المهم ان الراوية يسرق اساور امه ويشتري بها بندقية . واذا ظننت ايها القارىء ان المحاورة مع صورة الجد قد انتهت فانت مخطىء . هل هذا هو ما يدعى بالادب المقاتل ؟ ربما ، غير اني لا اراه ادبا ولا مقاتلا . النهاية (وبالمصرية الدارجة نهايتو) نسمع الجد الذي في الصورة و « ابتسامته خضراء مثل احراش عجلتون » يقول بصوت واثق « حسنا جرب مرة اخرى » وعندها لا بد ان الكاتب تذكر اغنية اخرى لام كلثوم هي « للصبر حدود » فانهى قصته التي فضيلتها الكبرى انها قصيرة جدا ، بتوقيعه سيقول اكثر من واحد ليس هذا نقدا . فاقول وليست هذه كتابة . مرة اخرى « الشعر المستعار على الصدر » .

قصة « القمل » لوليد رباح تروي حكاية التلذذ السادي لدى حراس السجون والمعتقلات . يدخل نزيل جديد الى المعتقل « موزونة كانت خطاه ... هوذا جاء .. ضيف من اعماق التاريخ ، ما اخبار الناس والارض والهواء والشمس .. هل ما زالت تبزغ عند الفجر من المشرق ؟ » فالنزلاء اذن مضت عليهم مدة طويلة جدا . ويكون جواب السجين الجديد « لكل سؤال كما يقولون جواب ... انتم تلقون بحزم الاسئلة في وجهي .. اصمتوا .. تموتون هنا ونخبكم تشرب الامة .. الارض ما زالت هي الارض .. » وبعد هذا الالقاء الجهوري نراهم « خفوا القائه ، ... هنا يستوى الليل والنهار ، والصيف والشتاء » ونعلم ان نزلاء هذه الزنزانة المظلمة يعانون من هرش القمل .. « عادوا يهرشون .. لمع عقب سيجاره عبر كوة الباب الصغيرة .. فوقع العقب الى الداخل .. انطلقوا وتكوموا فوق بعضهم كل يريد الحصول عليه ، وعندما نهضوا اكتشفوا انهم داسوا عليه .. » هل هم ابطال ومسجونون ام مسجونون لا بطوليون ، لا بد انهم ابطال لان « نخبهم تشرب الامة » فاذا كانوا ابطالا فما اغناهم عن الارتماء على عقب سيجاره يلقيه حارس سادي ؟ وكان هذا لا يكفي لاذلال مسجونيه ، لان الكاتب يقول عن حارس اخر « جاء آخر .. نظر عبر الكوة وامسك سيجارة مدها الى الداخل .. قاموا فاسترجعها .. ضحك ببلاهه .. ابتعد قليلا .. جلسوا يهرشون . عاد فمد السيجارة ثانية .. لم يقم منهم احد .. فركها براحته فتطاير التبغ الاحمر نحو الارض العارية .

ــ بامكانكم استعمالها سعوطا . فاذا علمت ان النزلاء كانوا هناك منذ مدة طويلة بحيث يتساءلون اسئلتهم تلك عن الشمس والارض كان على الكاتب أن يكون منطقيا فيجعلهم اولا يعرفون سادية الحراس في الغرائهم العابث ، كما يجعلهم اقدر على الانقطاع عن التدخين (وهل كلهم مدخنون بحيث يتكومون بعضهم فوق بعض بهذه الحركات الشابلنيه (نسبة الى شارلي شابلن) على عقب سيكارة ؟)

في هذه القصة جلد وتعذيب . صحيح ان كل هذا يقع في سجون كثيرة ولكن هل يكفي للتعبير عنه تعبيرا فنيا ان يقول كاتب على لسان القائمين على التعذيب :

ــ حفلة الليلة دسمة .. سنرى كيف يلتصق اللحم بالعصا . »

لقد اصبح الاسلوب الوصفي لا يكفي ، كما لم يعد الاسلوب الرمزي كافيا . فكيف توصف الحقيقة ؟ كيف يقال عن العذاب انه عذاب وعن الاذلال انه اذلال وعن الحق انه حق ؟ ان غالبية الذين يكتبون عن العذاب يعذبون القارىء اكثر من يعذبون ، وغالبية الذين يتحدثون عن المجالدة والصبر والايمان لا يعبرون في كتاباتهم عن مجالدة للغة ولا عن صبر في تقصي ابعاد ايمانهم ولا عن ايمان بحركة القلم بين ايديهم . انهم يكتبون فضلة وزيادة . يكتبون ما كتب مئات المرات على نحو اجود الوف المرات . هل ارتماء المسجونين (وهم ابطال) على عقب سيجارة يرميه حارس سادي يصل الى شيء من العمق والتوتر ما وصلته بضع فقرات مشابهة في رواية مالرو « الوضع البشري » حين يتهافت المسجونون على قطعة السيانيد لينتحروا بها قبل ان يعدموا في قزان الماء المغلي ؟

قصة ابراهيم ابو ناب « اشواق الى الابتسام » ذات تركيب متقن وتدرج جيد من الدعابة حتى التوتر والانشداد والدراما الذكية باشاراتها الى الموضوع الجاد الذي هو الفقدان الفلسطيني ، كل ذلك عبر حوار عذب منساب ، والهذيان الذي يتفلف به ليس سوى وسيلة لتطوير نسيج الشخصيتين الرئيسيتين وهما حسن العمواسي الفلسطيني الذي هو في لندن وايفون التي جاءت من جامايكا لدراسة التمثيل فاخفقت فيه ونجحت بزواج مستعجل مع انكليزي منظم خجول سريع اتخاذ القرارات بدليل انه عرض عليها الزواج لدى لقائهما الاول. ان الفلسطيني يعيش حياة المنفى « الديا سبورا » فليس غريبا ان تقع احداث قصتين في هذا العدد لفلسطينيين يقيمون في لندن .

تتنامى شخصية حسن تناميا مقنعا وقد استطاع ان يجتذب ايفون الجامايكية المتزوجة ذات الطفلين الى محبته ، فهل هذا تعويض اخر عن الفقدان ؟ وكل منهما يجد في الاخر تذكيرا له ببلاده :

ــ ايفون .. وجهك جميل . انه يذكرني بنساء بلادي .

ــ انت تذكرني ببلادي ذاتها .

ــ اتفقنا اذن ... فانت وطني وانا وطنك ...

ــ ان عندي ضعفا تجاه وطني ولكني ارجو الا يستغل وطني هذا الضعف .

ليس كل حوار القصة بمثل هذه النمطية ، فجزء كبير منه اكثر جدة مثل حديثه عن زوال قريته وزوال بلده الى ايفون التي لا تعرف شيئا عن ماساته .

هناك ملاحظات جانبية تتعلق باللغة ، وهي من الاخطاء الشائعة مثل تكرار كلمة « كلما » (وكلما ازدادت ايفون اقترابا من حسن كلماازداد شكها فيما اذا كانت سايفون ستسقط سقوطا او انها ستحرر تحريرا) فلا حاجة الى « كلما » الثانية (وبالمناسبة فان سايفون تعني ايضا البطلة نفسها) . كما ارى ادخال « كم » في غير مكانها المناسب يزداد في كتابات هذه الايام وقد ورد في هذه القصة « كم انا مشفق عليكم . كما انا ارثي لحالكم »

والان ناتي الى جبرا ابراهيم جبرا في المقطع الذي دعاه ب « البحث عن وليد مسعود » من رواية قيد الكتابة . وما دام هذا المقطع جزءا من كتاب فهو لا يندرج تحت « القصص القصيرة » الكاملة بذاتها ، ومع ذلك فلا بد من الحديث عن هذا الرجل الذي ظل اكثر من ربع قرن يكتب مرتفعا فوق كلمات « الموضه » فالخمسينات الوجودية لم تصفع قلمه ولم تستطع الكليشيهات ان تفرق لغته المشمسة ذات الوهج المتوسطي الشهوي . اننا هنا امام كاتب لم يخدع احدا ولم ينخدع بشيء ، بل حمل عبء صحوه وصدقه مع نفسه في كل لحظة مع كل الناس ، موازيا بين المعقول والمحسوس باقتدار العارف وحماسة الحي

ثقافته الواسعة بريئة من التبشير والتبرمة ، في شخصيته كبرياء غير جارحة ولطف لا يصل حد الانسحاق ، جبرا الذكي بدون عنجهية الحساس بلا ميوعة لم اره يتبختر وراء واجهة مدرسة فنية او فكرية ليصرخ بصوت غير صوته ، بل هو لا يصرخ حتى بصوته لانه فنان متمكن من التدرج الصوتي هبوطا وصعودا وربما كان لغرامه بالموسيقى الكلاسيكية تاثير في طاقته على تغيير النبرات والمفاتيح في اسلوبه المعبر ، فمن مقطع شعري الى مقطع آخر عقلاني الى حنين صاف الى تأملات عميقة في الحياة والفكر والفن . ولقد قال بعض النقاد ان حب والت ويتمان للاوبرا كان ذا اثر في تدفق شعره حديثا غنائيا طويل النفس .

في رائعته « السفينة » كتب جبرا البحر المتوسط الذي يشكل قوام موقفه من الحياة والفن . وضوح بلا ابتذال او تبسيط ، شهوية بلا دعاره ، مأساوية خالية من العتمة الجرمانية (ولست هنا اتخذ موقفا من الروح الجرمانية بل احاول وصف ادب جبرا) . هذا البحر المتوسط الذي ترعرعت على شطآنه حضارات غنت ، فيما غنت، الجسد البشري كاعجوبة من عجائب الخليقة ، وجعلت من التوازن وتقابل الابعاد وتماسك التناقضات فلسفة وجود وقيمة اخلاقية معا .

ولماذا لا يغني الجسد ؟ اذا كان شعر ادونيس مثلا نزوعا نحو المطلق في الروح ، معانقه للمجهول في الاعالي ، اسئلة كونية ملتهبة نورا ، اليس هناك متسع لشعر نزار قباني مثلا حيث المحسوس والفريزي ، حيث الرقص الجسدي المنتشي بنار الفريزة والشهوة ؟ اذا كان شعر الاول محررا في مملكة الروح فان شعر الثاني محررا في مملكة الجسد ونحن بحاجة الى كلا الحريتين ، بل الى كل الحريات ، الى كل اساليب التعبير وامزجته ولغاته والوانه وظلاله ، نحن بحاجة لكل فنان يثري بصرنا ولكل فنان يثري بصيرتنا . ليست هناك في اعتقادي قيود الا قيود الجودة ومع الجودة فلتكن هناك حرية في جحيم الابعاد وعلى جميع المستويات الانسانية . اذا كتب شاعر او روائي شيئا جيدا حول اللذه فلماذا نطالبه بان يكتب شعرا حول ماهية الحب وفلسفته ، حسبه ان يبدع فيما بين يديه وحسبنا ان ننظر فيما ينجز لا فيما كان يجب عليه ان يقوله . وهل نطالب المهندس الكهربائي بتفسير الكهرباء اذا احسن ترحيل القوة فانار . وما عدد الذين كتبوا عن ماهية الحب فخلقوا نظرية متكاملة ؟ هذا شكسبير الاجود بين شعراء الدنيا لا تخرج منه بفلسفة للحب وانما بوقائع واحداث مدارها الحب والحب الجسدي بنوع خاص وقد احسن التعبير عنها احسانا معجزا ، بينما نخرج من راسين بنظرة متكاملة عن الحب اعمق مما قدمه شكسبير ولكن ذلك لا يجعل منه الشاعر الافضل لان موضوع شكسبير كل شيء وموضوع راسين شيء واحد ، في اعماله الرئيسية على الاقل . اقول ذلك ردا على من يقولون ان شعر نزار وادب جبرا شهوية بلا حب وماذا يضير اذا كانت الواقعة الحبية معبرا عنها بشكل جيد ؟

جبرا ابن البحر المتوسط لا ينسى قط انه عربي وتذكره لذلك يكمن في انجازه . ان دوره النضالي ليس باليسير ، فان يكون العربي مبدعا ، مضيفا للحضارة ، ناطقا بلغة حية ، واعيا لوزنه فوق الارض ، ما ينفك يعبد الدروب امام قدراته ، واضعا لايقاع جديد في العالم ، هذا في اعتقادي اسلوب اخر من النضال لا يقل عن حمل بندقية . ان امثال جبرا من المبدعين يجعلون الحياة العربية فخمه ومتنامية ومورقة وجميلة . انهم يعطون العربي ثقة بنفسه يجعله يحتضن ما يملك فعلا لا ما ملك او ما سيملك . الطريق الى الاستعادة نهضة عربية جديدة شاملة وهي لم تبدأ بعد بكامل الطاقة والابعاد ، لاننا نؤجل النهضة الى ما بعد التحرر . ونربط فعل النهضة ربطا ميكانيكيا بعملية التحرير ، فكأننا نريد ان نصل قبل الركوب .

ان المقطع المنشور في هذا العدد ينبيء عن قدرة جبرا في الكتابة ويكشف عما تطرقت اليه من سطوع في اللغة وادراك للوضع البشري وتغيير متقن للالوان الصوتية والمفاتيح الاسلوبية . وكلي شوق لقراءة الرواية عند تمامها فان من يكتب « السفينة » تلك الرواية الجيده ، قادر على ان يمنح القراء ما يوازيها ان لم نقل يتجاوزها .

بغداد — **نجيب المانع**

القصص العراقية

بقلم عايدة مطرجي ادريس

يخرج قاريء هذه القصص وعبء ما يثقل على نفسه كأنه الكابوس: ايمكن للواقع الذي يصوره هؤلاء القصاصون ان يكون بمثل هذه البشاعة ؟ ان كل ما في الجو كئيب رقيب ، مشحون بالبؤس . حتى الطبيعة تبدو باكية موحلة ، وحتى سماء هذه البلاد اللاهبة تظهر رمادية شاحبة . انك تفتقد في هذه القصص وجها يبتسم او عيونا تلمع ... والاجساد كلها واهنة ينهشها الجوع والمرض ، والعيون ملتهبة بالرمد الصديدي ،اصحابها يدرجون في ازقة ضيقة مليئة بالمستنقعات وبروائح فضلات الناس والحيوانات المتفسخة . والنفوس كذلك مريضة، يعشش فيها الجهل والاتكال والقناعة او القلق والضجر .

هؤلاء الفنانون الذين يعتبرون في طليعة القصاصين العراقيين ، أتراهم حقا ابناء تلك البيئة الريفية الفقيرة يصورونها في واقعها وحقيقتها ام يفخمونها و « يشوهونها » او « يموهونها » على النحو الذي يتطلبه فن للقصة متطور وأصيل ؟

الحق ان ما ترسمه هذه القصص العراقية يمكن ان يكون صورة لارياف العالم العربي كله وقراه ودساكره وبواديه ، وليس صورة للريف العراقي وحده . فهي اذن ملامح عربية عامة ، يتجسد فيها الانسان العربي في صراعه مع نفسه وقدره وظروف حياته الشاقة وسعيه لاكتشاف ذاته وتحقيق مطامحه . والقصص من هذه الزاوية تتخلص من طابعها العراقي الخاص لتشمل الواقع العربي كله ، بل تتجاوزه احيانا لتشارف « الانسان » بصورة عامة ، الانسان الذي يصارع قوى الطبيعة والاخرين من أجل وجوده وحريته .

ومستوى القصص ، على الصعيد الفني ، مستوى متطور بالاجمال، والتجديد فيها بارز من حيث التشكيل والرؤية القصصية .

وقد توقفت عند اربع قصص بصورة خاصة ، هي قصص محمد خضير وموسى كريدي وعبد الستار ناصر وغانم الدباغ وعبد الرحمن الربيعي .

اما قصة محمد خضير « الصرخة » فمشحونة بالرموز حتى ليخيل اليك ان كاتبها اشبه ببطلها بهلوان السيرك الذي يتأرجح على خط رفيع دقيق يوازن عليه نفسه ، محاذرا احتمالات السقوط في الاشكال. ويتطلب النفاذ الى اسرار هذه القصة جهدا لا يحتمله القاريء المتعجل، لانها خالية من الشخصيات التي يفسر سلوكها نفسيتها ، وتفتقد « الحدث » الذي يقود تطورها . ولعل الكاتب يحاول شيئا من محاولة الرواية الجديدة في طريقة اللاشيء ، تتحدث اليك فلا تقول شيئا ، وتقول اي شيء ، فلا تخطيء شيئا . على ان لدى محمد خضير «شيئا» يتحدث عنه ، ومن أجله يكتب . ان عنده قضية ترهقه ، ونظرة ثورية للحياة تؤرقه ، نظرة تنطلق من معاناة البؤس لتتجاوزه نحو تخوم الوعي والاحتجاج والصرخة . ووعي الكاتب هو الذي ينقذ قصته ، في نهاية المطاف ، من ان تصبح لغزا . وليس مهما أن تفسر هذه القصة، المهم انها نموذج للقصة ــ الجو . فالكاتب يخلق لك جوا مرهفا عامرا بالخيال والشاعرية ، يحاصرك فيه مبدعا عالما له قوانينه الخاصة التي ليس لك ان ترفضها . والوجدان المنطقي المتسلسل يقف عاجزا هنا ، كما يقف ازاء عمل موسيقي ، تحس جماله وتنساب وراء الحانه وان كنت تعجز عن فهمه وفك نوتاته . واي تحليل لهذه القصة ينبغي الا

يتجاوز محاولة لتفكيك الصورة ثم اعادة لتركيبها . هذه اللوحة المتحركة ذات ابعاد مختلفة ، واصوات متعددة وافكار تتزاحم للوصول الى النور . والرمز هو الخيط الدقيق الذي يجمع شتات المشاهد ويوحد بينها ويمنحها رؤية شفافة ربما كانت هي موضع التعجب .

الطبيعة في اللوحة . ممطرة ، والسماء شاحبة رمادية . اطار يتلاءم ويخلق جوا من الكآبة والأسى . الوقت – الموحى به ، بطيء ، متشابه ، مغلق ، فهو اذن مهيأ للثورة .

والحركة تتمثل في سيارة السيرك . وهذه اللوحة تحمل ابعادا متعددة : من الداخل : حيوانات السيرك ومروضها ، او الصندوق او رمز المدينة المغلقة ، المحاصرة . الحيوانات ، رمز الانسان المرهون ، المروض ، ذي الوجه الصلب الصارم ، موجه هذه الحيوانات . الكل يبرع في تأدية دوره ، ولكن الجمهور غائب . والرمز ، هنا ، يشير الى انفصام عالم القيادة عن الشعب . اما العالم الخارجي ، فهو العالم الذي تدرج فيه السيارة . فيه هو ايضا ابعاد متعددة وحركات مختلفة. البعد الاول ، شارع مستقيم (رمز للبلادة والخمول) تكثر فيه برك المياه (او المستنقعات) لا يعترض تلك السيارة سوى رذاذ خفيف يكاد لا يسمع (رمز للخضوع ؟) يلتمع كالابر ويرتطم بزجاج السيارة ويسقط على برك المياه (رمز للجعجعة الفارغة اللامجدية) .

حركة السيارة سريعة ، وتوهم بالانطلاق . ولكن الحركة المقصودة، او الهامة ، بطيئة ، اي الحركة المعاكسة ، ذلك ان الشارع منبسط (او عالم المدينة البسيط ، اللامعارض ، بحكم انه خال . لا احياء فيه وانما هو الواجهة واجهة الرخاء والترف ، والزيف الحضاري) فاعمدة المصابيح تملاه ، كذلك اعمدة لوحات اشارات المرور ولافتات اتجاه الطرق والاسيجة التي تتسلقها احواض الزهور .

البعد الثاني ، يضيق الشارع حتى يبدو في البعيد زقاقا . الحركة تنعكس . السيارة تبطيء ، ولكن الحركة الفعلية ، (التمرد) تقوى . تبرز هنا البيوت ذات الطابق الواحد ، البيوت التي تتعرى و« تنقع » تحت سيول مياه الامطار (الكلمة تنقع للكاتب ، وفيها ايحاء غريب للبؤس وتصوير صارخ للتناقض الاجتماعي بين الواجهة وحياة الزقاق وهنا تبرز قدرة المؤلف في انتقاء الفاظه ذات الزخم في خلق الجو الفني) حين تعبر السيارة ، تنهار تلك المنازل ، فتطفو مع الاشياء المهملة في الشارع فوق سطح المياه . وكلما امعنت السيارة سيرا ، تشعبت في البعيد الازقة وتعددت ، وابطأ سيرها ، ذلك ان عليها ان تزيح كتل الاجر وكتل الطين والابواب والنوافذ وصفائح القمامة. في هذه الازقة ، تحبل النفس ببذور التمرد . فهنا الرحم الاصلح ، هنا ترقد الظلمة ، والفراغ والوحشة ، وتهبط السماء مغلقة رصاصية اللون عكرة .

ولكن السيارة تتابع سيرها . (فالاحتجاج ما يزال بذرة) تجتاز غابة من الاشجار ، وقد امتد عند طرفها نهر واسع . من هذا النهر (الذي تتجمع فيه كل ما تحمله السيول) تخرج الساحرة (البعد الاسطوري للوحة ، وهو بعد يلفها بالشاعرية والخيال والسحر والغموض) تعزف على الناي ، وما ان ينفذ عويله مرتعشا في العمق الموحش حتى تستيقظ الافاعي التي تحيط بجسدها ، ثم تنزلق . ويظل النداء يخترق الاعماق السوداء الصامتة . ولكن الساحرة تظل عند مدخل الغابة لا تتقدم ، والافاعي تبقى متاخرة للوصول الى جسدها بالرغم من تدليها المتوتر نحوه . الاسطورة هنا ، تخلق فكرة القصة . فنداء الساحرة ، او لحن الكرامة الكامن في ضمير الامة ، ما يزال تائها يفتش عن حنجرة ينطلق منها .

ما يزال بعد اللوحة هنا اسطوريا : عملاق داكن اللون يلبي نداء الساحرة ، انه تمثال صلب ، شاهق العلو ، يمد يده للنهر الذي انبثق منه ويحني رأسه نحو الماء من الاسفل ، بينما تمتص الثقوب في قدميه مياه المطر انه هنا تجسيد للبطل الذي يلبي نداء الامة ، منطلقا من عذاباتها ، مستمدا منها ابدا غذاءه .

وعندما تجتازه السيارة ، يقفز التمثال وسط القوارب ، يجمع القوارب المشتتة ثم ينطلق الى الشارع ، ثم يعود الى النهر ، ويختفي وتتابع السيارة طريقها : تعترضها البراميل ، براميل في كل اتجاه بحيث تجعلها تدور لتعود من حيث اتت . ولكن السيارة تصدم هذه البراميل ، لانها براميل فارغة (لعل الكاتب يقصد هنا ، ان الثورة لم تختمر بعد) .

ولكن ، حين تبلغ السيارة نهاية الطريق (الطريق الفضائي) حيث كان حلم العملاق ان يقفز ، حلم غذاءه من عذابات الناس واحلامهم وطموحهم) تصطدم بكتلة صغيرة مكورة ، اخذت تتحرك ، ثم اختفت داخل البراميل . وحين اطلقت السيارة نفيرها خرج من الكتلة التي تشبه طفلا (الكتلة البشرية) صرخة ، فاتضح ان لهذه الكتلة فما .

في البعد العميق للوحة ، عند افقها ، حيث تلتقي السماء بالارض يظهر فم يطفى على اللوحة حتى لا يعود فيها سواه . جوف عميق ، عمق الالم والمسافات الطويلة . وتسمع ، من كل جانب ، صرخات ، تعانق الفم ، وتشكل صرخة واحدة ، هي في نهاية المطاف صرخة الاحتجاج وانتصار الثورة الذي يتجلى في انهزام سيارة السيرك حين تتراجع بوحوشها وتنهار .

ان محمد خضير يؤكد نفسه في هذه القصة – على تعقد رموزها – كقاص مبدع وكنموذج جيد للكتابة القصصية الحديثة .

اما موسى كريدي فهو قاص يشق طريقه بثبات وثقة ، يستلهم الواقع الذي يعيش فيه استلهاما عميقا ، ولا يقل عن محمد خضير قدرة في خلق الجو وفي محاولة البحث عن صيغة للتجديد يجمع فيها بين التحليل النفسي وقيمة الحدث في التعبير عن ذاته .

وما يهمني ان اشير اليه ، غافلة عن ما يمكن ان تثير قصته « غرف نصف مضاءة » من اهتمام آخر ، هو كونها تمثل نموذجا لصراع المثقف في العالم العربي ، وتصور مأساة المفكر الذي يريد ان يرى ، وان يكون شاهدا على عصره ، وان يشير الى المرض الذي يستفحل في كل قطاع يراه ، فلا يجروء على قول الحقيقة ، وان قالها ، كانت الشرطة له بالمرصاد .

يلف القصة جو من القلق والكآبة نتيجة الصراع الحاد في نفسية البطل الممزق بين عالمين : عالم الصحراء ، وعالم الرحيل . فعالم الصحراء وما يتركه في نفسه من ارجاع يمده بالرحابة والخيال والحب. فيه جذور تشده من اعماقه الى الارض التي انبثق منها ، فيشق عليه ان يقتله فيها فيكون عالم الرحيل : هنا الدفء ، والاهل والاصدقاء وايقاع لغة قديمة عذبة . يسقط في رقاع جمجمته مثل قطرات المطر ولكن هنا ايضا عالم الجهل والفقر والمرض والكبت والظلم .

وليس البطل بحاجة الى الرحيل حقا ، فهو يحس الاغتراب في ارضه . ففي خياله ، يتجول رواد الفضاء على القمر ، وتعمر ذهنه كالاسطورة فتاة بلون الثلج . والعالم من حوله مريض ، فقير . فامه ، تحمل في احشائها مرض الفقراء جميعا : كثرة الاولاد . وزقاقه معتم ، وحجرات بيته ضيقة رطبة ، هو يؤمن بالعلم ، ومحيطه ما زال يؤمن بالتعاويذ وينكر الطب . (اخته المشرفة على الموت تداوى بالبخور والصلاة بدلا من استدعاء الطبيب) وهو ، متلهف للمراة ومحروم . يمد عنقه عبر النافذة متلصلصا ليرى جزءا من المراة العانس لا يتعدى ساقيها . وصوتها ، كفيل بان يوقظ حواسه ويستفز جسده . كل ما يثور في نفسه يداويه بان يقلب مجموعة من الصور ويقرأ . وتبدو القراءة هنا ، التعويض النفسي عن الرحيل ، عن الهروب . انه يعيش السأم والضجر والصمت . ولقد عبر الكاتب تعبيرا عن هذا الجو الميت حيث قال « يبدو انها (الذبابة) سئمت الجو فغادرت » . وما يعمق مأساة الرفض لدى البطل ، الى جانب السأم والحرمان ، ومظاهر التخلف الاجتماعي ، وعيه تخلفها . وهذا الوعي هو السبب العميق والحقيقي لمأساته . مظاهر دينية يرى في بعضها مضيعة للجهد

والوقت ، وظلما اجتماعيا يتمثل في ضرب السيد للطفل ، دون ان يجروء احد على الاعتراض . كما يبدو حجز الحريات واضحا بالتهديد بالقتل ان ادلى احدهم بشهادته . ان الصمت ، واغلاق العيون والآذان هو ما يطلب في هذا العالم الذي تكثر فيه الجرائم ، وخاصة جرائم الشرف . وليس التخلف الاجتماعي فقط وانما التخلف السياسي . ففي خيمة الفجر ، يطلق احدهم الرصاص . فيجيب الاخر . وما هي الا لحظات حتى يدوي الرصاص من دون هدف ، ليوهموا انفسهـم بانتصارات غير موجودة . (اشارة عميقة للوضع السياسي الراهـن في بلادنا) ونافع ، يعيش قلقا آخر نفسيا ، قلقا فلسفيا ان صـح التعبير . انه يريد ان « يعرف » ، يريد ان يطرح سؤالا . وتكن «حق» المعرفة ، في مثل هذا الجو المتخلف سياسيا واجتماعيا جريمة . كذلك يريد نافع ان يعيد للكلمات مفهومها الحقيقي ، وشفافيتها وظلالها . ولان نافع اراد ان يكون شاهدا ، ولانه رأى الاشياء كما هي ، ويعطي للافعال مدلولاتها الحقيقية فيفرق مثلا بين « المقتول » و « الشهيد » فقد حيل بينه وبين الرحيل ، بينه وبين حريته ، فاستدعي للتحقق .

قصة ذات بعد اجتماعي وفلسفي تمثل مأساة المفكر المعاصر بحثا عن الخلاص والحرية . ويزيد هذه القصة قيمة انها تقدم ، في بعـض جوانبها ، وثيقة هامة للمجتمع العراقي ، كاشفة عيوبه ، بغية الاصلاح. ومن اهم مزايا القصة ، هذا الصدق الفني في تصوير الصراع ممـا يشد القاريء ويجعله مشاركا في « تفهم » عذابات هذا « المثقف » ومقدرا قلقه من اجل نفسه وقومه .

من هذه الزاوية ، زاوية ان تكون وثيقة اجتماعية تنبعث ايضـا قيمة قصة عائم الدباغ « سكون » انها محاولة جريئة لدخول المجتمع العراقي عبر منظار مثقف تتنازعه اهواء مختلفة يستمدها من رواسب معتقداته الدينية وتقاليده الاجتماعية وتتصارع مع نظرته العلمية وثقافته في موضوع النفس والتطور الفكري .

ويوفق الكاتب الى خلق جو من القلق ينقل الينا همومه ويقنعنا في مشاركته وساوسه . والواقع اني حين عكفت على قراءة هذه القصة في البيت ، كنت وحدي ، وكان الليل يهبط . احسست بالخـوف يعتريني ، وبدأت اصوات مشابهة لما سمعه الكاتب من وشوشات وانين تخترق اذني وانبعث عالم من الرعب ، مليء بالاشبـاح التي غمـرت مخيلتي ذات يوم بعيد من أيام الطفولة يتمايل امامي ويفرض وجوده كواقع لا مجال الى انكاره . ثم سلطت ارادتي وعقلي ، فادركت الـى اي حد يعيش الانسان البدائي في اعماقنا . وتابعت القراءة بشغف لاجد جوابا لهذه الاسئلة التي شغلت فكر الانسان قرونا وما تزال ، كلما انصرف الى ذاته ، تنبعث اشد الحاحا وقوة . ولربما كان هـذا النوع من الكبت القسري الذي يمارسه عقلنا المتمدن على سائر قوانا الحسية ، يجعل هذه الوساوس والتساؤلات المصيرية في الروح والموت والبعث تظل تطلب لنفسها جوابا او على الاقل تطلب لنفسها وجودا وان ظل وجودا لغزا او سرا .

القصة تصوير لبيئة متخلفة اجمالا . فالرق الصديدي ما زال يأكل العين في ضاحية من ضواحي المدينة ، وما زالت التجارة فيها تتم عن طريق المقايضة ، وما زال طرد الارواح يتم بالتعاويذ ضمن علب صدئة !.. وما زالت مجالس الدين تبحث امورا ما ابعدها عن مشكلات الانسان الحاضر . وما زال هذا المثقف ــ بالرغم من جميع ما تكـدس في عقله من نظريات علمية وفلسفية ودراسات نفسية ــ يؤمن باصوات تنبعث من وراء الجدران .

الى جانب القيمة الاجتماعية ، تتمتع القصة بتصوير لجوانب النفس البشرية والفردية منها ، ملمحة بان ليس هناك من حقيقـة انسانية واحدة وتفسير واحد لمشكلة الانسان . وانما لكل امـرىء « حقيقته » وكل يرى حقيقته بمنظاره هو ، هذه « الهو » المؤلفة من مجموعة الانفعالات والاحاسيس والافكار التي تتأثر بالبيئة والثقافـة والمسلك الحياتي والمهني للفرد . فمشكلة الاصوات المنبعثة يراهـا الطبيب النفسي مرضا عصبيا اصاب الكاتب لكثرة قراءته . ودواؤها شراب حلو المذاق . وتراها المومس ، شجارا بين زوج وزوجته ، لان الزوجة الشرعية ليست اقل منها فحشا ، ويراها رجل الدين تدخلا في امور الاخرين وتلصصا ، وتراها المرأة العجوز المتخلفة ارواحا شريرة لا يبعدها الا التعاويذ ، ويراها رجل المخابرات عملا تخريبيا واجهزة ارسال والتقاط للتجسس .

ويلقي الكاتب ، الى جانب تصوير البيئة والنفسية التي تنطبع بها ، الضوء على عيب اجتماعي واضح في حياتنا الا وهو عنصر المبالغة والاعتماد على الاشاعة في تكوين الحقائق الاجتماعية ، بدلا من اللجوء الى الدرس والتمحيص والاحصاء : الانطلاق من البديهيات الاوليـة للطرق العلمية : الرؤية ، والاختبار ثم اطلاق القاعدة . او تخميـن القاعدة ، واخضاعها للاختبار ، بغية تأكيد القاعدة . اما في المجتمع الذي يصفه الكاتب ، وهو مجتمع متخلف فان هذا الحادث الفردي ، التافه ، كان كفيلا بان يجعل الصحيفة المحلية تنقل على لسان طبيب (حتى الطبيب ما زال ابن مجتمعه المريض) انتشار مرض عصابي بين المثقفين ، وكان كفيلا ان « يشاع » في اوساط الفنانين ان احد المثقفين عرض الزواج على مومس لان زوجته هربت مع عشيقها ، وان يخطب بعض ائمة الجوامع فيلقي موعظة مفادها ان المدينة « سيحل بها غضب من الله عظيم .

قصة موحية ، جذابة في سردها ، دقيقة في تصوير ردود الافعال والانعكاسات النفسية وتحمل رؤية ثورية للاصلاح . ولئن كان في بعض هذه العيوب التي ذكرها بعض التضخم ، فذلك لا يتنافى مع الفـن الذي قد يكون « تصعيدا » .

اما اسلوب الكاتب ، فتقليدي ، وليس لديه اية محاولة او هم للتجديد . انه يكتفي بالسرد والتقاط الصور .

وتندرج قصة عبد الستار ناصر « رائحة البيوت » ضمن القصص الاجتماعية في هذا العدد . وهي تعبير عن « رائحة » تنبعث من قرية عاش فيها البطل وصور مأساته فيها ومأساة كونه « واعيا » وسـط مجموعة نخر فيها الجهل كالسوس . اني تنقلت طالعتك رائحة الفقر وحاشيته من ذباب ونمل وقمل وديدان وجثث متفسخة . واني قرأت انتصبت امامك اجسام هزيلة ، ووجوه شاحبة وعيون اكلتها التراخوما، وبطون مزقها الجوع . ان مرض الاجسام ينتقل الى النفوس والعقول ، فلا وعي ولا توهج . واتى جانب الفقر المادي ، تتفشى الرتابة . فليس في القرية اي عزاء . وحتى الزواج ــ المستوى الادنى من المتعة التـي يوفرها الفقر للناس ــ فهو نادر جدا هنا . اما اذا حصل فان عـدد الاولاد يصبح لا معقولا . (اسرة البطل تزيد على العشرين) . ومـع الفقر ، يقوى الاحساس بالجنس ، ــ باعتباره المتنفس الوحيـد ــ وبضرورة ممارسته ، شرعيا كان ام زنى .

نتيجة هذا الفقر ، تولد طبقة مستلبة مرهونة . اهم ميزاتهـا الجهل والقناعة والصبر والاستسلام للقضاء والقدر ثم البحث عـن الطعام باي ثمن حتى يموت الاحساس بالشرف ، فتذهب الضحية الى جلادها دون وعي او احساس بالعار . واذا اتفق لاحد ان يخـرج عن القطيـع .

كانت مأساته . ومأساة القصة يكمن هنا . والكاتب يصور بدقة وباحساس مفعم بالمرارة والاسى هذا « الوعي » الذي تفجر لديه ، وهو ما يزال طفلا .

لقد سقط في نظره اولا المثل الاعلى للطهارة والنقاء والبـراءة المتمثل في الام ، انه يكتشفها وهي تتسلل الى بيت التاجر ــ العشيق. انه يبكي ، ثم يغضب ويثور ويشتم . ولكنه فقير وصغير ومغلوب على امره فثورته لا تقابل الا بالجلد وبسوط التاجر . اليهودي ، مستعبده ومستعبد امه وعشيرته . وحين يكبر الاحساس بالعار لديه ، ويـرى

اخته ، تسير على خطى امها ، والموت يخطف من افرادهم واحدا تلو الاخر ، ونساء القرية يبعن انفسهن ، ينمو لديه شعور الحقد واللعنة ثم تنمو الجريمة في نفسه فيلجأ الى الموت ، المنقذ الوحيد لكي يثبت براءته من كل شيء ، من هذه القرية وقطيعها الجاهل المريض ومن عائلته الملوثة بالعار . ولكن رغبة الموت دفعته الى الاتيان بعمل ما ، انه القتل .

غير ان مرض العشيرة عشعش في نفسها . فما ان قتل اليهودي ، حتى تنادت عائلته ونساء القرية كلها واخته وكل اللواتي من اجلهن قتل، مطالبين بقتله . وهنا تبلغ القصة ذروة المأساة .

وتكمن قيمة هذه القصة في ما تفجره من مرارة وما تكشفه من حقائق ورؤى . ولئن تحدث ابطل عن المأساة التي عرفها - والتي صدقها الواقع الاليم فيما بعد ، اذ انتهكت اليهود الارض العربية، وما هو اهم من عرض انساء - في محيطه الضيق ، عكد المجادي فكان نصيبه الاذلال والضرب والملاحقة من اهله ، فان المأساة اشمل واعم . ان القصة صورة للجهل والغباء الذي يتفشى في حياتنا السياسية ، ان يقتل المناضل بيد امه او اخته ، او عشيرته وهو يدافع عنهما ، ومن اجلهما يرهن حياته للموت ، بدل ان يقتله العدو . لقد رأيت في هذه القصة صورة لتلك الايام التي عشناها مؤخرا في لبنان : فالقارىء يحس بالذنب ، وهو يعيش جو المدن، العابقة برائحة النظافة ، فلا يستطيع ان يتمثل هذا اللون من الفقر المدقع حيث تنحدر البشرية الى مستوى البهيمية ، او يصل الى عمق الثورة التي سوف تتأجج .

اما اسلوب القصة ، فهو تقليدي، يفتقد كل محاولة للتطوير. انها تعتمد على التحليل النفسي للاشخاص والاحداث وعلى التطور الزمني والمنطقي ، وجوها يتطبع بطابع الاسى والثورة . ولكن ذلك لا يمنع ان تكون قصة ذات مستوى .

***

عرفت سعدي يوسف شاعرا ملهما ، وفوجئت به ، في هذا العدد ، يكتب قصة . ولكن ميزة الشاعر تطغى على القصاص . فالشفافية تتمثل في هذا العالم الذي صوره ، وفي تلك العلاقة التي تربط بين الفتاة والشاب : علاقة الحرمان والحاجة الى الحب من اجل الحب . فالعراقي ، القادم من بلاد الحرمان ، يبحث ، كاول هم من همومه في غربته ، عن الحب والجنس . والفتاة ، وان عاشت في محيط متحرر تعيش حياة شخصية مضيقا عليها . فهي ايضا تبحث عن الحب وتتلهف اليه . فالحاجة هي هذا الرباط الدقيق الذي يوحد بين قلبين ، ويعطيه نكهة البراءة والعذوبة .

ان الشاب ينتظر فتاته . وفتاته ، التي تعيش مع امها ،او عمتها في الواقع ، تؤمن لها كل اسباب الحياة المترفة ، من مأوى ومأكل وملبس ولكنها تحس ان الحياة شيء اخر كذلك . انها عينا هذا العراقي الجميلتان ،انها ارتباكه وخجله اذ يراها ، انها نظراته الدافئة . هو لم يعدها بالزواج ، ولكنها مصممة على لقياه ، لمجرد انه ينتظرها ، انه يحب لقاءها حبها له .

مقابل هذا العالم من الصدق والاستقامة في العلاقات الانسانية، من حيث المبدأ - والفاحش - من حيث منظورنا الشرقي للعلاقات العاطفية - ينتصب عالم اخر فاضل - من حيث المظهر - بغي - من حيث المضمون الاخلاقي الصرف . فمدام داي - فاطمة في الاصل - المتزوجة من جندي فرنسي ظلت عشيقته لمدة ثماني سنوات قبل ان تتزوجه - تريد الذهاب الى مكة . ومدام داي هذه - مقتنعة بان دخول رجل الى شقتها امر غير معقول ولا سليم - وابنتها يجب ان تكون ، تبعا لذلك ، فاضلة .

ومدام داي - فضلت البقاء في وطنها الام ، على انها لا تتحدث الا الفرنسية ولا تعاشر الا الاجانب .

صورة يراها الكاتب - من عين السكلوب - وينقلها الينا، موحيا، دون اشارة ، الى الازدواجية في حياتنا ، والى التناقض المريع الذي يسود مجتمعنا ، والى الزيف المتفشي في علاقاتنا ومفاهيمنا .

ولعل هذا الجانب من التصوير الاجتماعي هو الذي يعطي القصة قيمتها ، وكذلك هذا المناخ من الرهافة والشاعرية .ولكن « القصة » ، من حيث المستوى التكنيكي ، ضعيفة . انها بالاحرى حادثة لطيفة ، ناعمة . ولكنها تفتقر الى عناصر الاجادة الفنية للكتابة القصصية فالسرد عادي - وان تميز بالشفافية - وعنصر « الانتقاء » مفقود .(ما علاقة تفصيل حياة ماريتا مثلا في تطوير سياق القصة ؟) ان الكاتب لم يستطع ان يخلق لدينا اي موقف للتعاطف ، او الاحتجاج - مع ان الموضوع مؤهل لذلك ، بل مثالي - فالقارىء يظل - كراوي هذه القصة - غير مشارك . انه في الخارج - شاهدا واعيا ، يرى ويتأمل . يراقب من عين السكلوب ؟ ولئن كان على كاتب القصة الفنية ان لا يتدخل في حياة ابطاله، فليس هذا هو شأن القارىء . ان اول شرط من شروط الاجادة الفنية ان تجعلك ضالعا وشريكا . ومنحازا .

واما « المقهى » قصة عبدالرحمن الربيعي ، فانها تمثل ايضا مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية في مدينة صغيرة ، من العراق وفي مقهى منها . وعلى الرغم من ضيق افق المكان الذي يتخذه الكاتب اطارا له ، فان قطاعا كبيرا من الحياة يتمثل فيها .

اول مظهر ، هو حياة الرتابة والسأم والضجر ولكي يعيش اهل هذه المدينة ، يفتشون عن اتفه المبررات للضحك مثلا . فشوارب السيد « فاهم » هي موضوع تندر . اما احلامهم وطموحهم فتأكلها السنون واقصى ما يصبح همهم انتقاء زوجة ، ووليمة وجرع كؤوس في مقهى.

ومن خلال الوصف الخارجي للاشخاص ، ينفذ الكاتب الى وصف نفسياتهم والى نقد المجتمع . فالسيد فاهم ، بقامته الضامرة ،يبدو علامة للحيف الذي لحق المدينة في عهود الظلم . ووجهه الشاحب يحمل طابع مدمني العادة السرية ، اي الحرمان الجنسي ، والكبت، وقتل الوقت ، يتم في شرب القهوة ولعب الدومينو في المقهى . وليس في المدينة المقفلة سوى دار واحدة للسينما . وما تزال تقدم افلاما قديمة .

هذه الحياة الضجرة ، تولد لدى ابنائها الضيق والوعي، والمساهمة في تحقيق الثورة .

ولكن ، بالرغم من التحرر السياسي الذي يتحدث عنه الكاتب بعد سقوط الملكية ، والامل في بعث حياة جديدة ، فان الفراغ ما يزال سمة هذه الحياة .

الحركة الفنية في القصة بطيئة ، رتيبة ، مملة احيانا .والوصف متأن ، يهتم بكل تفصيل ، حتى التوافه . لربما كان الكاتب يتقصد ذلك بغية المساهمة في خلق جو الرتابة التي يتنفس فيه ابطاله . ولكن من الضروري ، لخلق هذا الجو من الملل ، ان تبعث الملل لدى القارىء ؟.

واما الاسلوب القصصي ، فعادي جدا،وتقليدي في طريقة السرد والحوار والتصوير . وهو يعتمد على الشرح المسهب ولا يترك للقارىء مجال الكشف والايحاء.

واما قصة « التنور » لفؤاد التكرلي ، فقد حيرتني حقا ، بالرغم من ان الكاتب قصاص بارع . ان بطل القصة الذي يتكلم يدافع عن

نفسه في محكمة طالبا تبرئته لانه قتل زوجة اخيه غسلا للعار وثأرا للشرف الذي لوثته المرأة . ولكنه يقدم ثلاث روايات على الاقل عنحادث القتل هذا ، وهي روايات غير متطابقة ، بل قد تكون متناقضة .فأية رواية هي الصحيحة ؟ ام هل تكون كلها مزيفة ومختلقة لان القاتل قد قام بالقتل لسبب اخر ؟.

ان الكاتب يورد تحت قصته عبارة « تخطيطات للدفاع عن النفس غير مكتوب » ولعل هذه العبارة تلقي ضوءا يذهب بالحيرة التي تملكتني بعد قراءة القصة . فبوسعي أن استنتج من هذه العبارة ان القاتل يعد دفاعا عن النفس قبل تقديمه للمحاكمة ، ويتردد هو نفسه بين ثلاثة نصوص يلقيها . وهذا التردد بذاته يوحي لنا بان سبب القتل سبب اخر ، ربما كان اعتداءه على زوجة اخيه باغتصابها ، ثم قتلها خوفا من الفضيحة .. واتهامها بعد ذلك بالزنى تبريرا للقتل .

انني لا أصرّ على ان هذا هو حتما ما قصد اليه الكاتب . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فانها قصة اجتماعية تفضح الزيف والازدواجية، هي ايضا ، وتندرج في المفاهيم الخاطئة لمعنى الشرف في عالمنا العربي ، كما تفضح الكذب والنفاق وتشويه الحقائق .

انني آمل ان يوضح لنا فؤاد التكرلي ، وهو قصاص له تاريخ، ما قصد اليه من هذه القصة ، اذ كان قصده غير الاحتمال الذي انتهيت اليه من غير اقتناع يقيني .

بقيت قصة مهدي عيسى الصقر « جزيئات الهيكل » ، وهيالقصة الاولى التي اقرأها لهذا الكاتب ، ولكني اكتشف فيه فجاة قصاصا عظيما يستحق كل اهتمام وتقدير .

انها قصة انسانية رائعة قصة الكسيح والاعمى هذين اللذين عقدا ميثاقا صامتا على ان يتعاونا في هذه الحياة الظالمة ليقهرا عاهتيهما اللتين تنغصان عليهما الحياة . انهما يعيشان شخصا واحدا ، جسما واحدا يتخذ من الضعف قوة « ما دمنا انا وانت وأحدا لن يتمكن منا احد » وهكذا يتكاملان تكاملا يثير سخرية الاطفال وتسليتهم فيتبعونهما متلصصين ويتمنون لهما الشر بنوع من الماسوشية يجعلهم يحولون امنيتهم الى تجسد حقيقي : يتمنون ان يقتلهما صاحب مزرعة النخيل الذي يحاولان سرقة عذقه ، ويتخيلون فعلا أن دمهما قد سال حقا وهو لم يسل . ولكن هذا التكامل ،في غير رأي الصغار الساخرين ، رمز النضال من اجل حياة افضل ،حتى ولو سلك هذا النضال طريقا يثير الشبهة ، طريق السرقة .غير اننا نتعاطف مع هذين « اللصين » ونحبهما ونتابعهما بحنان ، لان الشحاذة على باب المسجد لا تكفيهما ، فيلتمسان التعويض في سرقة التمر . ويبلغ الكاتب من البراعة في تحبيب هذين الانسانين الناقصين الينا بحيث نعتبر لجوءهما الى السرقة لا رغبة في السرقة بذاتها بقدر ما هو امتحان يخوضانه لعلاقتهما البشرية بالذات ، ولتصميمهما ، او تصميم احدهما على الاصح ، وهوالاعمى، على الا يخون صاحبه الكسيح وعلى ان يظل يحمله على كتفيه يستهدي طريقه بعينيه المبصرتين ، كما يمشي ذاك الكسيح بقدميه هو السليمتين . حتى اذا واجها في بعض مراحل الامتحان خطرا حقيقيا، تخاذل الكسيح ونسب دافع السرقة الى صاحبه الاعمى تجنبا لانتقام صاحب المزرعة ، وهكذا نقض ميثاق الشرف الصامت وخان صاحبه ... وما الذي فعله الاعمى ، هذا الذي كان يحب الكسيح راكبا على كتفيه كما يحب عضوا من اعضائه ، هذا الذي هوى ذات لحظة عند منحدر ، فأحسّ اظافر الكسيح تنغرز في جبهته وسمعه يشهق خائفا .. « وفي الوقت الذي انكفأ فيه الاعمى متمددا على الارض بكل قامته أحسّ بفراغ في مكان ما وكان عضوا من جسده قد بتر فجاة بلا الم . مرت لحظة قبل ان يدرك الاعمى تماما ان الكسيح لم يعد مكانه » هذا الاعمى ، كيف انتقممن خيانة الكسيح له ؟ كل ما فعله، بعد ان حمله ثانية وقد زال الخطر، انه « انتزع الكسيح من فوق كتفيه واجلسه على الارض في شيء من القسوة والاهمال ، ثم اشاح بوجهه (...) قال الكسيح مصالحا دون ان يرفع عينيه عن الارض ، الا تجلس ؟ (...) بقي الاعمى صامتا (...) ثم استدار مبتعدا عن المسجد وعصاه تشق له الطريق امامه .. »

هكذا اذن : ينتزع الاعمى الكسيح من نفسه وقلبه حين ينتزعهالى الابد من فوق كتفيه ، ويشعر انه ، بعد الان ، سيكون وحيدا ، سيواجه الحياة وحده ، بمساعدة عصاه ، هذه التي يجد فيها من الامان والاخلاص ما لا يجد في البشر .

ان هذا التحليل لقصة عيسى مهدي الصقر يقوم كله على استيحاء الاحداث المسرودة بموضوعية وحياد كاملين ، بعيدين عن اي تقرير. فالقصة تبلغ من الشفافية ذروة لا تبلغه كثير من القصص العربية الحديثة ، وترف عليها شاعرية رهيفة لعلها مستمدة من نفسية هذا الاعمى ـ البصير بالذات الذي يعيش في قلبه شاعر محروم يرف بجناحيه في سماء الحنين والاشواق .

ان بامكان الناقد ان يسترسل في تحليل هذه الاقصوصة المدهشة وفي تفصيل المزايا التي ينعم بها هذا القصاص الموهوب، واهمها الايحاء الشفاف والحوار الداخلي « المونولوجي » والصرامة الفنية القائمة على « الضرورة اللغوية » التي لا تحتملالاسهابوالاطالة، وعلى « الضرورة الحديثة » التي تنفي من السرد والوقائع كل ما هو طفيلي لتستبقي ما هو مرتبط بالحدث القائد الى الغاية من غير مباشرة ولا تقرير .

وبعد ، فقد كنت سعيدة حقا بمعظم هذه القصص العراقية ، واود ان اقرر من جديد أن القصاصين العراقيين المحدثين يشاركون مشاركة حقيقية كبيرة في بناء الفن القصصي العربي الحديث على اسس متينة من الاصالة والتجديد .

عايدة مطرجي ادريس

الجهة الأخرى لا تحتلّها العصافير

أخرج من دائرة الاوراق،
وأطلّ على غرف الداخل والمكنون،
وأنا أحمل قلبي بين يديّ ،
وأهرب كغزال مذعور
طارده ويطارده الصيادون
أقرأ فاتحة الشجن العربيّ ،
وأتجه بصدري .
أنظر نحو بلاد الصيف الغائب
لا يأتي الصيف ، وينضج ثمر الحلم ،

ـ الجوع توطّن فينا .
(يهوي الرجل وحيدا نحو القاع، صار له
امرأة فارعة الطول والكبرياء ، وبالثمار
عامر صدرها! كسرت عنق أبيه قبل أن
يتزوجها ، وأنجبت طفلا)
تشرع أبواب الصحراء
يصطف الحرس الملكي شمالا ويمينا
لا ،
قفْ .
لا تعبر
ضوء أحمر .

(الجهة الاخرى لا تحتلها العصافير ،
وصيفها لا يتوهج سنابل ، وليس كل
ما هو برتقالي برتقالا . تعرف هـذا .
والطفل الذي كان طفلا وظلت ملاعبه
وأشياؤه الصغيرة ، وتلك المرأة التي
كسرت عنق أبيه ، وأنجبته ، أدخلها في
جواز سفره وارتحل .)
خطوة أو اثنتان ،
وتنهدّ على عتبة الثلاثين كهلا .. و ..

* * *

التطواف

ـ أ ـ

وجهي يفقد في التطواف كثيرا
وجهي كرة ، والعالم يلهو
وأضيّع ، لكن
من يملك منكم وجهه ؟
فليغرس في عينيّ سبابته ،
من يملك منكم وجهه .

ـ ب ـ

وجهي وطن ، يحفل بالمدن المهزومة ،
والرايات المنكسره
وجهي زهره
تحمل أوراق كآباتي المستتره
يقطفها طفل ،
يلقيها عرض الشارع
وأنا أركض عريانا جائع
يتقاسمني البحر ، وشرفة منزلنا
وسؤالك يوقظ فيّ الصحراء ،
سؤالك ،
يوقظ ،
فيّ ،
الصحراء .

عمان
محمد القيسي

تراث الفكر العربي ودوره في بناء مجتمع حديث

بقلم الدكتور الحبيب الجنحاني

ان المجتمع العربي يمر اليوم بمرحلة تمخض وانبعاث ، وينزع جاهدا الى تبديل الاوضاع ، وقلب الهياكل ، وان هذا النزوع والسعي الثوري لتجاوز مرحلة تاريخية معينة ، والشروع في مرحلة جديدة لها معالمها الواضحة ، وأوضاعها الجديدة ، وقواها الوطنية الطليعية الحاملة لمشعل النضال المتجدد ، الذي تستلزمه المرحلة التي ترنو لها الانظار منذ مدة طويلة ، يتخذ الطابع القومي بمحتواه الانساني الاصيل لانشاء أمة متحررة ، متحدة ، تواقة الى نهضة علمية وتقنية حديثة ، منطلقة في توقها هذا من الجوانب المشرقة الخالدة في تاريخ حضارتها الخصبة ، وفكرها البناء ، وتقاليدها العريقة ، ونضالها الخالد .

ستحاول هذه الدراسة تسليط أضواء على بعض الجوانب من موضوع التراث ، وصلته بالمرحلة التاريخية الجديدة ، فعلاقته بها - اذن - وثيقة ، ويدخل حتما في صميم معطياتها الحضارية .

قد يستغرب البعض أن يعالج الباحثون موضوع الكشف عن القيم التقدمية ذات النزعة الانسانية في تراث الامة العربية ، والانكباب على احيائه والتعريف به ، وهي تخوض معركة حاسمة ضد عدو مثلث : الامبريالية ، والصهيونية ، والتخلف .

ولعل أصحاب النظرة السطحية يرون في ذلك ضربا من ضروب الهروب من الواقع المأساوي الذي تعيشه الامة العربية اليوم .

اننا نفترق مع هؤلاء في الرأي كل الافتراق ، فهو اتجاه تعوز أنصاره النظرة الشمولية لمشاكل العالم العربي اليوم محاولين استغلال الهزيمة العسكرية للتنكر لكثير من قيم الامة العربية . انهم يتغافلون عن الاسباب الحقيقية للهزيمة ، انها أسباب حضارية ، وليست عسكرية .

ان الكشف عن الجوانب المضيئة في تراثنا يمثل - في رأينا - أحد موضوعات الساعة ، وهو وثيق الصلة بمعركة المصير العربي ، وليس هذا ناشئا عن عاطفة اعتزاز بالماضي وتصنيمه ، أو عن عدم وعي بنقاط الضعف الحقيقية في واقعنا ، بل نتيجة تحليل موضوعي لحاضر الامة العربية ، وتبني نظرة مستقبلية هادفة مدركة لمعالم النهضة العربية الحديثة . ان الانسان العربي ، عماد هذه النهضة التي تتحرق شوقا الى انطلاقتها العملاقة ، واكتمال معطياتها الحتمية ، هو وليد الماضي الذي لم يعد موجودا الا عبر حاضرنا الاليم ، وقوة الاندفاع نحو المستقبل .

ان عمر الوعي الذاتي العربي لا يتجاوز قرنا ، وهي فترة لا يحسبها في حياة الشعوب طويلة الا من لم يمسه الوعي التاريخي لتطور المجتمعات البشرية ، وبالرغم عن قصرها فقد كانت مليئة بالاحداث الكبرى ، غنية بالنضال البطولي ، وقد اتسم هذا الوعي الذاتي بسمات بارزة من أهمها :

- محاولة الانتقال من الركود في مظهريه الاقتصادي والاجتماعي الى التفاعل مع العصر .

- انفصل في مرحلة تاريخية معينة بين التحرر الاقتصادي والسياسي ، واعطاء الاولوية للثاني .

ومن الطبيعي أن يحتل التحرر السياسي المكانة الاولى في المرحلة الوطنية .

ومن المعروف أن كل احياء في العصر الحديث قد رافقه بعث للتاريخ القومي ، ونذكر على سبيل المثال فرنسا ، وألمانيا ، وايطاليا ، والتراث ركيزة التاريخ القومي ، ونؤمن انه يعسر علينا جدا الفصم بين التاريخ القومي للامة العربية وتراثها ، فهما ممتزجان لاسباب تاريخية موضوعية بصورة من الصعب أن نجد لها مثيلا في حياة الامم الاخرى .

ولم تشذ اليقظة العربية عن يقظات الشعوب الاخرى ، فقد رافقتها ، بالرغم من مواجهتها الصامدة لمخططات الاستعمار لطمس معالم الشخصية الوطنية ، وبتر الامة العربية عن ماضيها ، والاحتلال المباشر ، محاولات جادة منذ القرن التاسع عشر للعودة الى المنابع الاولى ، ومحاولة التوفيق بينها وبين اليقظة الجديدة ، وهي محاولات ذات نزعة سلفية في بداية الامر ، وقد كان لها الفضل رغم سلفيتها في تجاوز عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، والرجوع الى انتاج الفكر العربي الاسلامي أيام ازدهاره وتفتحه .

ونلاحظ منذ الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ظهور تيارين في موقف النخبة من التراث : تيار سلفي ، وتيار تحرري . وقد غلب الطابع الديني على أصحاب التيارين في اهتمامهم بشؤون التراث .

وقد تبلور موقف النخبة المثقفة من التراث بعد الحرب العالمية الاولى ، ونستطيع ترتيب النخبة حسب موقفها من التراث الى ثلاث فئات :

أولا - فئة السلفيين الذين يرون صورة الحاضر والمستقبل في الماضي ، فرفضوا العصر ، ولاذوا بالتراث وحده يتفنون به فيبالغون ،

وهم متعلقون خاصة بجوانب المحافظة ، ومظاهر النقل في التـراث ، ويتحرجـون من تراث الفكر العربي الاسلامي التقدمـي المتحرر . ولهذه الفئة تأثير قوي في صفوف الجماهير العربية الى يومنا هذا ، وموقفها من الجوانب الثورية المشرقة في تراثنا اكثر تزمتا وتحجرا من موقف السلفيين أيام ازدهار الحضارة العربية في القرون الوسطى .

ثانيا ـ فئة الرافضين للتراث باسم المعاصرة ، فهم يـرون صـورة الحاضر في المستقبل ، وفي المستقبل فقط ، فقد ارتموا في أحضان الآخرين واغتربوا ، وفرضوا على أنفسهم عزلة في الـواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا مـن المركبات وليس لها ـ في نظرنا ـ أي تأثير في صفوف الجماهير خلافا لما يراه البعض . وسنعود اليها بعد حين .

ثالثا ـ فئة الموفقين بين التراث والمعـاصرة ، فزودوا انفسهم بكلا الزادين : الثقافة العربية الاصيلة ، وثقافة النهضة العصرية ، وحاولوا أن يخرجوا منهما ذلك المزيج الذي نطلق عليه « الثقـافة العربية الحديثة » .

وقد قامت هـذه الفئة ، وما تزال ، بدور ايجابي خطير بين صفوف النخبة العربية المثقفة ، حاملة مشعل النضال الحقيقي فـي ايمان وتفاؤل تقف في الصفوف الامامية من معركة المواجهة الحضارية التي تخوضها الامة العربية ، فهي لم تتقوقع داخل ماضي الاجداد ، ولم تبتر الشجرة من جذورها ، مفتخرة « بمعـاصرة » الآخرين محاولة باسم ضرورة تقليد « الموضة » أن تبرر غربتهـا في واقعنا العربي ، وان تخفي انبتاتها .

ان المعادلة بين التراث والمعـاصرة التي حلتها الفئة الثالثـة ليست جديدة ، فقد حلها العرب من قبل حين التقت ثقـافتهم وفيم فكرهم الديني الجديد بعد عهد الفتـوحات بحضارة الساسانيين ، وثقافة الاغريق ، فلم يصب العرب آنذاك مرض مركبـات النقص ، ولذا فلا نعثر على اثر لفئة الرافضين . فلما قبل المعتزلة ، والمتكلمون وفريق من الفلاسفة والمفكرين العرب عامة الثقافة اليونانية ، وحضارات الشعوب الاخرى ، لم يؤد قبولهم لتلك الثقافات الى التنازل قيـد أنملة عن أي شيء من مقومات الثقافة العربية الاصيلة . وقـد كـان للسلفيين تأثيرهم القوي ، ولكن الفئة التوفيقية هي التي كتب لهـا النجاح في النهاية ، ونحن لا نشك انها فئة المستقبل اليوم ايضا .

ولزام علينا ان نشير الى تيار جديد برز فـي كثير من البلدان العربية غداة الحرب العالمية الثانية ، وأصبح لموقفه من التراث شأن في السنوات الاخيرة ، ونعني هنا التيار الاشتراكي ذا الطابع الوطني، فكثير من الناس لا يريدون أن يعترفوا بأن الفكر التقدمي العربي قـد لعب دورا ايجابيا رغم حصـار التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، والضغط السياسي المتواصل ، وقد ساهم في بلورة ملامح الشخصية القومية والفكرية ، ونظر الى التراث نظرة صائبة كانت منطلق موقف عدد كبير من المثقفين العرب اليوم تجاه العناصر التقدمية في التراث .

وأود أن أعود الى الكشف عن بعض النقاط في موقف الفئـة الرافضة ، ولعل تسميتها بالفئـة الهاربة أدق ، فمنطق نظرتهـا الانحداريـة الى التـراث منطق نظري هروبي .

يتستر الرافضون للتراث رفضا مطلقا وراء المعـاصرة والتفتح وادعاء الجديد من بهرجة خلابة ، والثورة التكنولوجية ، وأصبحوا يتخذون من هزيمة الخامس من حزيران حجة على صحـة مزاعمهم . ونجد في صفوف هذه الفئة في العالم العربي تيارا يقف وراءه بعض المسؤولين لتبرير ارتمـائهم في أحضـان العالم الرأسمالي باسم « المعاصرة » ، وحب « التقدم » ، وتيارا ثانيا يناصره بعض المثقفين بادعاء الانضواء تحت لواء بعض النظريات الاشتراكية ، والشعـارات التقدمية في السياسة ، والادب ، والفن ، والاخلاق ، فهم يدعون ـ اذن ـ تمثيل « اتجاه اشتراكي » ، ولكنه في الحقيقة اتجـاه انتهازي تحريفي ، اذ يحاولون من وراء « المعاصرة » ، و « التفتح » تبرير غربتهم الروحية والايديولوجية في الواقع العربي ، وجبنهـم السياسي في الدفاع عن المبادىء الاشتراكية التي آمنوا بها يوما ما ، ثم حوّلوها الى شعارات انتهازية يساومون بها ذوي السلطان الرجعي للمحافظة على امتيازات تجمع بينهم وبين امتيازات الفئات الحاكمة . ويجعلهم موقفهم الشاذ هذا ، ولا سيما في بعض بلدان الغرب العربي ، يسيرون في درب يفترق كل الافتراق عن درب اليسار الوطني ليجدوا أنفسهم في خاتمة المطاف ـ عن وعي ، أو عن غير وعي ـ يسيرون في درب الفئات الحاكمة !!

والغريب ان أنصار هذين التيارين يرفعـون شعار ضرورة تقليد البلدان المتطورة صناعيا في نهضتنا وتقدمنا ، ولكنهم يسكتون عـن الاهتمام الكبير الذي توليه شعوب هذه البلدان لتراثها ، ولم تهمله أيام انطلاقها نحو نهضتها الحديثة ، وهي تعتز بكـل ما يحتويه من غث وسمين . وحين تثار قضية التراث في هذه البلدان فمن أجـل ايجاد أفضل السبل للمحافظة عليـه ، والعناية بشؤونه ، وليس لمناقشة مبدئية لتحديد الموقف منه كما هو الشأن لدى بعض السياسيين والمثقفين في العالم العربي ، فهـل ذلك ناتج عن ان التراث العربي تراث خاص يتسم كله بالسطحية ، واللفظيـة والرجعية كما يزعم البعض ؟ ان كل من يعرف هذا التراث يدرك ان أجدادنا لم يكونوا على صواب مطلق ، ولم يجددوا دائما ، بل أخطأوا ، واجتروا ، كما انهم لم يكونوا مخطئين بالاطلاق ، مجترين في جميع العصور . ولكـن ما رأي هـؤلاء الرافضين في تراث الشعـوب الاوروبية في العصر الوسيط ، وهو تراث يطغى عليه الطابع الديني ، وتسيطر عليه فـي روحه ، ومحتواه ، وذوق مبدعيه الفني الكنيسة بقدستها المطلقة ، وطقوسها الشكلية المعقدة المتحجرة ، وهو مليء بأخبـار الحروب ، ومآسي اضطهاد الشعوب ، وكبت الفكر الانساني الحر ، فجوانبه السلبية ليست أكثر انسانية ، وأشد اشراقا من الجـوانب المتأخرة المظلمة في التراث العربي الاسلامي .

فما هي الاسباب الحقيقية الكامنة وراء موقف الفئة الرافضـة لتراثنا العربي رفضا مطلقا ؟

ان هـذه الاسباب تتباين بتباين الانجـاهات السياسية ، والاختلافات العقائدية ، ولكننا نريد التركيز على سبب رئيسي بارز يتلخص في مركبات النقص التي غرسها بالامس الاستعمار القـديم ، واليوم الاستعمار الجديد في نفوس الكثير من السياسيين والمثقفيـن في العالم العربي ، وندرك خطورة هذا العامل بالنسبة لمعركة المصير العربي حين نلمس تأثيره السلبي الـذي أصبح يتزايد في صفوف الجيل الصاعد ، وهو الجيل الذي سيقود هذه المعركة ، ويحمـل مشعل النهضة العربية الجديدة . ويتسرب هذا الخطر في كثير مـن البلدان العربية عن طريق الغزو التربوي والثقافي تمهد له السبيـل شعارات « المعاصرة » السطحية ، تلك « المعاصرة » التي تكاد تنحصر في مظاهر شكلية ، و« تقليعات » فاشرة رغم بهرجتها .

ويستغل الاستعمار المقنع هزيمة حزيران ، ووضع الانسـان العربي المأزوم اليـوم ليغزو تلـك المركبات ويركزها ، وخاصة في نفوس الشباب العربي ، وهكذا أصبح العالم العربي ـ في نظر الكثيرين ـ سجين عقدة النقص الحضارية .

ان هؤلاء الرافضين للتراث يحاولون الايهام بأن التراث باعتباره مظهرا سياسيا من مظاهر الاصالة متناقض مع المعـاصرة ، وعائق للتقدم ، متخذين من المظاهر السلبية المتحجرة ، في تراثنا العربي ، حجة وبرهانا ، فيبالغون ، ويطالبون بقطع الشجرة من جذوعها ، وهل نستطيـع أن نحكم على طبيعة الغابة بشجرة واحدة ، أو حتـى بشجرات ؟!

ومن البديهي انه ليس هنالك أي تنافس بين الاصالة باعتبارهـا

تعبر عن الخصائص العقلية والنفسية والوجدانية للامة ، والتراث يعد أثرى ينابيعها وأغزرها ، والمعاصرة ، فمعنى الاصالة انه يجب علينا في ضوء تجربتنا الاشتراكية الرائدة ، ومكاسب مسيرة الانسان المعاصر ، ان نصدر عن ذواتنا الحقيقية ، لا عن تجربة غيرنا ، دون انغلاق عن العالم من حولنا ، والمعاصرة أن نعيش تجربتنا الواقعية ، ونقارنها بتجارب الغير في مظاهرها الايجابية والسلبية دون أن نقطع الصلة بتراث الماضي .

ونعتقد ان هذا هو الفهم المنطقي السليم للعلاقة الجدلية بين الاصالة والمعاصرة ، فهما عنصران متكاملان ، وليسا متناقضين ، وأسطع برهان على ذلك تجارب الشعوب التي نريد تقليدها في « معاصرتها » .

ولكن يجب أن نفرق بين المعاصرة باعتبارها « موضة » ، والمعاصرة باعتبارها ابداعا مستمرا ، وعملية جادة صعبة لخلق قيم جديدة أصيلة ، فعوض أن يتنكر دعاة المعاصرة للتراث ينبغي عليهم الاستفادة من الجوانب التقدمية ، والمضامين الانسانية في التراث العربي .

انه حل سهل ان نلقي تبعة الهزيمة على تراثنا ، وحضارتنا متهمين اياها بأنها « حضارة لفظية » ، ومتهمين أنفسنا بأننا شعب يتكلم اكثر مما يفعل دون ان نبحث الاسباب الحقيقية التي تحول بينه وبين الفعل الخلاق .

ان أولئك الذين يرون في التراث ، وفي الذود عن مقومات أصالة الامة العربية من حضارة ، وفكر ، وثقافة ، وتقاليد ايجابية ، وقيم أخلاقية بناءة عائقا عن الالتحاق بركب حضارة العصر ، وقعودا عن النهضة التقنية يفرون من مواجهة المشكل الحقيقي الذي يعرقل مسيرة الامة العربية نحو التقدم والازدهار ، مشكل نظم الحكم في بلادنا ، وما يرتبط بها من مظاهر الجمود الفكري والاجتماعي ، وأنواع التأثير الخارجي سياسيا وفكريا . فما يزال نظام الحكم مشكلة المشاكل منذ بداية اليقظة العربية الحديثة ، فقد شغلت المصلحين طويلا في العالم العربي الاسلامي منذ القرن التاسع عشر ، ثم انتصبت النظم الاستعمارية المباشرة في جل البلدان العربية ، فاختفت قضية الحكم المطلق القهري وأصلاحه ، وقد أصبح الحكم بيد الاجنبي الدخيل ، وبرزت قضية السيادة الوطنية ، والتحرر القومي ، وتلازمت فكرة القومية فيما بعد في الظلم العربي بفكرة الحركة السياسية ، واقترنت بالنسبة لبعض الاحزاب بالعدالة الاجتماعية والمساواة . ومن الطبيعي أن تقترن فكرة القومية بكل ذلك ، ولكن المشكلة تطفح فوق السطح من جديد غداة احراز البلدان العربية على استقلالها السياسي ، وعدم توصلها منذ الاستقلال الى اليوم الى حل لمشكلة نظام الحكم ، وعادت في اكثر البلدان العربية مظاهر الحكم المطلق ، وهنا يتأزم الوضع ويتعقد ، خاصة وقد نجحت اكثر الحركات السياسية في بعث الوعي القومي أثناء مرحلة التحرر الوطني ، وربطتها بالحرية السياسية التي أجهضت غداة الاستقلال ، ففقدت الجماهير حماسها ، ومما زاد الطين بلة ، كما يقولون ، تحجر مرحلة التحرر السياسي ، وعدم تطورها الى مرحلة التحرر الاجتماعي ، وبناء المجتمع الاشتراكي العادل الذي حلمت به الجماهير العربية خلال مرحلة التحرير ، فقد قنطت الجماهير ، وهبّت عليها ريح الملل والفشل ، ولمست بوضوح تنكر غالب الحكام لمبدأ الحرية السياسية ، وفصمه عن الشعور القومي ، وجذوة الحماس الوطني .

وأعتقد انه لولا تحديات الامبريالية والصهيونية للامة العربية ، وشعورها بضرورة التوحد والتكتل لتستطيع مواجهة هذه التحديات ، متناسية قضية الحرية السياسية والديمقراطية ، صابرة على العسف السياسي ، ونير الضيم الاجتماعي لاصيبت فكرة القومية نفسها بنكسات ، ولاصبحت الجماهير تتلقى شعاراتها بدون مبالاة ، لانها أفرغت من محتواها الحقيقي ، وأصبحت لافتات عريضة تبرر بها النظم القائمة في كثير من البلدان وجودها .

وهل نستغرب بعد هذا بروز تيارات سياسية وفكرية في السنوات الاخيرة تقرن نضالها ضد الامبريالية والصهيونية قرنا عضويا بالنضال ضد مظاهر الحكم المطلق في البلدان العربية ؟

ان عدم التوصل لحل هذا المشكل المعقد يمثل عائقا أساسيا يعوقنا عن تحقيق نهضة عصرية ، ولحاقنا بركب المعاصرة الحقة ، وعوض ان نواجه المشاكل الحقيقية المتصلة بقضية نظم الحكم يلتجىء البعض منا الى القاء التبعة على التراث ، والذائدين عن مقومات شخصيتنا القومية الاصيلة .

وقد آن الاوان ان نتساءل عن مفهوم التراث ، وأصنافه قبل ان نحدد موقفنا منه .

ان التراث بمعناه الانساني الحضاري يدخل فيه ما وصلنا على مر العصور والازمنة من الانتاج الآثاري ، والادبي ، والاقتصادي ، والفني ، والاجتماعي ، والعلمي ، والديني ، والاخلاقي ، ويمكن ان نقسمه الى ثلاثة أقسام :

– قسم يتمثل في الثروة الكبرى التي تضمها المتاحف ، ودور الكتب في البلاد العربية والاجنبية من التراث العربي الآثاري ، والفكري ، والعلمي ، والادبي ، والديني .

– وقسم ثان يتمثل في المعالم الاثرية .

– وقسم ثالث تضمه العادات ، والتقاليد ، والفنون الشعبية ، والثروة الموسيقية .

وهذه الانواع مختلفة من التراث يتلقاها الخلف عن السلف كلا متحدا غير منفصل ، فالتراث يتجاوز أيضا فنون الآداب من شعر ، وأدب ، ولغة ، ويشتمل أنواع التراث المذكورة ، ولا سيما التراث العلمي ، والفنون الشعبية .

ان ضروب التراث هذه شكل في نظرنا أسس البناء الهيكلي للثقافة العربية .

وقد تأثر هذا التراث بحركة التاريخ العربي ، وبالصراع الذي عرفته ، ويحمل سمات البشر الذين انتجوه .

ونلح هنا بصفة خاصة على اللغة باعتبارها حافظة التراث ، فازمتها من أزمته ، ومشكلة اللغة هي مشكلة التعبير عن الوجود العربي المعاصر ، والتنكر لها تنكر للتراث القومي ، وبالتالي تنكر لمقوّم حساس من مقومات الامة ، فالبعض يتخذ من مشاكل التراث في الميدان اللغوي حجة للارتماء ، تحت تأثير الغزو الفكري واللغوي في أحضان لغة المستعمر ، فلا يمكن ان نتخذ طريقة استخدام اللغة من طرف المحافظين حيث يميلون الى الابهام ولايجاد حجة للطعن في اللغة القومية . ان الاتجاه التقدمي يستعملها بالطريقة الواضحة المباشرة لتتبع قضايا الحياة ، ومشاكل الواقع العربي والانساني . ونعتقد ان هناك من يرفض التراث لسبب وحيد يتلخص في الاعتراف بالتراث ، وحتى الاعتراف بالجوانب الثورية التقدمية منه فقط ينتج عنه حتما الاعتراف باللغة ، وباحيائها عن طريق الاستعمال اليومي في حياة الجماهير الشعبية . ان تراث الحضارة العربية الاسلامية يضم جوانب ايجابية وسلبية ، ولعل الجوانب السلبية طاغية لطول عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، فما هو نوع التراث الذي ينبغي الاعتناء به ؟

انني أفرق شخصيا بين الكشف عن التراث ، والمحافظة عليه ، وبين الاحياء والنشر ، والتعريف الواسع . ان عملية الكشف والعناية يجب ان تشمل جميع أنواع التراث بمحتواه السلبي والايجابي معا ، فالجوانب السلبية تكشف لنا ايضا عن معطيات معينة ، وتساعدنا على فهم عصور تاريخية طويلة لا يمكن أن نتجاهلها لمجرد انها عصور انحطاط وتأخر . وسيقوم بعملية الكشف هذه ذوو الاختصاص

والدارسون الجامعيون

أما الاحياء والنشر ، واستعمال وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة لتعريف الشعوب العربية بتراثها فينبغي أن يقتصر على الجوانب التقدمية في تراثنا ، لان احياء التراث ليس هدفا في ذاته ، نكتفي منه بالفخر والمباهاة ، وانما عنصر ضروري لفهم حاضرنا ، ودافع لنا في تجربتنا الحاضرة ، ونضال الامة العربية من اجل تحقيق النصر في معركة المصير ، وبناء الغد المنشود .

ولما للفترة الحاسمة التي نمر بها من خطورة وارتباط احياء المحتوى الثوري في تراثنا بها ينبغي اعطاء الاولوية للعملية الثانية ، والاقتصار في مرحلة تاريخية معينة على احياء مضامين معينة يشتمل عليها تراثنا لصلتها المباشرة بسعينا لبناء نهضة حديثة شاملة .

ولا مناص للنخبة المثقفة العربية بالخصوص من تحديد موقفها تجاه التراث . ان موقفها يختلف — دون ريب — باختلاف اتجاهاتها الفكرية ، وبتكويناتها الايديولوجية ، وانتمائها الاجتماعي .

وأود أن أبدي ملاحظتين هنا :

أولا — يجب أن نفصل بين التراث والرجعية الفكرية .

ثانيا — ان التحول السريع وتطور الاحداث بسرعة في المجتمعات العربية منذ الخمسينات بالخصوص جعل موضوع تحديد الموقف من التراث يطرح على المسؤولين عامة ، والمثقفين خاصة بشكل حاد وحتمي ، لان تحديد هذا الموقف مرتبط بالاختيارات القومية والفكرية التي نريد ان نرسمها للنهضة العربية الجديدة ، فبالرغم من انه كان تطورا تاريخيا وسياسيا بالدرجة الاولى فقد فرض على النخبة المسؤولة في العالم العربي أن توضح موقفها من التراث ، وهنا يبرز تياران رئيسيان :

— تيار رجعي محافظ يعيش في الماضي ، ويقدس التراث العربي الاسلامي ، ويجمد عنده فيسقط في عدمية وجودية كاملة فكرا وسلوكا . وهو تيار يؤكد شكلية التراث ، ويضفي عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويحجره ، وينفر الناس منه .

وينبغي أن نعترف بأن لهذا التيار تأثيرا كبيرا في صفوف الجماهير العربية ، فالرجعية تظهر في صورة الحامية للتراث وحدها لدى شعوبنا .

— اما التيار الثاني فهو تيار تقدمي مجدد يختلف في رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيار الآخر ، فهو يسعى جاهدا لتحرير التاريخ والتراث ، وغربلته من مظاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظرة التوثين والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التي تستقطب الجوانب المظلمة البلهاء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذي يريد ان يحول التراث الى تراث شكلي خال من محتواه الانساني .

ان المثقف العربي الثوري يتطلع الى تراثنا فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كل مظاهر الانحدار ، والانغلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما في تراثنا من شك ورفض وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة انسانية رائعة تساعد الانسان العربي على الصمود في مواجهة التحديات ، وتنير سبيله في مسيرته مع ركب الحضارة ، والاسهام في عملية تغيير الحياة ، والتأثير في سير عجلة التاريخ البشري .

ان أنصار هذا التيار يؤمنون انه لن يهز الجماهير العربية الكادحة الا صوت من نضال الاجداد يدعو الى فك الاغلال ، وكسر القيود ، الا صوت يدعو الى العدل والديمقراطية والثورة .

انهما تياران لا يلتقيان ، ولا يمكن ان يلتقيا .

ولكننا نجد مواقف متباينة تجاه التراث داخل التيار التقدمي نفسه ، وهو تباين متأثر بالانجاهات العقائدية ، والمواقف السياسية المختلفة ، ونعتقد انه يمكن ايجاد أرضية واحدة ، والاتفاق على المبادىء العامة رغم الفروق في العقائد تقوية لهذا التراث ، وتدعيما لتأثيره في الجماهير . والخطوة الاولى نحو هذه الارضية البعد عن ((التقدمية المفرطة)) التي تحذف الماضي والحاضر كليا ، وتجمد الرؤية في مستقبل يصبح صنما مقدسا يضحى على مذبحه الانسان ، فالايجابية المفرطة تفقد كيانها بتجاوزها الحد .

ان التيار التقدمي لفهم التراث يجب أن يدعم ، وأن تسخر له وسائل العمل ليتمكن من عملية فرز كبرى لابراز الجانب الثوري الانساني المضيء في التراث ، فهو الجانب الذي يعكس نضال الامة العربية ويمثل أنماطا من وعي الانسان العربي ، ويعبر عن الذات العربية وتجربتها ويحدد مميزاتها ، ويبرز شخصيتها وأصالتها ، فهذا العمل يساعد العقل العربي على التخلص من اغترابه نتيجة النظرة المتحجرة للتراث .

وهذه النظرة العلمية للتراث هي التي تستطيع الثقافة الثورية أن تعتمدها نقطة انطلاق في مسايراتها للمجتمع الجديد ، وفي تأكيدها على التواصل القائم بين الماضي والحاضر والمستقبل .

ان التاريخ العربي حافل باللحظات المضيئة المشرقة ، والعقل العربي لم يقل حرية ومنهجية عن حرية ومنهجية العقل الحديث ، فالشكية الديكارتية المنهجية عرفها الفكر العربي في فترات الحرية الفكرية والحوار . ان الانحطاط لم يبدأ الا عندما قام السيف مقام الاقناع والحوار .

ان الموقف العلمي النقدي من التراث هو الوحيد القادر على ابراز كل هذه الجوانب في تراثنا ، وهو الذي يستطيع المزاوجة بين الاصيل التقدمي فيه ، والجانب الانساني المشع من تراث الغرب على أساس انسجامه مع معطيات واقعنا ، ومعالم شخصيتنا .

وتجدر الاشارة هنا الى ضرورة الحذر في ابراز العناصر التقدمية الثورية في التراث العربي من الوقوع في مساوىء التحجر العقائدي، وتطبيق معايير غريبة عن المجتمع العربي ، واحياء مضامين منعزلة عن اطارها التاريخي والحضاري .

وقد يتساءل المرء — بالرغم مما كتب حتى الآن — عن مدى ارتباط احياء المضامين التقدمية الانسانية في تراثنا ببناء نهضة عربية حديثة .

فقد لمحنا الى قضية تعد من الاوليات المعلومة ، قضية ارتباط الحاضر بالماضي ، والمستقبل بالحاضر ، فالانسان العربي الجديد الذي سيساهم في بناء هذه النهضة الحديثة وليد الماضي ، ولا يستطيع ان ينفصل عنه ، مهما عشق المعاصرة ، وامتزج بها ، وأصبح احد صانعيها ، وتغلب على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية .

ومن الطبيعي أن تعتمد النهضة العربية الحديثة على تراث الماضي ، لانها ليست نهضة علمية تقنية مجردة ، بل نريدها نهضة شاملة متكاملة تهدف الى خلق مواطن عربي حر ، مؤمن بقضاياه ، جدي في أفعاله ومواقفه ، متفائل بمستقبله ، معتز ببلاده وأمته ، بريء من مركبات النقص ، بعيد عن النظرة الشوفينية الضيقة ، والتعصب الاعمى ، انساني في تضامنه وشعوره ، منطقي في تفكيره ، علماني في نظرته الكونية . فهل نستطيع خلق هذا الانسان الجديد ، ركيزة النهضة المنشودة بمجرد رفع شعارات التكنولوجية ولافتات ((المعاصرة)) ، و ((التفتح)) ، وتجاهل المعطيات الحضارية ، والثورة التراثية ؟ فالمعطيات الحضارية هي التي تساهم في خلق الوعي القومي ، وتحديد مميزات المواطن الذي نعمل على تنشئته ، وهل نتصور مجتمعا صناعيا تطغى عليه ظاهرة التكنولوجيا دون وعي حضاري ، وارتباط بقيم وطنية ، ومراحل تطور تاريخي تشمل شتى الميادين .

ان خلق عقلية تقنية ، وبناء نهضة صناعية يتطلب أولا وبالذات روحا جدية ، وحياة متقشفة ، وثقة في النفس ، ولكن الاوضاع التي

تعيشها اكثر المجتمعات العربية بعيدة كل البعد عن جميع مقومات بناء مجتمع تقني متطور ، فليست هناك نظم تربوية دقيقة ناجعة ، واضحة الاهداف ، فعالة في وسائلها ، فهي تشكو مظاهر الحفظ والفوضى في التفكير ، وسيطرة العاطفة .

وقد جعل انتشار روح التشاؤم والقنوط كثيرا من الشباب العربي يفر الى الحياة السهلة ، والركض وراء مظاهر الحياة العصرية في مختلف شكلياتها ، ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان اكثر البلدان العربية لا تملك منظمات شباب تنظم وتحرك هذه الطاقات الجبارة الكامنة في نفوس الاجيال الصاعدة ، فهي منظمات فوقية تؤدي عملا روتينيا بيروقراطيا .

أما الثقة بالنفس فهي تكاد تكون مفقودة ، فليس كل مواطن عربي فهم الاسباب الحقيقية للهزيمة ، وليس في مصلحة كثير من النظم القائمة ان يعرفها ، وما دام لم يدرك الاسباب الحقيقية ، فلا يستطيع ان يتخلص من مركبات النقص ، وهي مركبات يغذوها الغزو التربوي والثقافي . اننا لا نستطيع أبدا ان نشيد نهضة صناعية بشباب يشكو العدد الاوفر منه هذه الازمات ، وأسرع فأقول : انني لا أحمل الشباب مسؤولية هذه الاوضاع التي يعيشها ، ان المسؤولية تتحملها الامة العربية جمعاء ، وقد عجزت منذ ما يربو عن قرن عن حل مشكلة المشاكل في بلداننا ، مشكلة نظم الحكم ، وايجاد أقوم السبل لتعبئة جميع القوى الوطنية الحية الصادقة المؤمنة بالتطور لتشييد نهضتنا .

ولا أريد ان اصل من وراء هذه الملاحظات الى ان مرحلة النهضة التقنية لم تحن بعد في المجتمع العربي ، او اننا عاجزون عن خوض معركتها ، بل اعتقد انه ينبغي على العالم العربي ان يكرس كل طاقاته المادية والبشرية للخروج من التخلف التكنولوجي ، والقضاء على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية ، ولكنني أومن عميق الايمان باننا لا نستطيع ان نتقدم بخطوات جدية ثابتة في هذا السبيل الا في نطاق نهضة عربية حديثة شاملة ، يكون الوعي الحضاري بمظهريه العربي والانساني نقطة انطلاقها .

ومن أجل بلورة الوعي الحضاري العربي ، ونشر ثقافة وطنية اصيلة تلتقي مع المحتوى الانساني الخالد في ثقافات الشعوب الاخرى نحتاج الى التراث العربي بعد تجديد نظرتنا اليه ، وغربلته من جوانب التخلف والزيف ، ومظاهر الجمود والتزمت والقداسة . وقد تمت محاولات جديةفي الثورة على القدسانية واستعادة حرة للتراث، ففي الادب نجد استعادة طه حسين للشعر الجاهلي من خلال معايير الشكية الديكارتية المنهجية . ان نظرة التقديس هي التي ثار عليها طه حسين بصرف النظر عن النتائج التي توصل اليها ، وفيالعشرينات ايضا ظهرت محاولة اخرى « الاسلام واصول الحكم » لعلي عبدالرازق، وفي الثلاثينات محاولة ثالثة « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد ، بالاضافة الى عدد من الكتب حول دراسات اسلامية مثل « تاريخ التمدن الاسلامي » لجرجي زيدان ، والموسوعة الاسلامية لاحمد امين ، وتبرز اثر انتفاضات سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٦ وانتهائها بهزيمة تجسدت في المعاهدة المصرية البريطانية ظاهرة تتمثل فيهروب أكثر رواد الفكر الليبرالي ، وقد سبقوا رواد الفكر الاشتراكي في تقييم التراث العربي حسب مقاييس منهجية جديدة ، من مواجهة الواقع ، وخوض معركة جديدة بعد خيبة الاولى الى الانكباب على التاريخ الاسلامي ، ودراسته . وبغض النظر عن اسباب هذا الاهتمام فقد غربلوا الكثير فيما نشروه عن السيرة النبوية ، ونشأة الاسلام ، فظهرت عبقريات العقاد ، وكتاب « محمد » لتوفيق الحكيم ، وعلى هامش السيرة ، والفتنة الكبرى لطه حسين ، و « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل . وتمر بعد ذلك فترة فراغ في هذا المجال ليتصدى التيار التقدمي بعد هزيمة حزيران بالخصوص لرد الفعل الرجعي ، فيضع بعض جوانب التراث تحت مجهر النقد ، ويغربلها من كثير من مظاهر الزيف ليقدم للقارىء العربي بعض المحاولات الجريئة الهادفة ، من اهمها « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوي ، و « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، و « الله والانسان » لمصطفى محمود ، و « نقد الفكر الديني » لصادق جلال العظم ، و « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » ، وهي محاولات قابلة ـ دون شك ـ للنقاش في كثير من جزئياتها ونتائجها ، ولكن جانبها الايجابي يبرز في الاسس العلمانية المنهجية التي انطلقت منها في نقدها للتراث ، وازالة ما علق به من تزمت وتحجر .
والملاحظات الرئيسية في هذا الصدد هي :

اولا ـ ان الفكر العربي بتياريه الليبرالي واليساري لم يستطع خلال نصف قرن ان يخلق مدرسة واضحة المعالم والاهداف في اعادة النظر في التراث بصورة منظمة مسترسلة ، وهذا هو السبب فيما نلاحظه من فترات فراغ ، وفي ظهور محاولات جريئة من فترة لاخرى دون تواصل وارتباط . ولعل تفسير ذلك يعود أولا الى ما اتسمت به الحياة السياسية في العالم العربي من مد وجزر ، ولا سيما منذ الاربعينات ، وما اقترن بذلك من صراع فكري بين تيارين رئيسيين ، تيار رجعي محافظ ، وتيار تقدمي بجناحيه : الليبرالي واليساري ، وثانيا الى الانقسامات الايديولوجية التي تشكو منها النخبة المثقفة العربية .

ثانيا ـ ان العرب المسلمين لم تكن لهم نظرة التقديس والتصنيم للماضي في القرون الاولى من التاريخ الاسلامي ، فالمصادر الاساسية زاخرة بمواقف الحرية ، والنقد ، والشك ، والرفض تجاه سياسة الدولة الاسلامية في نشأتها ، وتجاه المسؤولين عن شؤونها . ويمكن ان نذكر أمثلة كثيرة في هذا الشأن تفيض بها كتب السلف أنفسهم . وارى ان لهذه النقطة أهميتها ، لان أنصار نظرة تقديس التراث يدعون الذود عن التراث الديني بالخصوص ضد تطرق النقد والشك اليه ، فلا بد ان نعترف بأن التراث العربي الاسلامي مرتبط بالايمان الديني، ولكن التراث الديني نفسه يحتوي على كثير من الجوانب الايجابية المشرقة ذات النزعة الثورية الانسانية . والخطر يتمثل فقط في استغلال هذه الجوانب من فئات تنتسب الى تيارات رجعية لتدعيم نفوذها ، والمحافظة على امتيازاتها في العالم العربي .

ثانيا ـ ان الامة العربية لم تستطع منذ يقظتها الحديثة ان توفق بين الاعتزاز بتراثها ، والاعتماد على العناصر التقدمية الحافزة فيه وبين مقتضيات حياة معاصرة .

فلا يمكن ان تقوم نهضة عربية حديثة ووحدة تقدمية مصيرية ، أساسها العدل ، والحرية ، والاشتراكية ، مؤمنة بالتطور التقني ، جاهدة للمساهمة في الالتحاق بالثورة التكنولوجية دون ان تنطلق من مقومات ذاتيتها ، ومن اكثرها فعالية ، وأعمقها تأثيرا التراث بما فيه من مضامين قوية وانسانية .

ويجب أن يتجاوز التراث مرحلة تاريخية دعم خلالها قومية محلية ضيقة الى تدعيم مفاهيم قومية اكثر اتساعا ، وشمولا ، فهي القومية القادرة على قطع الاشواط بسرعة وطيّ المراحل ، وتحقيق النهضة الحديثة الشاملة ، وللتراث رسالته الخطيرة في تحقيق وحدة هذه النهضة الشاملة .

وآمل ان يكون قد اتضح من خلال هذه الكلمة ان قضية احياء المضامين الثورية الخالدة في التراث العربي ليست قضية نبش قبور

صفحة من مذكرات نائية

ضلالكَ غابٌ ،
وأشجانك الغابرات ندامى
بقين على هدب العين رجع صدى ،
ومع الذكريات اتقاد جوانح ،
« ما من عزاء »
فقد هيل فوق الزهور التراب ،
واودى الهجير بعش الطفوله ،
ضاعت طمأنينة الامسيات العذاب ،
الربيع لهاث صحارى ،
ووعد الحبيب مصابيح ليل تطفأنَ ،
كل الدروب الى النار والجوع والهاويات ،
وكل التضرع ،
كل البراءه ،
كانا شراك الظلام ،
ونهر دماء ودمع ،
تعلمت أن تكتم الحزن والقهر ،
أن تبتسم رغم الجراح ،
وأن تتخطى قيودك في ساعة الوجد ،
كان الشتاء كفول ،
ينوش يديك ورجليكَ ،
دارك بين العواصف في كفة الرعب ،
أيامك القادمات صلالٌ ،
لكم كنت تسأل :
كيف ؟.. لماذا الجفاء ،
(ارتعاش المساء الذبيح ،
زفيف الرياح ،
العظام النحيلة والدائنون ،
ووجه الاب المتفصد ذلا ومسكنةً
وارتباكا ،)
وتسأل : يا صورة في الاعالي ،
لماذا الجفاء ، لماذا الجفاء ؟
نيوب الخرافة والدائنون على موعد ،
كيف تشري لنا الام حاوى
ومن أين تشري لنا ثوب عيد ؟
لماذا الجفاء ....
ولكن تعلمت أن تتشظى بدون أنين
« من العار أن يكشف الناس فقرك ،
عريك ، جوع أشقائك الميتين »
وها هي أصفادك الداميات القدامى
على بعد عشرين عاما
بلا صدأ ، لامعات ،
وأشباح شوقك مثل النجوم تجوس لياليك ،
تلك الرحى لا تزال تدور ،
جني الليل فرو وخمر ونوم
الى ما قبيل الظهيرة ،
لكن جذوة حبك لما تزل تتألق ،
حسرات آبائك المرهقين
حقول لقاك الاخير .

سورية — **رضوان عقل**

الماضي ، أو هروب من الحاضر المأساوي ، بل هي جزء لا يتجزأ من معركة المصير . فقد عاشت الامة العربية هزيمتين ، هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ ، سلطتا أضواء كاشفة على نقاط الضعف الحضاري في حياتها ، فالاولى بلورت نظرية القومية العربية ، وجعلت الثانية هذه القومية تعيش ازمة حادة ، خانقة ، ازمة اختيار حاسم ونهائي :

ـ اما الوحدة باعتبارها الطريق الوعر الوحيد مع الوعي الكامل بمشاكلها المعقدة ، وتناقضاتها الداخلية ، والقوى المعادية لها في الخارج ، وقدرتها على حل التناقضات الداخلية أثناء المسيرة والصمود في وجه القوى المعادية الخارجية . ونلح هنا على أهمية ذلك الوعي الكامل حتى لا تحدث النكسة ، وتخيب آمال حماتها : الجماهير العربية .

ـ او الانكماش والانهزامية بحجة اختلاف الاوضاع الداخلية للمجتمعات العربية ، وتضارب المصالح ، ولكن مصالح من : مصالح الشعوب ، أم مصالح الفئات الحاكمة ؟

واذا تم الاختيار على الطريق الثاني ، او فرض ، فان البلدان العربية ستعجز منفردة عن الوقوف في واجهة التحديات ، فتستسلم.

ان من الصعب حقا التغلب على تخلف قرون طويلة ، وأوضاع معقدة بقفزة ، او حتى بقفزات ، ولكن لنبدأ ، ولنعتمد في قضية المصير هذه على سلاح ناجح ايضا : التراث القومي ، ولنكشف على جوانبه التي تخدم هذه المعركة المصيرية الصعبة ، وهي جوانب غنية مشرقة قادرة على شحذ أداة المعركة : الحرية ، وصقل أسلوبها ، الثورة ، وتوضيح سبيل المواجهة الجدية لكل التحديات : الوحدة المرحلية (*) .

تونس — **الحبيب الجنحاني**

(*) محاضرة قدمت الى المؤتمر الدولي للتاريخ الذي انعقد في بغداد من ٢٥ ـ ٣٠ آذار الماضي .

البرتقالة

قصة بقلم
يحيى المدهون

عبوة ناسفة وفي ركن مظلم لبقايا بيت مجاور وجدت نفسي والذكريات وجها لوجه ، فاحسست بحرارة شمس تموز تخرج من مسام الجدران وتشوي جسدي النحيل ، وحين تخيلتهم داخل البيت ، شعرت بهم يضاجعون الليل في غرفة البيت الوحيدة فيحبل الزمن بآلاف المآسي وتنتشر سريعة على وجوه الفقراء في كل المخيمات ... تحسست صدري حيث رقدت العبوة الناسفة وعدت احدق من جديد في البيت الذي ضمني طفلا في المهد .

كان البيت مضاء من الداخل ، وكانت الاشعة المنبعثة من مصباح تخيلته معلقا في سقف الغرفة قد تساقطت على شجرة برتقال خضراء في طرف (الحوش) غمرت بضيائها احد جوانب برتقالة تدلت خجلى عن سطح السور الى خارج البيت فكأنما ارادت ان تبتعد بروائحها كي لا تغتصبها الانوف الغريبة .

سألني ابي :

ـ ما اسم هذه البندقية ... ؟

ـ ملتينة (1) ..

اجبت بلسان لم يكتمل بعد اذ كنت في الثالثة من عمري .. ربت على خدي ثم قبلني ومضى . قالت أمي بعد سنوات انه كان متوجها الى حيث انتظره الرفاق ليشنوا حربا عادلة .

قررت لحظتئذ ان اهدم البيت واعجن الذكريات ببقايا حجارته .. اختفيت سريعا في بطن الظلمة فتلاحقت انفاسي لاهثة كرغبة العبوة في الانفجار .

تساءلت امي : هذه المساحة الصغيرة يا ولدي .. لماذا لا نزرعها برتقالا ؟.

واضافت : اني لأنس لروائح الزهر حين تداعب هذين الخشمين الهرميين ..

ابتسمت رغم شعوري بلسعات حادة في حلقي فقد ايقنت انها تسعى جاهدة لاعادة ترتيب الذكريات بزرعها في المساحة المذكورة ... بعد ان بعدنا عن بياراتنا زمنا طويلا ....

تحسست العبوة وضبطت الزمن جيدا وكان عليّ ان ابدأ التسلل الى البيت .

ملاحظة : بيتنا يسكنه غرباء .... والتسلل في عصر الثورات حرية المقاتل ....

استجمع ابي ما تبقى لديه من قوة واعتدل في جلسته كي يستطيع ايصال اخر كلماته اليّ . ولم اكن اتصور في ذلك الوقت انني سأتحمل اعباء اسرة بكاملها .... كان اخي لم يتجاوز العاشرة بعد ، وكانت اختي الاولى ترقد في مرجيحتها المعلقة في سقف القرميد باربعة حبال ولم تتجاوز اشهرها الستة .. وكانت توأمها الاخرى ترقد في السرير مما اضطرني الى توزيع يدي بينهما اليمنى تهز بهذه ، والاخرى تدفع بالمرجيحة والطفلة تمسك بقدميها زجاجة الحليب الذي كنت قد احضرته لها هذا الصباح من مركز التوزيع التابع لوكالة الغوث ، واستشعرت همهمة خلفي ولم تمض لحظات حتى ظهر صوت ابي خفيضا وكأنما اتى من جوف بئر سحيق . ادركت لحظتها انه موشك على الرحيل . وانفجرت الاختان مرة واحدة في صراخ حاد قطع تواصل الاحرف القادمة من فم ابي فتساقطت دموعي على قماطة الطفلة في المرجيحة وامتزجت بلوحة حزن غير عادي . وتعالت صيحات الصبية في الخارج يتجادلون حول ادوارهم في القاء الكرة . كانت ضحكاتهم تنتشر بعفوية على سطح البيت وتتسلل عبر الشبابيك والابواب الى مسامعي تحاول امتصاص الدموع الدافئة من عيني دون جدوى ، كانت ضحكاتهم لا تستطيع اختراق حاجز الحزن الذي احاط بنا جميعا وسكتت الطفلتان فجأة حين قال والدي :

ـ ابناؤنا يا ولدي يصبحون رجالا في سن مبكرة .... يكفيك النظر لجدران البيت او لاختيك حتى تدرك ما اريد ان أوصي ب ....

وانقطع الصوت فجأة .. نظرت خلفي ثم امامي .

وفجأة وجدتني احدّق في البرتقالة من جديد فأرى ما يشبه الدمع ينساب عن حوافها المستديرة اوشكت لمرآه ان اقفز نحوها اقبلها وامسح بوجنتي دمعها المتقاطر في صمت حزين .

قالت امي : ادخل يا ولد البرد شديد في الخارج .

قلت ببراءة : لقد اعتدته يا امي

صرخت بي : خش وبلاش شيطنة وغلبة .

دلفت الى الخيمة وقد خبأت يدي في جيوبي فقد كنت حقيقة اشعر ببرد شديد ولكني اردت في تلك اللحظة ان اثبت ان رحيل الملابس عن جسدي الصغير لن يرهبه كثيرا . وما لبث البرد ان تحول الى صقيع وارتفع صفير الرياح في الخارج قادما من الغرب ما لبث ان سحب

---

(1) الاصل : مرتينة

معه الخيمة التي طارت مع ما طار من خيام واعتلت الصراخات كبد السماء الرمادية حتى شعرت بنفسي اكاد اسمع ارتعاش قلوب الاطفال في صدورهم واضحا كانفاسي .

كان الموعد قد اقترب من لحظات الاستعداد الاولى ، حين انطلقت اصوات من الداخل جعلتني اشد نفسي الى اعماق الظلمة بحذر ، ورحت انصت .

امـرأة : ....

رجـل : ....

امـرأة : ... (غاضبة) ....

رجل : ... (يحاول تهدئتها) ......

امـرأة : ....

فتح الباب فجأة وانطلقا خارج البيت واخذا في الابتعاد حتى امتصت المسافة بيننا اخر كلماته الغريبة .

ملاحظة : دار الحوار باللغة العبرية

قال اخي الاصغر : لن اصعد لهذه السيارة .. بدي تكسي .. وانا مالي . بعرفش .. بدي تكسي واصر على مطلبه مما جعلني وعمتي نحمله الى العربة بقوة رغم نشيجه المتواصل .

ملاحظة : بعد حوالي عشر سنوات بكى وهو يتذكر تلك الحادثة وقال : كان لا بد ان نوفر فرق الاجرة .. كان ابي في حاجة ماسة للحساء كي يتماسك جسده .

ورحت اتقدم ببطء وحذر نحو البرتقالة ، وتهت في لونها الذي بدأ كعيني امي وانقضت فجأة حين احسست بمضي الزمن سريعا وتمنيت لو توقف اللحظة لكني استسخفت الامر وهكذا تسلقت الجدار وقفزت الى حوش البيت فتقمصتني الذكريات من جديد واحاطت بـي كستار حديدي ولم تقـو قدماي على الحركة .

ـ اسم الله عليك يا امة ... صه .. صق .. صق .. صق .

ـ آه .... اخخخخ .. اي .. اوى .. اممممم ؟

وحملتني بين ذراعيها .

العتبة حيث تعثرت في طفولتي تقف الان امامي كسور الصين وتصر على الثبات عند ذكرى تلك الحادثة حين جرحت ركبتي الصغيرة ولما كان الزمن يمضي فقد شددت نفسي بقوة انتزعها من بحر الذكريات لصالح المهمة التي قدمت من اجلها ، دلفت الى غرفة النوم ففوجئت بصندوق حديدي يقبع في احد الزوايا .

ـ هات يا ولدي اخبيلك القرشين في الصندوق عشان ما يضيعو منـك .

قالت امي ثم حلقت بعينيها واضافت :

ـ كان لنا صندوق حديدي ، احضره والدك من احد معسكرات الانجليز واستخدمه فترة طويلة لاخفاء الملابس والرصاص ... والان لم تعد لنا .. لا ملابس ولا رصاصات ....

ـ لا تشغلي بالك .... فقد قال مدرسنا بالامس ان على جيلنا مهمات ثم شرحها لنا ...

قلت بسرعة في نفسي : هذا افضل مكان لوضع العبوة . نبشت الملابس بسرعة وجعلت العبوة الناسفة تتوسدها في نومة قصيرة لصحوة قادمة ، اغلقت الصندوق وخرجت وانا اهمس بهدوء

ـ كان ابي من احضره وعلى ولده ان يحطمه كي لا يستخدمـه اللصوص ... اعتليت السور فارتطمت البرتقالة بوجهي واهتزت في ظلالها المتراقصة كبسمة ربيعية

قالت امي : الله يسهل عبرتكان بلدنا .. هيك الحبة
وفردت كفيها مشرعتين كنافذة خضراء . قطفتها برفق واحتضنتها لفترة قصيرة ناسيا نفسي فوق السور لكني سرعان ما تنبهت وهبطت بهدوء ، القيت البرتقالة في عبي وامتزجت بظلمات الشارع مخلفا البيت في انتظار زمن الموت .

بدايـــة :

صحت الذكريات في صدري وانا اقف الى جانب بيت في اول الشارع ولهثت رئتاي خلف الحقيقة فراودتني فكرة ... اتجهت على اثرها الى بيتنا اتقدم وحين وقع عليه بصري احسست بالجدران تدخل صدري وبالحجارة تضغط عليه بشدة كانصال حادة .

تذكرت ما قالته امي ذات مرة :

ـ هسة يا بني بقطفوا البرتقان حبة ورا حبة ... ايمته ترجع لدارنا . وبكت .

صمت برهة ثم انطلقت دون تردد نحو بيتنا ... وصممت على القيام بعملية ما وفي صدري ترقد عبوة ناسفة .

فلسطيـن — ربعي المدهون

التحديق في صورة سوسن

أخرج من صدف الذكرى كالطفل الولهان
أنفض عن نفسي أكفان اليأس
الشائهة الالوان
أهتك في هوس الملهوف رهادة أيامي.
وأحاول اخفاء هلام ذنوبي
في كهف النسيان
أتعرى من رهج الحقد الصاهل في
الاعماق
أتمسك بالقمر الساهي في وجهك ،
أزهو بالضحكه ،
باللثغة ،
بالزهر المتبسم في عينيك
ألقي أثقال الشوق الهائل بين يديك
أتعلق بالكرز الراهي في شفتيك
بضجيج الغربة ،
بالوله المتواصل ،
بالايماء
طفحت ذاكرتي بالجـوع الى مفتاح
القلب .
يخفق اسمك في صدري ساعة
يرغي موج الحب .
ينضج **تفاح اللهفة ،**
يزدهر الصمت ،
يصير غناء
يتزاهر فجر حباتي ،
تنأى أشباح الوحشه
وتولي في غبش الذكرى هـلوسة
الحرمان .
فأحس بأعماقي رعشه
وأهدىء قلبي المتواثب كالطفل الهيمان
أغريه بالعنب المتدلي من كرم الشفتين
فتهمهم أشواقي ،
تهدل في القلب رهافة أعصابي
اتقرّى بطهارة وجهك تاريخ عذابي
فأحسّ بهيمنة تائهة ،
تقبل من جهة لا تعرف
وهـواجس لا توصف

***

أسألك لماذا تهزج أحلامي كعصافير
المنفى ؟
تتطاير في ريح لا تلمس
تتناءى عني ،
تدهن أهدابي بالحزن الاخرس
ولماذا يرتدّ اللون الباهت للغابات ؟
تتهدج أغنية ،
تتسربل بالصمت الهاتف
يشتعل البحر الهمّاس بعينيك
الساهيتين ،
تهاجر أسراب النورس.
فأناديك خذيني تهمد هزّات
الصمت المجهول ،
انسكبي في لوحة عمري ،
فارهة كالفجر ،
احتملي بالسرّ عذابي
ادخل في الوجه الواهر كالرؤيا ،
فأتوه تتوهين معي ،
يزهرّ شبابي
أسألك لماذا أرسم وهوهة الاحزان
على دفتر موتي القاصه .
يرتسم الهجران بوجهي الذاهـل
وصمة عار
تنكفىء **العينان هباء ساعة**
ترغي في الوهم الاحلام
تتهاطل كالورق التافه ،
تنهار بصمت أحزان فؤادي
تغرق ،
يجرفها نهر التذكار
تطفو ،
يحملها موج الاحلام
أبصرك الليلة تهوين بملء الروح غريقا
طفليّ العينين
يرسم هالة وجهك بالشعر
الرّهاز يذوب القلب
ينفخ في الصورة شيئا من روحه
يهتف قومي من أسرك ،
هبّي ،
انهمري ،
اهتزّي كالومض ،
انتفضي ،
انطلقي
هدّي بشراهة ملهوف ،
قيد اللحم ،
انعتقي
تتشهى ،
تهمس ،
تمشي تيها ،
تتكلم
تشعر بعذابي ... تتألم

***

.... ويعذبني همك ،
يفجؤني كالوهلة أحيانا
وتهوّم في قلبي الشاغي بحّة صوتك ،
تهمي غنته الوانا
فأحدّق في ضحكتك الهيمى ،
أدخل روحا في قلب الاشياء
أكتشف البهجة ،
ومض الشوق ،
صفاء الحزن ،
لهاث عذاباتي
أستذكر هدأتك الولهى ،
تهويمة عينيك ،
أضيع بدوّامة آهاتي
فهبيني منّة تحنانك ،
أهطل أزهارا ،
ونداوة أهواء
وأباهي ببراءة عينيك لداتي .

دمشق **صالح درويش**

النشاط الثقافي في العالم

فرنسا

رسالة من بدر الدين عرودكي

باريس الرعب والسحر ...

ـ ولكن ما الذي جئت تفعله في هذه المدينة المرعبة ؟

المدينة المرعبة هي باريس بالطبع . والسؤال يطرحه عليك معظم الباريسيين الذين تجاوزوا الاربعين من عمرهم . وسرعان ما يكتشف هذا الغريب القادم من بعيد حلمه. هل هو حلمه حقا ؟ ابدا . ولتجلس قليلا مع هذا الذي يطرح عليك السؤال ، لتجد ان له حلمه هو الآخر. انه يحلم بالجبال التي تغسل اقدامها في البحر وترصع هاماتها بالثلج في كولومبو . يحلم بتلك الحياة الرخية السادرة في بغداد ، حيث لا تستيقظ في الساعة السادسة صباحا ، والظلمة ما تزال تلف أجواء باريس ، لكي يتناول على عجل فنجانا من الحليب وكسرة من الخبز ، ثم ليحشر نفسه بين المئات بل الالوف في المترو . امامه ساعة ، وأحيانا اكثر من ساعة ، لكي يصل الى مكان عمله . ثم الكي ينخرط في هذه الآلة الكبيرة التي لا تكف عن الحركة من التاسعة صباحا حتى السادسة مساء ، ليجد نفسه مرة اخرى في علبة سردين مضاءة ، تتحرك كالافعى في سراديب المدينة الكبيرة . ساعة اخرى ليصل الى البيت ، منهكا ، مستنفدا : يتناول عشاءه ، ثم يغط في نوم حافل بكوابيس الاجازة القادمة : اين سيقضي عطلة عيد الفصح ؟ اين سيقضي اجازة الصيف ؟ سؤال تحتاج الاجابة عنه شهورا . ثم تعود الحياة من جديد سيرتها العصرية !..

يضحك ملء فمه ، وينضح وجهه بالسخرية . يقول لي : انهم يطلقون على بلادكم اسم البلدان المتخلفة .. ولم افهم بعد تقدمهم لكي أفهم تخلفكم . لكني افهم انكم أفضل منا . انكم على الاقل تعرفون كيف تستفيدون من وقتكم . تعملون . ولكنكم تملكون اوقات فراغ جميلة.. انكم لستم متخلفين هنا ، وانما نحن المتخلفون .. اننا نركض كل يوم بدون أية غاية ، اما انتم فما زلتم تملكون الامل على الاقل . قد تكونون غير مجهزين بما فيه الكفاية . ولذلك لست افضل هذه التسمية التي يطلقونها على بلادكم ، بلادكم انتم بشكل خاص ، وانما أفضل اسما آخر هو « Les pays sous equipes »

أنتم منبع ثروتنا نحن الذين نسيء التصرف بها ومع ذلك نطلق عليكم لقب المتخلفين .. ويقولون انه عصر العقل الالكتروني !!..

المتحدث هنا صحفي فرنسي تجاوز الستين من عمره ، قضى ثلثي عمره في التنقل بين أرجاء العالم ، وربما قضى ثلث هذا العمر في الوطن العربي . انه يعرف الجميع : ملوكا ورؤساء وزعماء ، ويتحدث عن عبد الناصر حديثه عن صديق التقاه قبل قليل وتناول معه فنجانا من القهوة وتبادلا خلال ذلك ذكريات المدرسة .. ويذكر من دمشق غوطتها ، ويتأسف : دمشق كباريس ، تنمو على حساب الخضرة النادرة في عصر المدن الكبرى هذا !..

ليس هو الوحيد في ذلك ، وانما كثيرون غيره يرددون نفس الـ (أوف) . فيما يشبه السيرة الذاتية ، او ان شئتم مدخلا الى سيرة ذاتية ، الذي صدر قبل أيام تحت عنوان « MA Moitié d'orange » ، يكتب جان لوي بوري : « أحب الحياة في المدن ، فيما عدا باريس » . ويجلس ، لكي ينظر الى صديقه كلود ميشيل كلوني ـ وهو ناقد سينمائي ـ بحسد : « سيذهب الى القاهرة خلال ايام .. آه ، وسيضيع في أحيائها القديمة كطفل صغير .. أكان عدلا الا أستطيع الذهاب معك ؟! » .

ولا يصدقون انني كنت احلم بهذه المدينة ، وانني الآن ألقي في شوارعها بنفسي مستسلما لكل شيء فيها : لحشود الناس فيشوارعها، لمخازنها الضخمة ، لمكتباتها ، لمعارضها .. مستسلما ، لانني لا استطيع ان اتخذ قرارا . وأي قرار يمكن ان تتخذه في اختيار واحد من ألف ؟ ثم كيف يتاح لك ان تتخذ هذا القرار يوميا ؟ اليس الاستسلام هو الاستجابة الوحيدة لمثل هذه المثيرات ؟

حسنا . ههنا اذن يكمن رعب المدينة وسحرها . انها ملتقى ومنطلق الرياح الاربع . ولا بد لك من ان تكون قويا بما فيه الكفاية ، ومتفرغا تماما ، لكي تضع راسك وسط هذه الدوامة دون ان تشعر بالدوار .

باريس الرعب والسحر ؟.. نعم . ويكفي ان نستمع الى نشرة اخبار المساء في التلفزيون لكي تشعر بالدوار . ينقلك مذيعوها ، عبر شوارعها العديدة فقط ، الى انحاء العالم المختلفة : في كليبر يتقرر مصير السلام في فييتنام . في الباليه روبال موقف الفرنك من الدولار . في الكيه دورسيه تلغى زيارة وزير الخارجية الصهيوني .. ثم .. ثم .. وراء ذلك او تحت ذلك ، تجتمع العصور المختلفة في لحظة واحدة ، وتستعاد لحظات من التاريخ لها مذاق البهار ، لحظات من التاريخ الادبي على وجه الخصوص ، وتنقل فورا الى لحظات أخرى مجهولة ما تزال في سديم المستقبل بخارا لا لون له ولا شكل : انها المفاجأة ، بل هي الصرعة التي غدت نمطا ، فيما يبدو ، من انماط عصرنا .

أقول صرعة ، ولن أشطب هذه الكلمة لكي أستبدلها باخرى . قبل اسابيع حمل احد الفنانين العرب ، بناء على نصيحة استاذه في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس ومساعدته ، حمل لوحاته الاخيرة الى احدى صالات العرض . هناك فحصوا هذه اللوحات ، وأبدوا في النهاية اعجابهم بها . ولكنهم تأسفوا : فنوعية اللوحات لا تقدم مفاجأة الى قطيع المعارض الفنية الباريسي هذا الموسم . لو انه قدمها في الموسم الماضي لكانت مفاجأة مثيرة ، لكانت اعجوبة الموسم ... أما الآن فلا .. بكل أسف .. لا ! كان بوسع صديقنا الفنان الا يذهب بنفسه وان يلعب لعبة غيره ، لكي تتصدر صوره أغلفة المجلات ، ولكي تزدحم شقته بالمصورين وطالبي الاحاديث الصحفية ، وان يبدأ باعطاء المواعيد بعد شهر ونصف .. و .. و .. وأن يغدو مسمارا من مسامير هذه الآلة العجيبة ، ولكن اعماله الفنية ستتحول بذلك الى بنطال يستبدل بغيره ما ان يهترىء ، وستكف في النهاية عن ان توجد .

ذلك ان الثقافة القائمة على الاستهلاك ، لا تفرق ، كما أشرت في رسالتي السابقة ، بين كتاب وعلبة جبن ، او بين اثر فني وعلبة كلينكس . صحيح انه وسط ذلك كله تستطيع ان تتلمس الاصالة هنا او هناك : في رواية او بحث او لوحة .. ولكن أنى لك ان تفعل ذلك دوما (او بالاحرى كيف ؟) وأنت محاصر كل يوم بالصحافة والاذاعة والتلفزيون ، بالنشرات والاعلانات والدعايات في الشوارع وعلى أرصفة المترو ، بل وفي علب المترو ؟ هل يمكن ان تتنفس بحرية ضمن جو الحصار الخانق هذا ؟ وكيف ستحاول ان تتمرد ، الكي تتخلص من محاولة حشرك بالقوة ضمن الكتلة المتجانسة التي يصنعها سادة مجتمع الاستهلاك ببراعة مذهلة ؟

انهم قد وصلوا اليك اخيرا . فبعد ان سادت النمطية كل الاشياء ، لا بد من أن يحول الناس ايضا الى انماط او بالاحرى الى كتل متجانسة . لن تكون هناك فروق فردية .. بل فروق بين الكتل . سوف يفصل الانسان ويشذب ويصنع على نمط واحد هو نمط الكتلة.

وبعد ذلك ، يستطيع هذا المغامر بأموال غيره ان يصنع من انسان عادي فنانا شهيرا يتنقل بين نيويورك وطوكيو ، جامعا هنا وهناك الثروة واصداء الاعجاب .. ويستطيع آخر ان يفبرك كاتبا يبيع الكتاب الاول له عشرات الالوف من النسخ خلال الاسبوع الاول من نشره .. وآخرون ... اما أنت فلست الا واحدا ، رقما مسجلا على عدة بطاقات تحملها معك دوما : يعرفونك من خلالها ، ولا يتذكرونك الا في لحظة الموت !

اوليس ثمة مهرب من هذه الدوامة ؟ بلى !.. انها لحظات الماضي المجنون ، وخصوصا عشرينات هذا القرن : سنواته المجنونة . وباريس لها ذكرياتها التي لا تنضب عن تلك السنوات الحارة . فقد احتضنت خلالها عشرات العبقريات العالمية في كل ميادين الفنون ، وصدرتهم للعالم حاملين عطرها .

« امنحني هذا الفالس » ...

وخلال الاشهر الماضية كانت باريس على موعد مع واحدة من هذه الذكريات . مع واحد ينتمي الى جيل لم يكتشفها فحسب وانما اكتشف كل الاماكن الشهيرة في فرنسا اليوم ، وأعني به الروائي الاميركي « سكوت فيتزجيرالد » ، الذي لم يعرفه القارىء العربي للاسف الا منذ سنتين فقط عندما ترجمت له (روايات الهلال) في القاهرة روايته الشهيرة « غاتسبي العظيم » .

هل هو سكوت فيتزجيرالد حقا ام ملهمته وزوجته زيلدا « العظيمة » ؟

خلال السنوات الماضية ، كان كل ما يكتب عن فيتزجيرالد مرصودا له ، لسيرته بوصفه الناطق الرسمي باسم عصر الجاز ونموذجه الكامل. ولا تلعب زوجته « زيلدا » الى جانبه الا دورا ثانويا ، وفي كثير من الاحيان دور العقبة التي أدت في النهاية الى نهايتهما الفاجعة معا .

من هنا أهمية هذه المحاولة التي قامت بها فتاة اميركية في الخامسة والعشرين من عمرها « نانسي ميلفورد » لانصاف «زيلدا» .. للبحث فيما وراء الاحكام النهائية الصادرة عليها من كبار معاصريها (جون دوس باسوس وارنست همنغواي) ، وعبر استقراء مئات الوثائق والصور والشهادات الحية لعشرات الاشخاص في اوروبا واميركا من الذين كانت لهم في عشرينات هذا القرن علاقات مع هذين الطفلين المرعبين اللذين ولدا مع القرن العشرين وقتلا به .

نانسي ميلفورد وكتابها « زيلد » مترجما الى الفرنسية اخيرا مع رواية زيلدا في كتاب آخر للمرة الاولى باللغة الفرنسية « امنحني هذا الفالس Accordez moi cette valse » كانا حديث الاوساط الثقافية خلال الشهر الماضي في باريس . وكأن باريس تحاول أن تستعيد ذكراهما معا بعد ان كانت تذكر واحدا منهما هو سكوت فيتزجيرالد ، ناسية زيلدا التي كانت في الاساس من وجوده الادبي .

يكتب معاصروهما عنهما :

« ١٩٢٠ : كانت لهما ملامح ابناء الشمس . كان شبابهما صاعقا، وكان العالم كله يريد التعرف اليهما . كانا الاكثر جمالا ، والاكثر شبابا ، والاكثر جنونا » .

« ١٩٢٠ - ١٩٣٠ : كانا يبنيان تعاستهما وروائع ادبية تؤلف قصة تحكي حطام حياتهما وحبهما » .

« ١٩٣٠ : نهاية السنوات المجنونة ، واليقظة الباردة لصباح اليوم التالي للعيد . لقد اصبح اطفال الجاز زوجين مرعبين ، غارقين، هو في الكحول ، وهي في الجنون » .

ويكتب هو : « أريد ان اكون ، من جديد ، محط اعجاب الجميع ! » .

وتكتب هي : « بعد مائة عام أحب ان يبحث الناس عن معرفة ما اذا كانت عيناي زرقاوين او بنيتين ! » .

ولم يكن هو بحاجة الى شيء آخر غير حياته ورواياته ، لكي يكون محط اعجاب الجميع . وما تزال أصداؤه أصداء جنونه تلون أجواء باريس ، بل نيويورك .

أما هي ، فلم تكن بحاجة الى مائة عام . خمسون عاما على تاريخ هذه الكلمة ، وتأتي فتاة اميركية مسحورة بهذين الطفلين ، لكي تطرح السؤال الذي يمكن ان تطرحه كل امرأة بعد ان تستمع الى نهايتهما الفاجعة : من المسؤول ؟

كان لا بد لها حقا من ان تكون مسحورة بزيلدا ، لكي تدخل عالمها من كل ابوابه لكي تكتشف مناحيه الغامضة . تجيب نانسي ميلفورد : « كانت زيلدا تكره روايات فيتزجيرالد .. وأردت أن اكتشف السبب. ان كتابي دراسة عن الجنون والوحدة . في البداية ، لم اكن اعرف حقا اذا كنت أحببت زيلدا . اما الآن فانني اعرف ذلك بالتأكيد . على اني لم أجعل منها لا أما طيبة ولا زوجة مخلصة . ان زيلدا لم تحطم « سكوت فيتزجيرالد » - كما هو شائع - ، ولا يمكن اجبار احد من الناس على أن يصبح كحوليا - في برينستون كان يشرب ايضا - ، ولا على ان يغدو مجنونا . كل انسان مسؤول عن مصيره »

وتتابع : « لقد استقبل كتابي بشكل جيد من قبل جمهور نسائي : فتيات في العشرين وجدن في زيلدا أختا ، فاتخذن منها نموذج المرأة المضطهدة ! » . وتبتسم : « فالزواج دوما معركة حافلة بالمنافسة والمزاحمة ! » .

وانما زواجهما هو بداية هذه القصة الفاجعة التي يمكن ان تضاف حقا ، كأثر أدبي ، الى آثارهما الادبية معا : «حنان هو الليل» ، « ذلك الجانب من الفردوس » ، « السعداء والمعذبون » ، « غاتسبي العظيم » وأخيرا « امنحني هذا الفالس » .

في البداية ، كانت الآلهة ترعاهما على حد قول نانسي ميلفورد . عندما كانا يقضيان اليوم الاول من زواجهما ، في الشقة (٢١٠٩) في فندق « بلتيمور »ويرتبان اولى هدايا زواجهما ، كان « سكوت » يفكر : « بالكاد يتمكن المرء من ان يتزوج المثل الاعلى لاحلامه ! » . اما هي فقد كانت تحيا لحظات مفعمة بجنون المتعة « كانت تشعر بالجوع في منتصف الليل ، فتأمر خدم فندق بالتيمور باحضار السبانخ الطازجة والشمبانيا ! » .. وتكتب ، بعد ايام ، رسالة ، سوف يستخدم سكوت مقاطع منها في روايته « السعداء والمعذبون » :

« ... انني اتطلع الى الطرقات وأراك تأتي . ومن كل سدفة ، من كل غيمة ، تسرع سراويلك المدعوكة العزيزة نحوي . بدونك يا غالي، يا حبي ، لن استطيع الرؤية او السمع او الاحساس او التفكير ، ولا حتى الحياة . أحبك ، ولن اسمح - فيما بقي لنا من ايام نحياها - ان ينفصل احدنا عن الآخر ليلة أخرى . بدونك ، تبدو الحياة كما لو كنت تتوسل الرحمة من العاصفة ، او كما لو كنت تشوه الجمال ، او كما لو كنت تشيخ . أود أن أقبلك ، هنا على عنقك ، عند منبت تلك الشعيرات .. وهناك ، حيث يبدأ صدرك . أحبك - وليس بوسعي ان اقول لك الى اية درجة - وأفكر : أستطيع الموت دون ان تعرف ذلك.. آه يا أبلهي .. لا بد لك ان تحاول الاحساس كم أحبك ! - وانا ، بمجرد ان تغادر البيت بلا حياة ، وليس بوسعي حتى ان اكره هؤلاء الناس الناكرين للجميل . لا اريد ان اكره اي شخص ليس له الحق في ان يعيش لانه يوسخ عالمنا .. لانني احبك . تعال بسرعة . تعال اليّ . لا استطيع الحياة بدونك . حتى لو كرهتني ، حتى لو كنت مغطى بالجروح كأجذم .. حتى لو ذهبت مع امرأة اخرى .. حتى لو جعلتني اموت من الجوع .. حتى لو كنت تجلدني .. اعرف ذلك . أريد ايضا ان اكون معك يا حبي .. يا حبي .. يا عزيزي ! »

« زوجتك »

كانت تحبه ، وربما كانت ضعيفة تحت وطأة عاطفتها القوية نحوه . وما لم يره اصدقاء سكوت في ذلك الحين ، كان هذا الجانب بالذات ، الذي لم تكن فيه أقوى منه !

وفي ذلك الوقت ، كان سكوت فيتزجيرالد يسكر على قمة نجاحه الذي حققه كتابه « ذلك الجانب من الفردوس » الذي قد يعتبر اليوم - كما تنقل نانسي ميلفورد عن واحدة من صديقاته - كتابا بلا

أهميـــة ، ولكنه في عام ١٩٢٠ كان عملا تجريبيا يؤسس نوعا جديـدا من الادب .

ولكي تكيف نفسها مع حياة مفعمة ومتفجرة ، أعني حياة زوجها، بدأت تلعب ادوارا متناقضة . كانت تبذل جهودا كبيرة : لتكون عاشقة حقيقية ، وزوجة ، وامرأة مستقلة في الوقت نفسه .. لكي تسخر من الجميع وتظل مع ذلك لطيفة ومجاملة .. لكي تكون فخورة وتبقى ايضا ملهمة زوجها وبطلة رواياته . وفي محاولاتها المضنية هذه ، كان يراودها الاحساس بأن زواجهما ينزلق شيئا فشيئا ، خفية ، نحـو مناطق مجهولة ، حيث تغامر بأن تضيـــع . وتعكس عيناها ، بسبب ذلك ، وميضا غريبا ، سرعان ما يلاحظه جون دوس باسوس الـــذي التقاها في عام ١٩٢١ للمرة الاولى ــ وكان على وشك اصدار روايته « ثلاثة جنود » التي حققت له مكانة مرمـــوقة في ميدان الادب ــ : « التقيت زيلدا للمرة الاولى . كانت جميـــلة ولطيفة . كانت امرأة رائعة .. كل شيء فيها كان أصيلا ومسليا . غير انه كان لها ايضـا هذا الوميض الغريب في نظرتها ! » .

وفي سبيل ان يغيرا حياتهما ، وان يقتصدا قليلا ، يبحر سكوت وزيلدا في ربيع عام ١٩٢٤ الى فرنسا التي كانت محط معظم كتـاب الجيل الذهبي الاميركي في أوائل هذا القرن . ويستأجر ، لكي يعكف على الكتابة ، دارة تشرف علـى الشاطىء اللازوردي . وهناك يلتقيـان بمجموعة من الطيارين الفرنسيين كانت تعسكر بالقرب من دارتهما ، حيث كانا يقضيان الامسيات معهم يمرحون ويشربون . كان سكـوت ينصرف الى الكتابة طيلة النهار . اما زيلدا فقد حاولت ان تبذل جهدها لكي تترك زوجها ينصرف الى كتابته ، فكانت تقرأ ، غير ان عينيهـــا كانتا تؤلمانها ، ثم انهـا كانت تفضل ان تتحرك على ان تظل ساكنـة بسبب القراءة ، ولذلك وجدت نفسها بعد حين ، وحيــدة ليس لديها ما تفعله !

وبدون ان تنتبه الى ذلك ، بدأت تلتقي يوميا مع احــد هؤلاء الطيارين (ادوار جوزان) . وكان بوســع كل امرىء ان يلقاهمـا تحت الشمس على الشاطىء ، يتبادلان الانخاب : كانا جذلين من قدرتهما على الابتعاد عن رواد الشاطىء الآخرين . وكان سكوت سعيدا برؤية زيلدا برفقة انسان ليساعدها على تزجية وقتها وتغيير مزاجها ! كان «جوزان» وسيما ، وكان قد بدأ يحب زيلدا . ولكي يعبر لها عن حبه ، فقد كان يقوم ببعض الحركات البهلوانية بطائرته فوق دارتها ، بل كان يغامر في الاقتراب من السطح القرميدي مسافة اصبعين ! كان يرى فيهـا مخلوقة مفعمة بالحيوية ، بالرغبة العارمة في حياة حظها منها سحرها وشبابها وذكاؤها . لم تبد له امرأة معقدة ، وانمـا امرأة ذات رغبات بسيطة : أن تمتد الحياة على شواطىء مذهبة بالشمس ، وان تتنزه بالسيارة ، وان تقيم عشاءات لا تتخللها التقاليد والرسميات .

حدث ذلك في عام ١٩٢٤ عندما كانت زيلدا في الرابعة والعشرين من عمرها .

غير ان ذلك لم يستمر . فجأة ، لم يعد احد يرى زيلدا مـع جوزان . ولم يعرف احد ما الذي جرى ، غير ان سكوت يكتب فـي مذكراته بتاريخ ١٣ تموز من ذلك العام : « الازمة الكبرى .. زيـلدا تسبح كل يوم » !.. لم يكن آنذاك قد مضى أكثر من ستة اسابيـع على تعارف زيلدا وجوزان . ولم يبد على سكوت انه فهم الاسباب التي دفعت بزوجته للتعلق بجوزان ، فهو يكتب في مـــذكراته : « عرفت ان ثمة شيئا قد تهدم ولن يكون بالوسع ترميمه » . وكـــان يرفض الاعتراف ــ لنفسه على الاقل ــ من ان زيلدا كانت يائسة وتعيسة من رؤية نفسها على هامش عالمه بينما يستمر هو في الكتابة ، ذلك انه سرعان ما يتفاءل ويكتب : « ها هي المشاكل تتبدد .. لم يعد لجوزان وجود » في حين كانت زيلدا تفكر ، ثم تقدم على محاولة انتحار كانت بداية انهيارها النفسي والعصبي . اذ ما تلبث في عام ١٩٣٠ أن تدخـل المصح ، في حين يغرق سكوت في الجن .

وفي عام ١٩٣٢ تبدأ زيلدا كتابة روايتها « امنحني هذا الفالس » وبكل براءة ، تستعير اسم بطل رواية زوجها آموري بلاين « ذلك الجانب من الفردوس » . وما ان تنهيها حتى تدفع بها الى الناشر . غيـر ان سكوت يعلم بذلك فيبرق الى الناشر طالبا ايقـــاف طبع الرواية ، ويستعيد المخطوطة ليجري عليها بقلمه كثيرا من التعديلات .. ذلك انه لم يكن ليقبل ان تسفح زوجته على الورق حياتهما الخاصة . لقـد كان هو كاتبا محترفا .. اما هي ؟ وهكذا ضاع المقطع الاول مـــن الروايـــة .

في عام ١٩٤٠ يموت سكوت فيتزجيرالد بأزمة قلبية ، وفي عام ١٩٤٨ تموت زيلدا في حريق المأوى الصحي الذي كانت تنزل فيه .

من حطم الآخر ؟ كان سكوت فيتزجيرالد ــ قبل نانسي ميلفورد ــ قد طرحه على نفسه وكتب : « كان الاصدقاء يقولون : ان كلا منا ، انا وزيلدا ، سيكون في افضل حال بعيدا عن الآخر . ولكنا كنا نحب بعضنا بعضا . كانت تحب طعم الكحـــول على شفتيّ ، وكنت أعبـد هلوساتها الاكثر جنونا . اعرف أني لم افكر في يوم من الايام ان احدنا قد حطم الآخر » . وذلك ما توافق عليه نانسي ميلفورد : « كل مسؤول عن مصيره » . ولكنها تريد رد الاعتبار لامرأة احست نفسها دوما على هامش العالم رغم انها كانت تملك كل الامكانيات لكي تكون في مركزه . فبالنسبة لهمنغواي ودوس باسوس كانت زيلدا امرأة مجنونة . اما نانسي ميلفورد ، فهي مع « رينغ لاردنر » الذي كان قد احبها كثيرا، وكتب لها هذه القصيدة :

من بين كل الفتيات اللواتي أحبهن
ويعلم الله أن كن عديدات
ليس منهن واحدة تساوي زيلدا ساير
التي هي الآن زوجة رصّاص ! (1) .

تاريخ جديد للفلسفه ...

في ميدان آخر ، هو الفلسفة ، تكثر احاديث المفكرين الفرنسيين عن طغيان وسائط الاتصال الجماهيري على الفكر الفلسفي المعاصر ، وابتذالها مفرداته باستخدامها في الحياة اليومية لترويج بضاعتها ، مفرغة اياها شيئا فشيئا من دلالاتها الاساسية .

ولكن هؤلاء يشعرون ــ بالمقابل ــ بالحاجة الـى ان تكون الفلسفة في متناول القطاعات العريضة من الجماهير دون ابتذال . وفي المكتبة الفلسفية الحديثة عدة كتب تتناول تاريخ الفلسفة يمكن اعتبارها مـن أفضل الكتب في هذا الميدان خاصة كتاب جانيه وسياي الذي نهـج طريقة في تاريخ الفلسفة تقوم على اساس متابعة تطور كل مشكلة مـن المشكلات الفلسفية الاساسية على حدة منذ فجر تاريخ الفلسفة حتى العصر الحديث . ويمكن اعتبار هذا التاريخ نموذجا لتاريخ الفلسفـة الذي يقوم على مصادرة مفادها تقدم المعرفة . وهناك أيضا كتاب اميل برهييه في تاريخ الفلسفة الذي يقع في تسعـة اجزاء يتضمـن تلخيصا وافيا للمذاهب الفلسفية عبر أصحابها والمنتمين اليها واحدا واحدا.

غير أن هذه الكتب تظل قاصرة على فئة من المثقفين او الطلبة ، فـي حين تظل الحاجة قائمة الى تاريخ للفلسفة يستطيع ان يخاطب الجماهير الواسعة . ومن هنا اهمية هذه المحاولة التي يقوم بهـا «فرانسوا شاتليه» الان من خلال اشرافه على كتابة تاريخ جديد للفلسفة يتناول الافكار والمذاهب بطريقة مختلفة . لماذا هذه المحاولة ؟ وما هي هذه الطريقة ، وما هي مبرراتها ؟ . تلك أسئلة طرحها « روجيه رول دورا » من اللموند على فرانسوا شاتليه في مقابلة أجراهـــا معـه ، وانقلها للقارىء فيما يلي :

ــ ماالذي يمكن ان يقدمه لنا اليوم تاريخ للفلسفة ؟ .

ــ ان ما هو مهم في الفلسفة الماضية ليس أن نعرف أنها كانت قائمة علىأساس تقدم المعرفة ،وانما هي الاجابات الاصلية والتصورات التي اعطتها للمشكلات التي طرحتها الممارسات الاجتماعية والدينيـة والعلمية .هذه التصورات المكتشفة يمكنها أن تلعب اليوم دورها فـي العديد من المجالات وخاصة في مجال نقد مجتمعنا .

أن تعليم الفلسفة اليوم يقوم على أساس نقدي بشكل أساسي .

---

(1) PLOMBIER

وفي هذه الحالة فان تواريخ الفلسفة التي تهيىء تلاميذ الصفوف التكميلية وطلاب تواريخ دوغمائية . انها تعتمد على فكرة تقدم الفكر من افلاطون حتى جان بول سارتر أو ميشيل فوكو ، وهي طريقة نرفضها رفضا مطلقا .

ـ في كتابك بعض المفكرين الذين لايتوقع المرء وجودهم ،وآخرون غائبون . هل كان هذا الاختيار تعسفيا ؟ .

ـ في قسم منه . لان ذلك لايعني ان نعكس صيرورة الفكرة الفلسفية ـ وتواريخ الفلسفة التي نهجت أسلوبا مختلفا كليا نفعل ذلك ـ وانما استشارة عاطفة الحب أو السخط . وسأكون مفتونا اذا حدث أن قارئا كان يقرأ الجزء الثالث من كتابي فقذف به جانبا وهو يقول لنفسه : « سأقرأ اسبينوزا ». ومما لاشك فيه أن من الممكن أن يبدو لامعقولا تخصيص « توما ماونتزر » بفصل كامل وعدم ذكر آية كلمة عن بليزباسكال أو على الاقل مجرد التلميح اليه . الا انه كان لي حظ الالتقاء بباحث جديد بالحديث ـ بطريقة رائعة ـ عن توماس ماونتزر . ثم أن باسكال لايحمل أدنى فكرة جديدة عن الفكرالتبريري المسيحي الذي تحدثت عنه الفلسفة الوسيطة مطولا .

ـ ماهي أبرز خطوط الجزء القادم ؟.

ـ انه يحمل اسم « الفلسفة والتاريخ » ١٧٨٠. ١٨٨٠ ، وسوف يحللاستجابة النظرية للواقع الجديد الذيفرضته صيرورة المجتمعات واشتراك الشعوب الفعلي في ميادين البحث . لقد عادت الفلسفة للعمل سواء من خلال تحضير النظم الكبرى ، اومن خلال الاحتجاج ضد هذه النظم نفسها كما هو الامر بالنسبة للفلاسفة (شترنر ـ كيركيغارد ـ باكونين) أو من خلال اعادة تحديد نظام النظرية(ماركس وانغلز).

ـ هل يمكن كتابة تاريخ لفلسفة القرن العشرين كما هو مخطط الجزءالثامن ؟.

ـ يمكن الحديث عنه .ففيه أيضا تبرز نواحي الاختلاف .يتضمن هذا الجزء بشكل خاص فصلا لجاك بوفريس عن فكرة مهملة في فرنسا هي « التجريبية المنطقية (راسل ـ كارناب ـ فتغنشتين) ، وفصلا عن فرويد كتبه بيير كوفمان ، وسيتحدث جيل دولوز عن البنيوية .انه من الصعب انجاز كل شيء . ربما كنا ندخل في عصر نور جديد يسبق ثورة جديدة ، وربما كان العكس اذا أردنا التحدثكاللاهوتيين: أي بداية نهاية الزمن .

ـ هل يمكن اعتبار تاريخ الفلسفة هذا دليلا ؟.

ـ على كل حال انه ليس دليلا مفصلا ، وانما تسميته «جغرافية الفلسفة » .وفي الواقع فان مشروعه هو ممارسة المكتشفات الجوهرية عبر مؤسسة تؤلف ماضيه وقوته ذلك يعني لا أن نرى المشهد فقط ، وانما ان نتساءل كيف أصبح هذا المشهد على ماهو عليه الآن ، أعني هذا المشهد الذي نراه اليوم

ان تتكلم عن افلاطون مثلا ، هذا يعني ان تعمل في الجيولوجيا . بيد ان الجيولوجيا ترى في لون الاحجاروفي الاحراج ، وبملاحظتها يمكن ان تعود بها لمرحلة التشكل الذي جعلها على هذا الوضع وحدد بالتالي خصائصها . ذلك هو معنى مشروعنا :

ـ ثمة ضرورة تتحكم بكل كتاب وهي قابليته للقراءة . الى أي جمهور يتجه هذا الكتاب ؟.

ـ كان كانط قد تحدث عن ذلك في نهاية القرن الثامن عشر : على الفلسفة أن تكون شعبية ، أي أن تكون مقروءة . ان الابتذال يقوم على تسهيل المشكلات المطروحة لاعطاء اجابات سهلة .أما الفلسفة الشعبية فهيعلى العكس ،تحافظ علىصعوبة وتعقد الاسئلة والاجابات، ولكن بطريقة تجعل فيها هذه وتلك قابلة للفهم . وعلى الرغممن الهجوم الذي يشن عليها ، والسخرية التي تثار ضدها ، فقد تابعت الفلسفة ممارسة سحرها الكبير . ان مفكرين من أمثال ميشيل فوكو وجيل دولوز يستثيرون ظاهرة تتعلق بالموضة ، ولكني اعتقد ان هذه الموضة تترجم ظاهرة اكثر عمقا .

ان الناس يشعرون ان المفردات الفلسفية التي يستطيعون سماعها من الراديو أو من التلفزيون تستخدم بشكل رديء . انهم يريدون معرفتها بشكل اوضح ، اشد وضوحا من التفسير الذي يقدم لجمهور الجامعات . فالى هذه الضحايا التعيسة لوسائط الاتصال الجماهيري يتجه تاريخ الفلسفة هنا . انهم ضحايا لان وسائط الاتصال الجماهيري تستخدم هذه المفردات النبيلة لكي تحرر ما يمكن تسميته ببضاعتها .

ـ هل أنت راض عن تاريخ الفلسفة هذا ؟.

ـ نعم ، اذا قست المشروع بتحقيقه . ولكن مشروعا آخر اكثر اتساعا يمكن أن يتحقق يحتاج الى عشرات السنين ومئات الباحثين وهذا يعني تاريخا للفلسفة يحمله تاريخ عام للايديولوجيات . لابد اذن من بحث الفلسفة كما يبحث الانثولوجيون مجموعة من الاساطير معرفة أي قوام وأية بنية تملكها المقالات الفلسفية وما هي وظيفتها الايدلوجية ودلالتها السياسية . الا انه من اجل ذلك لا بد للانسانية من ان نقرر التفكير بماضيها بوصفه ماضيا .

* * *

أسبوع الثقافة العربية

على أن الحدث الثقافي الهام قبل شهرين (١) لم يمر في باريس، وانما في مدينة ستراسبورغ ، وأعني به اسبوع الثقافة العربية الذي نظمه مكتب الجامعة العربية في باريس بالتعاون مع جمعية الصداقة العربية ـ الفرنسية وجامعة العلوم الانسانية في ستراسبورغ ، والسفارات العربية في باريس .

لاول مرة يقام مثل هذا الاسبوع الثقافي في فرنسا ، وفي منطقة الالزاسبالذات حيث يكاديكون الوجود العربي فيها شبه معدوم في محاولة للتعريف بمظاهر الحضارة العربية المختلفة . وقد تضمن الاسبوع ثلاث محاضرات وأمسية موسيقية ومعرضا للفنون التشكيلية ومعرضا للكتاب العربي .

اشترك في القاء المحاضرات كل من علي مراد استاذ العلوم الاسلامية في جامعة ليون الذي القى محاضرة عن الاسلام ، ونجم الدين بامات ـ وهو افغاني الاصل ـ مدير ادارة الثقافة في منظمةاليونسكو الذي تحدث عن آثار الحضارة العربية الاسلامية على العالم الغربي ، وبول بالتا الذي تحدث عن التنمية في البلاد العربية ومبادلاتها مع أوربا .

أما بالنسبة للموسيقى فقد أحيا عازف العود المعروف ماهر عقيلي امسية موسيقية استمرت ثلاث ساعات وذلك في مقر معهد الكونسرفاتوار بستراسبورغ .

وخلال ايام الاسبوع بين ٢٤-١- ١٩٧٣ و ١-٢-١٩٧٣اقيم معرضان: معرض الفن التشكيلي في قاعة برنانوس بجوار جامعة ستراسبرغ ، وقد تضمن عددا من اللوحات التي قدمها الفنانون العرب الذينيقيمون في باريس حاليا ـ وقد كان من قبيل الصدفة المحضة انعددا من أهم الفنانين التشكيليين العرب مقيمفي باريس حاليا ـ، ومعرض الكتاب، وقد ضم حوالي خمسمائة كتاب قدمتها مختلف السفارات العربية في باريس وتمثل أوجه النهضة في البلاد العربية وتاريخها وحضارتها .

لقد كان هذا الاسبوع ولاشك مبادرة جيدة قام بها مكتب الجامعة العربية في باريس بالتعاون مع جمعية الصداقة العربية ـ الفرنسية. وقد احتفلت به كافة الصحف الاقليمية التي تصدر في منطقة الالزاس وخصصت له اذاعة فرنسا ـ الثقافة FRANCE CULTURE برنامجا يوميا لمدةعشر دقائق تضمن احاديث عن مختلف أوجه النشاط فيه وأجرت حوارا مع كل محاضر حول الموضوع الذي عالجه . وفي نهاية الاسبوع نظمت محطة فرنسا FRANCE - INTER مائدة

---

(١) كنت وددت التحدث عن هذا الحدث في الرسالة التي كان يجب ان اكتبها للعدد الماضي من « الاداب » غير ان ظروفا طارئة حالت دون كتابتها .

مستديرة حول الأسبوع اشترك فيها كل من لوي تيرنوار رئيس جمعية التضامن العربية ـ الفرنسية ، وتوسيان بيترلان سكرتيرها العام والدكتور فهد مدير معهد الدراسات العربية بجامعة ستراسبورغ والمستشرق الفرنسي لوسيل الاستاذ بمعهد اللغات الشرقية بجامعة باريس ، ومدير مكتب الجامعة العربية بباريس .

ويمكن القول ان هذا الاسبوع قد حقق الاغراض المنشودة منه ـ نسبيا ولا شك ـ بالقياس الى الامكانيات المادية والتنظيمية التي خصصت له . ولكنه على كل حال كان محاولة أولى ـ ميزتها الاولى والاهم انها تقدم الوطن العربي كوحدة ثقافية لا كاجزاء ـ يشوبها ما يشوب المحاولات الاولى من أخطاء ويعتورها ما يعتور المحاولات الاولى دوما من نقص ومن الاهمية بمكان ان نسجل في هذا المجال الملاحظات التالية :

ـ ان اقامة اسبوع خاص بالثقافة العربية الكلاسيكية في اوجها تمثل جزءا من هذه الصورة . غير ان الاقتصار عليها ـ من خلال المحاضرات خاصة ـ يكاد ينفي الوجود الثقافي العربي المعاصر الذي يشكل ولاشك الجزء المتمم من الصورة . ومن الغريب الا تتطرق المحاضرات الى الثقافة العربية المعاصرة ، في حين يقدم معرض الفن التشكيلي اخر ما وصلت اليه مواهب الفنانين العرب فيهذا الميدان . لقد كان من الممكن دعوة أساتذة آخرين ، سواء من فرنسا او من البلاد العربيه للتحدث عن الادب العربي المعاصر ، عن الموسيقى العربية المعاصرة ، عن أوجه التطور والنمو الاقتصادي والاجتماعي في الوطن العربي خلال الحقبة الاخيرة .. ولكن المشرفين علىتنظيم هذا الاسبوع لم يلتفتوا الى هذا الامر .. ألانه مغامرة في مس جوانب سياسية يريدون الابتعاد عنها بأي ثمن ؟. لكن ما دام الغرض من اقامة هذا الاسبوع هو التعريف بالثقافة العربية فلماذا نقدم الصورة ناقصة ؟.

كان من الممكن ان يتضمن الاسبوع ـ ما دام اسبوعا للثقافة العربية ـ نشاطات اخرى لا تقل اهمية في قدرتها على اعطاء صورة واضحة وعميقة عن هذه الثقافة . كان من الممكن ان يتضمن الاسبوع عروضا سينمائية لافلام عربية لا تقدم فكرة عن المستوى الذي حققه وطننا العربي في مجال فن وصناعة السينما فحسب، وانما تقدم صورة عن التطور الحضاري الراهن في الوطن العربي وتطرح في الوقت نفسه قضاياه الانسانية . ألم يكن من الممكن تحقيق نتائج ايجابية اخرى ضمن حصيلة النتائج الايجابية لو عرضت افلام مثل فيلم « المومياء » و « الفلاح الفصيح » لشادي عبدالسلام، و« المخدوعون » لتوفيق صالح ، و« بعيدا عن الوطن » و« شهادة الاطفال الفلسطينيين في زمن الحرب » لقيس الزبيدي و« نابالم » لنبيل المالح ؟. ألم يكن من الممكن تحقيق نتائج ايجابية اخرى لو نظم النشاط الخاص بالموسيقى العربية على اساس ان تقدم خلاله اعمال موسيقية لمؤلفين موسيقيين من امثال ابي بكر خيرت ، المؤلف الموسيقي العربي الذي فتح للموسيقى العربية افقا عاليا ما يزال تلامذته يتابعون طريقه من بعده ، بدلا من ان يقتصر النشاط الموسيقي على ثلاث ساعات من العزف المنفرد على العود ـ ولماذا العود وليس القانون وهو أكثر غنى مثلا ؟ ـ عزفا قد يطرب البعض ولكنه يدهش البعض الاخر ولا شك ؟.

ـ لم تكن التغطية الاعلامية التي سبقت اقامة الاسبوع او تخللته كافية . صحيح انها كانت جيدة على المستوى الاقليمي، اي على مستوى منطقة الالزاس ، ولكنها كانت معدومة في باريس . ففيما عدا الخبر الصغير الذي نشرته صحيفة « اللوموند » لم تشر اية صحيفة اخرى الى هذه التظاهرة الثقافية العربية الاولى من نوعها في فرنسا .

ـ على الرغم من الطابع الثقافي المحض لهذا الاسبوع ، وعلى الرغم من اقامته في مقاطعة الالزاس وليس في باريس مثلا ، فانه لم ينج من هجوم صهيوني . فقد نشرت صحيفة محلية تصدر في ستراسبورغ هي صحيفة « Tribune Juive » مقالا تحت عنوان « هل اصبحت جامعة ستراسبورغ صنيعة جمعية التضامن العربية ـ الفرنسية » تعرضت فيه لجمعية التضامن العربية ـ الفرنسية بقولها:ان هذه الجمعية،وهيذاتطابع سياسي تحاول تحتستار الثقافه الحصول على نتائج سياسية . وقد هاجمت ايضا رئيس الجمعيةالسيد لوي تيرانوار ـ وهو وزير ديغولي سابق ـ بقولها :« انه الرجل الذي اتهم غولدا مائير بانها المسؤولة عن مذبحة ميونيخ ، وانه لا يكف عن مقارنة الصهيونية بالنازية ... » .

ان مثل هذا الهجوم الذي يتعرض له نشاط ثقافي محض لا بد ان يؤخذ بعين الاعتبار عند تنظيم اسبوع اخر . فلا شك ان تنظيم اسبوع يقدم صورة عن الثقافة العربية المعاصرة ووجوه النشاط الحضاري الراهنة في الوطن العربي لن يبقى بمعزل عن هجوم اشد واقسى ، وربما تعرض الى ضغوط صهيونية تحول دوناقامته. فقد تساءلت الجريدة المذكورة نفسها عن سبب عدم ممارسة مثل هذه الضغوط للحيلولة دون اقامة هذا الاسبوع ، هذا فضلا عن تعرض اصدقاء العرب من الفرنسيين الى حملات قذرة تمس كرامتهم وانسانيتهم . فما الذي بوسعنا ان نفعله لمواجهة مثل هذه الضغوط ولحماية هؤلاء الاصدقاء بل وللدفاع عنهم اذا لزم الامر ؟ . لا بد ان تكون الاجابة عن هذا السؤال في حسباننا عند البدء في تنظيم تظاهرة ثقافية اخرى تتلافى نواقص التجربة الاولى .

ان الملاحظات السابقة لا تحول على كل حال دون تقديرنا لهذه المحاولة التي كان يجب أن تحقق منذ زمن بعيد .

باريس **بدرالدين عرودكي**

الاتحاد السوفياتي

رسالة من برهان الخطيب

ما الجديد في مسارح موسكو

وانت تمشي في شوارع موسكو : غوركي ، كالينين ، تشيخوف، وعشرات غيرها ، تلتقط عيناك يوميا أعلانات لا حصر لها تشير لك الى ما يعرض في مسارح المدينة ودورها الثقافيه الكثيرة ، التي هي بمثابة نواد اجتماعية عامة . ولا نكاد تقرأ نصف ما تصادفه من هذه الاعلانات ، حتى تجد في اليوم التالي أن كل شيء تغير ، وان مسرحيات جديدة تعرض وحفلات موسيقية مختلفة تقام ومحاضرات ادبية وعلمية اخرى تلقى . واكشاك بيع التذاكر لهذه الحفلات موزعة في كل مكان تقريبا ، ولكن اغلبها يعتذر عند تقدمك لطلب بطاقة الى مسرح تكانكا (قبل حوالي العقد اخذ المخرج لوبيموف طلبته وزملاءه الى مبنى صغير في منطقة تكانكا طارقا دربا جديدا لم يكن المسرح السوفيتي يعرفه من قبل .. تمرد لوبيموف وفرقته على التقاليد المسرحية التي دامت عقودا ، وطرح مفاهيم واشكالا جديدة جوبهت برفض قاطع ، وقبول شديد .. فهاملت مثلا نراه على المسرح بيده قيثارة ، يرتدي بلوزة سوداء رياضية وسروالا عصريا (كاوبوي) ، يدمدم بكلمات نسميها من « الشباب المتمرد » في الشوارع .. ومن هذه الصورة البسيطة يمكن الانطلاق في تكوين انطباع عن هذا المسرح الطليعي ـ الذي لا يقتصر تأثيره على المشاهدين الثلاثمائة الذين لا تسع قاعة المسرح غيرهم ، بل يتعداهم لينسحب على مسارح الشباب المعاصرة في شتى انحاء الاتحاد السوفيتي) مثلا أو مسرح سفريمنيك الجديد ، او مسرح فاختانكوف . فالحياة الثقافية هنا في فوران دائم والناس يجدون الوقت دائما لمتابعة كل ما يستجد عرضه هنا في العاصمة السوفيتية ، غير ان ليس كل المسارح تلقى مثل هذا الاهتمام من الجمهور ، فالمشاهد اليوم لا يتلقى كل ما يسمعه او يراه دون ابداء رأي ، فهو قد وصل الى درجة من المعرفة والثقة بالنفس بحيث يمكنه الوقوف امام عدسات التلفزيون في برامج حية للرد على أسئلة مذيعين لبقين دون ارتباك او اهتمام بالاضواء التي يسلطها عليه مسؤولو الانارة في هذه البرامج ، هذا هو اعتقاد الناقدة المسرحية المعروفة اينافيشنفسكايا الذي دفعها لاستحداث برنامج بالاتفاق مع احد المخرجين لاستقراء آراء المشاهدين حول الحياة المسرحية الناشطة اليوم ، فتاتي هذه الآراء تحمل نكهات خاصة ومضامين غير متوقعة في كثير من الاحيان ولكنها دائما تكون ذا فائدة للكتاب وللممثلين وللمخرجين على حد سواء . ولا يخلو الامر من طرافة في احيان اخرى، توجه الكاميرا الى جمهور المشاهدين أثناء خروجه بعد انتهاء العرض وتسأل مقدمة البرنامج احدى السيدات وهي تهبط السلم في طريقها

لارتداء معطفها :

ـ سيدتي العزيزة ، ما رأيك في المسرحية التي عرضت اليوم ؟

ولكن السيدة تواجه ابتسامة مقدمة البرنامج بتقطيبة وتجيبها :

ـ الم تعجبني !

وتتسع ابتسامة المقدمة في محاولة لتدارك الموقف امام جمهور مشاهدي التلفزيون ، وتتوجه بالسؤال الى رجل يحتفظ بسيماء الوقار :

ـ هلا قلت لي أيها الرفيق ما الذي جعلك تختار هذه المسرحية بالذات لمشاهدتها من بين عشرات المسرحيات الاخرى التي تعرض في العاصمة ؟

ولكن الرجل يواصل هبوط السلم قائلا :

ـ هذه هي المرة الاولى التي أدخل فيها المسرح بعد مرور ست سنوات ، وبعدها لن أدخله ثانية ابدا !

وتنتقل الكاميرا الى اكشاك بيع التذاكر لترصد حجم الاقبال على هذا المسرح او ذاك ، فترى الطلبات تتوافد على عروض مسرحي سفريمنيك وفاختانكوف بكثرة توحي كما لو ان القضية مقصودة او أن لا مسارح في موسكو غير هذين المسرحين ، ولذلك يتفق المخرج مع احد العمال الفنيين لتمثيل دور في البرنامج بالاستفسار من بائعة التذاكر عن عروض مسرح آخر غير هذين المسرحين ، فيسأل العامل :

ـ هل من تذاكر لمسرح غوغول ؟

يتوقع ان يسمع رد « التذاكر نافدة » أسوة بالاجابة على الاستفسارات المتكررة حول مسرحي سفريمنيك وفاختانكوف . لكنه يفاجأ بوجه البائعة يطل عليه من فتحة الكشك متلهفا على بيع تذكرة :

ـ نعم . أتريد ؟

ولا يدري العامل بماذا يجيب وهو الذي لم يحسب حساب ذلك مع المخرج ، فيتمتم اخيرا :

ـ لا . كان مجرد سؤال !

وينقذ نفسه بالتطلع الى نشرة العروض المسرحية .

وهكذا تمضي الحياة المسرحية بدفق شديد على الرغم من تمسك بعض المسارح بتقاليدها القديمة ، بل ان « تاكانكا » يرفض قبول مسرحيات جديدة متشبثا بعروضه المعتادة ، مستثنيا استضافة هاملت وطرطوف على خشبته في هذا العام . كذلك فان « مخات » رفض بناية جديدة أعدت له ، لحرصه الشديد على تقاليده التي ارتبطت ـ كما ترى هيئة المسرح ـ ببناء المسرح القديم والتي يخافون موتها بانتقالهم الى هذه البناية الجديدة ، ولذلك يعمدون الآن الى استخدام حيلة مهذبة بمحاولة اقناع السلطات المختصة اهداء هذه البناية الى مسرح آخر او تحويلها الى متحف لتاريخ مسرح « مخات » نفسه .

لكن السؤال عما هو جديد في الحياة المسرحية للعاصمة السوفياتية يظل قائما .

فما هو الجديد فعلا ؟

يلاحظ النقاد ان التراجيديا تضمحل من يوم الى يوم في المسرح المعاصر ، وان كثيرا من الممثلين الذين اعتادوا على اداء أدوار يتخصصون بها يموتون الآن (ليس جسديا) وانما تأريخيا ـ فنيا ، لان ادوارهم بالذات اخذت تتلاشى من الحياة اليومية للمواطن السوفياتي ، مقابل هذا أخذت تنشأ مفاهيم وأساليب جديدة في التعبير الفني ، يقف في مقدمة اولئك الذين يطرحونها اليوم على خشبات المسارح الكاتب المسرحي المشهور فيكتور روزوف الذي يمسك النجاح بين يديه منذ زمن طويل دون ان يتركه يهرب منهما . كتب مسرحيات كثيرة جدا ، تعرض الآن في موسكو اثنان منها . وقد اعتاد الكاتب هذا على تقديم عمل واحد في كل عام . وحققت مسرحيته « في ساعة طيبة » نجاحا ممتازا بحيث ان احد النقاد كتب عنه قائلا : ما ولد عندنا ليس كاتبا مسرحيا جديدا بل مسرح جديد . وآخر ما قدمه روزوف مسرحية جديدة بعنوان « حالة » جرى عرضها في حفل خاص بعد ان تمت البروفات المتطلبة لذلك ، ولكنها لم تحظ لحد الآن بسماح هيئة الرقابة ، الذي يتوقع ان يتم بعد اجراء بعض التعديلات والحذوفات ، كما انها لم تطبع ايضا بعد في أي من المجلات المسرحية .

« حالة » هي من اكثر المسرحيات التي تثير النقاش هذا اليوم.

يحتفظ الكاتب روزوف بالتقاليد المسرحية القديمة فيها كما هي عادته دائما في باقي مسرحياته الاخرى . ولم يحدث ان كتب مسرحية واحدة خارج اطار « الواقعية » . ففي كل مسرحية من مسرحياته تجد عنده العقدة وتطور الحدث والحل والسياق الواضح ... الخ ، دون ان ينسى تثبيت بعض المسائل الاخلاقية ، منجزا كل هذا بفنية عالية، الا ان تبشيره ببعض المبادىء الخلقية يؤثر عليها بشكل سيىء اذ يحرفها عن جادة الصدق النفسي لتكوين الشخصيات .

تتحدث المسرحية الجديدة عن العامل الشاب فيكتور الذي يشغله التفكير في تطوير الطريقة الانتاجية في معمله ، فينجح في ابتكار اختراع جديد يتقبله المعمل منه ويضعه موضع التنفيذ ، ويمنحه لقاء ذلك مبلغا كبيرا (٤٠٠٠ روبل) . وتفتتح المسرحية على مشهد العامل الشاب فيكتور يجالسه صديقه انطوان ويتحدث معه حول طريقة صرف هذا المبلغ غداة استلامه . ويروح الصديق وآخرون يتفكرون في امر هذا المال مقترحين توزيعه بين شراء راديو ترانزستور وشراء قداحة غازية وأشياء كمالية اخرى غير هذه ، وتقترح احدى الداخلات ـ والشخصيات تدخل الى المسرح وتخرج بلا تبرير ودون خضوع لحبكة فنية ، فروزوف يقول ان دخولها يجب ان يكون كما في الحياة من غير افتعال لحظات تفقد الى الصدق الموضوعي ـ تقترح هذه الفتاة اعطاء المدير ربع المبلغ أي الف روبل نظير تقديره لجهود الشاب المخترع ومنحه هذه المكافأة ، واعطاء ايفان ايفانوفج (شخص غير معروف) الف روبل ايضا ، كذلك لها (للفتاة) الف روبل ، والالف الاخيرة يشتري بها هدايا . وهكذا تضيّع المبلغ على هذه الاشياء ، وحين يسأل العامل المخترع عن نصيبه في هذه المكافأة تجيبه الفتاة : لك اربعون روبلا ، ألا ترى ذلك مسجلا هنا في القائمة ؟! ويعطونه ورقة سجلوا فيها كل مقترحاتهم . وتدفعه الفتاة تمارا والام الى استلام المبلغ . فينهض من مكانه ويتحرك للذهاب ، لكنه لا يفعل شيئا غير أن يتناول قليلا من الماء ويشربه ، ثم يتوقف برهة ينظر نحو السماء ويرجع اليهم بين دهشتهم . وهكذا يتطور حدث المسرحية بهدوء وبلا افتعال ومن خلاله يحاول المؤلف افهامنا ان حرب الفرد مع الشر ومع النواقص الحياتية تحوله بشكل ما الى مخلوق شبيه بالخطايا التي يحاربها . انها فكرة عميقة هذه التي يعرضها لنا روزوف ، ولكنه لا يقولها بمعزل عن تأثير تولستوي عليه ، وهو يقول في المسرحية بكلمات غير مباشرة ان : اتركوا العباقرة في هدوء . فالرجال نوعان كما يقرر : العباقرة (نمط غاليلو) الذين ينبغي تركهم يفتتحون ما يريدون لانهم وان يحنوا رؤوسهم لحين فانهم يواصلون في نفس الدقة انجاز ما يريدون انجازه . والنوع الثاني نمط سبارتاكوس الذين يشقون طريقهم في الحياة وفي ايديهم السيوف والرماح . ويقترح الكاتب ايضا عدم الخلط بين اولئك وهؤلاء ولا داعي لزجهم في مجال واحد .

هناك اشخاص يعرفون الكاتب شخصيا يقولون عنه ان ابطال مسرحياته تحمل الكثير من صفات المؤلف وفلسفته . تراه في كثير من الاحيان يخرج صباحا الى محطات المترو والقطر يناقش الناس حول ماهية الخير مبشرا بينهم بآرائه ومفاهيمه حتى انه يعود الى بيته في المساء متعبا لا يقوى على الامساك بالقلم ومواصلة الكتابة . وقد أعلن في احدى المرات اثناء التقائه بطلبة معهد باومن العلمي ما يكرره غالبا في احاديثه الخاصة من ان الفقر والترفع عن الملاذ الدنيوية هو أحسن شيء في الحياة . وقد جوبه باعتراضات الطلبة وهتاف ضاحك يدعو ان اعطنا اولا لنعرف هذه الحقيقة .

وجهت الناقدة فيشنفسكايا بعض الملاحظات الى مسرحيته الاخيرة « حالة » وشخصت فيها افتقادها الى قليل من الفكاهة تحتاجه لاشاعة حيوية اكثر في جوها العام . ويعتقد ان المسرحية ستستكمل قريبا كل الشروط الفنية والادارية المطلوبة لعرضها خلال الاسابيع القليلة القادمة في العاصمة السوفياتية .

موسكو **برهان الخطيب**

١٩٥٩ ـ اول بينال بباريس .
ـ المعرض المتنقل الثالث للفنانين المغاربة بالمغرب .
ـ معرض الفنانين المغاربة بفيينا .
ـ المهرجان العالمي السابع للشباب .
ـ المساهمة في معرض الفنانين العرب بواشنطن
ـ البينال الثالث بالاسكندرية .
١٩٦٠ ـ معرض الرسم المغربي الناهض « بقاعة العروض بباب الرواح ـ الرباط » .
ـ معرض الفنانين بباريس
ـ معرض الفنانين المغاربة في لندن
١٩٦١ ـ البينال الثاني بباريس
١٩٦٢ ـ المساهمة في معرض « رسامي باريس » والفنانين المغاربة بالرباط .
١٩٦٣ ـ البينال الثالث بباريس
ـ الفنانة في حياة الفن المغربي برواق (شاربلتسي بباريس)
ـ اللقاء الدولي للرسامين العفويين بالرباط .
ـ المؤتمر الاول للجمعية الوطنية للفنون التشكيلية .
ـ المعرض الجماعي للفنانين المغاربة بالجديدة .
ـ معرض الفنانين المغاربة بتونس
ـ الفنانة في حياة الفن في المغرب بمدريد .
١٩٦٥ ـ الرسم العفوي المغربي بالرباط .
ـ معرض الرسم المعاصر في المغرب بباب الرواح ـ الرباط
ـ البينال الرابع بباريس
١٩٦٦ ـ المهرجان الدولي للفنون الزنجية بداكار .
١٩٦٧ ـ المعرض الدولي بمونريال .
١٩٦٩ ـ المهرجان الافريقي بالجزائر .
ـ الحضور التشكيلي (معرض في الشارع ساحة جامع الفنا ـ بمراكش ـ ساحة ١٦ نوفمبر بالدار البيضاء) .
١٩٧٢ ـ معارض جماعية بثانويات الدار البيضاء .
١٩٧٣ ـ تاسيس الجمعية الوطنية للفنون التشكيلية .

* * *

واقع الفن التشكيلي في الجزائر

بقلم ابراهيم مردوخ

ان مصادر الفن التشكيلي في بلادنا عديدة ، ومتنوعة وهي تعتبر الارضية ونقطة الانطلاق لفنوننا التشكيلية والملهمة لخطوات الفنانين عندنا .

ان ارضنا الجزائرية قد عرفت على مر العصور حضارات متعددة، منها الحضارات التي نشأت وترعرعت على أرضنا ، ومنها التي جلبتها معها جحافل الغزاة . ومن الاكيد ان الاجيال السابقة رفضت تأثير هذه الحضارات منذ البداية ، وهي لم تنتقل الينا عبر الاجيال ولا ترى لها اي مظهر في فنوننا الشعبية ، ومن حضاراتنا الوطنية ما يزال قائما يحكي للاجيال مجد الاجداد ، ومنها ما اندثر ، ولكن ما من شك ان العناصر الفنية لهذه الحضارات قد تناقلتها الاجيال على مر السنين وهي تتمثل الان في الصناعات التقليدية الشعبية المنتشرة في انحاء عديدة من الارض الجزائرية الواسعة . ان نفس العناصر الزخرفية المشتقة من الكتابات البربرية القديمة لا تزال تستعمل بطرق مختلفة في صناعات تقليدية مختلفة ، فنفس العناصر الزخرفية التي نراها مستعملة في تزيين الصناعات الفخارية وفي تجميل المصنوعات الفضية المصنوعة في كل من بلاد القبائل والاوراس والصحراء هي نفسها التي نراها مستعملة في تكوين الزرابي المصنوعة في وادي ميزاب وفي جبال عمور او التمامشة او الاوراس ، كما نراها بارزة في المصنوعات الجلدية لقبائل الطوارق بالهوقار ، ونفس هذه العناصر نجدها مستعملة في تزيين البيوت الريفية هنا وهناك في ارض الجزائر ، كما نجدها تستعمل كزينة في الوجه وفي اليدين للعروسة عند قبائل البربر ، وهذه العناصر الزخرفية لا تزال تستعمل ككتابة لدى قبائل الطوارق بالهوقار باقصى الجنوب الجزائري . ومن الملاحظ انه يوجد تشابه كبير بين العناصر الزخرفية البربرية وبين فن التاسيلي في آخر ايامه بالهوقار مما يثبت ان الفن البربري ما هو الا امتداد لفن التاسيلي ناجير .

واذا جاز لمصر القديمة ان تفتخر بالفن الفرعوني ، وحق للعراق ان يتباهى بفنون ما بين النهرين فانه من حق الجزائر القديمة ان تفتخر بفن التاسيلي . ان الرسوم الجدارية التي اكتشفت في منطقة تاسيلي ناجير في الهوقار تضاهي جمالا رسوم كهف التاميرا باسبانيا وكهف جنوب فرنسا ، ورسوم التاسيلي الجدارية ترجع في تاريخها الى ما قبل التاريخ . وهذا مما يثبت ان الانسان في الجزائر عرف الرسم واهتم بالفنون التشكيلية منذ القديم .

وهذه الرسوم تجتذب الكثير من السياح والعديد من الباحثين من مختلف بلاد العالم اكتشفت اول مرة حوالي سنة١٩١٩ وهي حتى الان لا تزال تحتوي على كثير من الاسرار الغامضة التي لم يتمكن الباحثون من تصنيف هذه الرسوم حسب الترتيب الزمني .
وقد صنفوها حسب مظاهرها التشكيلية الى ما يلي :

ـ الرسوم البدائية ـ رسوم الاقنعة ـ الاشخاص المقنعون ـ الرسم الطبيعي ـ رسوم الابقار والاشخاص ـ الرعاة ـ رسوم المرحلة الاخيرة ـ ويستشف مما سبق ان انسان التاسيلي استعمل الرسوم في بعض الفترات من حياته الطويلة لاغراض سحرية كتعاويذ لطرد العين الشريرة مثل رسوم الاقنعة ورسوم المقنعين واستعمل الرسم في مراحل اخرى لتسجيل عالمه وما يحيط به من حيوانات عديدة وللتعبير عن صراعه مع قساوة الطبيعة ، مثل رسوم الغزلان والزرافات التي رسمها بطريقة واقعية بلغت القمة ورسوم الابقار التي استعمل في تلوينها الوان الاوكر والاخضر والاحمر ، ومن ورائها الذين يسوقونها ،ويلاحظ في اعمال المرحلة الاخيرة ظهور رسوم الجمال مما يدل على التحول الطبيعي الذي طرأ على هذه المنطقة . التي كانت في يوم من الايام خصبة الى حد بعيد والتي آلت الى شكلها الحالي المعروف منطقة صحراوية جرداء ، كما يلاحظ وجود رموز مختلفة مرفقة برسوم هذه المرحلة قريبة الشبه بكتابات البربر القديمة وكثيرة الشبه بالعناصر الزخرفية المستعملة في الصناعات التقليدية عندنا .

والحديث عن فن التاسيلي والفن البربري يجرنا حتما الى الحديث عن الحضارة العربية الاسلامية كمصدر من المصادر الملهمة للفن الجزائري المعاصر . لقد ورثت ارضنا الجزائرية معالم كثيرة منتشرة هنا وهناك ترجع اصلا الى الحضارة العربية . لقد جاء العرب بالاسلام الى ارضنا منذ اكثر من اثني عشر قرنا حاملين معهم ضمن ما حملوه عناصر من فنونهم ، وهكذا انشئت المدن والقصور والمساجد وهي متأثرة في العصور الاسلامية الاولى الى حد بعيد في عناصرها المعمارية والزخرفية بمدن وقصور ومساجد ومراكز الخلافة في الشرق العربي ، وكان لاجدادنا بعد ذلك الفضل في نقل هذه الحضارة العربية الاسلامية الى ربوع الاندلس حيث بقيت مزدهرة مدة ثمانية قرون . وتكونت دول محلية بالجزائر وفي المغرب العربي عموما مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشرق العربي في التفكير

والطرز المعمارية والفنية . فهذه اثار سدرانه بالجنوب الشرقي للجزائر التي هي عبارة عن قطع من الزخارف الجميلة المنحوتة على الجبس وهذه الاثار تحكي لنا مدى ما وصلت اليه الدولة الرسمية من تقدم وعمران ، وهذه اثار « بجاية » « وقلعة بني حماد » التي لا تزال بقاياها شامخة تحكي لنا التقدم المعماري الذي وصلت اليه دولة بني حماد . واذا انتقلنا الى الغرب فان مساجد تلمسان واثـر المنصورة بالغرب منها تطالعنا بطرازها المعماري المغربي الانيق وبزخارفها الفنية الجميلة .

وهكذا يعود الاندلسيون مرة اخرى الى الجزائر بعد نكبة الاندلس ويسهمون في تطوير فنونها الاسلامية مما جلبوه معهم من العناصر الحضارية التي كانت مزدهرة في بلادهم ، وهكذا ساهموا في انشاء كثير من القصور والمساجد في المدن التي حلوا بها وخاصة تلمسان والمدن الساحلية ، وجاء الاتراك في الاخير ليدخلوا عناصر جديدة في الفنون الاسلامية المعروفة في بلادنا قبل حلولهم .والحقيقة ان اغلب الاثار الاسلامية التي لا تزال قائمة في اغلب الاحيان على حالتها الطبيعية الاصيلة ترجع الى العهد التركي ، وهذا بالرغم من التخريب الذي تعرضت له الاثار الاسلامية اثناء فترة الاحتلال، فقد اختفت مساجد كثيرة بينما حوّل بعضها الى كنائس واديرة وكاتدرائيات . وخير مثل لهذه الفترة مساجد الجزائر العاصمة والقصور المنتشرة بحي القصبة . نستخلص مما تقدم ان مصادر الفن الجزائري ترجع في اصولها الى فن التاسيلي ،ثم الى الفن البربري الذي يتمثل في الصناعات التقليدية المنتشرة في بلادنا ثم الفن العربي الاسلامي الذي يتجلى في الزخارف النباتية والخطية التي لا يزال يستعملها كثير من الصناع في قطع القيشاني (السيراميك) لتزين حوائط الدور والقصور وكذلك في زخرفة كثير من الاواني الخزافية والصناديق الشعبية ومن هنا ياتي فن الزخرفة وفن المينياتور (او الرسم التصغيري) المزدهر في المدرسة الجزائرية المعاصرة في الرسم .

فن المينياتور (او الرسم التصغيري) :

ان فن المينياتور او الرسم التصغيري ـ من الفنون التشكيلية المزدهرة في بلادنا ، وتكاد الجزائر تنفرد بالاهتمام بهذا الفن او كتب الطب ، وبعض الكتب الادبية مثل : الف ليلة وليلة وكليلة التاريخية الى فن التصوير الاسلامي ، والحديث عن الفن التصغيري يجرنا حتما الى الحديث عن فن التصوير الاسلامي لما للاثنين من علاقة وثيقة .

لقد نشأ فن التصوير الاسلامي منذ القديم ولكنه لم يلق من الرواج مثل مالقيته الفنون الزخرفية فقد كان الفنان المسلم يميل بطبيعته الى التجريد ، وهو متاثر بذلك بتعاليم الدين في بداية امره .

وقد وجدت رسوم كثيرة في مختلف الاطوار السياسية التي عاشتها البلاد الاسلامية ، ولكنها كانت دائما منحصرة في مجال الكتاب حيث كانت تستعمل كصور توضيحية لبعض الكتب العلمية او كتب الطب ، وبعض الكتب الادبية مثل : الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة . وازدهر فن التصوير الاسلامي خاصة ايام المدرسة الايرانية واشتهر من فنانيها كل من بهزاد واقاميرك ـ سلطان محمود علي رضا عباس ـ واستاذ محمد ـ وبعد ايران انتقل التصوير الاسلامي الى كل من تركيا ثم الهند .

ويرجع الفضل في احياء هذا التراث الفني العربي الاسلامي في الجزائر الى الفنان الكبير محمد راسم عميد الراسمين الجزائريين.

ولد هذا الرسام في الجزائر سنة ١٨٩٦ وقد ورث عن والده وعن عمه حبه للرسم فقد اشتهر والده « علي راسم » بصناعة الحفر والزخرفة على الخشب ، وكذلك بالتصوير على الجلد والزجاج وكان ذلك في اواخر القرن التاسع عشر . وهكذا نشأ « محمد راسم » في بيئة فنية محضة ودخل مدرسة الفنون الجميلة في سن مبكرة جدا ، وقد كان في بداية حياته الفنية يهتم بالزخرفة التقليدية التي ورثها عن والده وكان دائب البحث عن اصول هذا الفن الموروث عن الوالد ، وكانت عقدة النقص التي حاول المستعمرون ادخالها في روع راسم بان العربي والمسلم لم يخلقا للفن من الحوافز التي دفعته لمواصلة بحثه دون هوادة ، حتى كان ذلك اليوم السعيد ، يوم عثر في المكتبة الوطنية على بعض الكتب الايرانية والتركية المليئة بالصور الجميلة . يومها شعر بالارتياح والسرور العظيم للكنز الذي وجده وهكذا تحسن محمد راسم وعزم على ابتكار فن جزائري اصيل مرتبط بالتقاليد الفنية المحلية من ناحية ، ومن ناحية اخرى بفن الرسم الاسلامي . وهكذا نشأ فن المينياتور متاثرا بالزخرفة المحلية وبفن التصوير الاسلامي. وتختلف المينياتور الجزائرية عن التصوير الاسلامي وخاصة الايراني باهتمامها بالمنظور خلافا للايرانين الذين كانوا لا يعطون للمنظور اية قيمة وشرع محمد راسم منذ سنة ١٩٣٣ في التدريس بمدرسة الفنون الجميلة وهناك تخصص في تدريس فن المينياتور ، واستطاع بذلك ان ينقل رسالته الى اجيال اخرى من الفنانين الذين نشأوا من بعده متاثرين بفنه .

ولا نستطيع ان ننهي الحديث عن محمد راسم دونما كلمة عن اخيه عمر راسم الذي كان يحارب الاستعمار دون هوادة بفنه ، كان رساما وصحفيا يهاجم المستعمرين واعوانهم في جرائده التي كان يحررها ويرسمها بخط يده وكان ذلك حوالي العشرينيات من هذا القرن .

واذا جئنا للحديث عن تلاميذ « محمد راسم » فاننا نستطيع ان نقول بان اعظمهم مقدرة في الفن هو الرسام « محمد تمام » الذي يشغل حاليا منصب استاذ في مدرسة الفنون ومديرا لمتحف الفنون القديمة بالجزائر وقد بدأ الرسم ابتداء من سنة ١٩٣٢ .

وينتمي الي نفس جيل محمد تمام كل من بن دباغ وجيمونه.

ومن تلاميذ محمد راسم الذين جاءوا بعد تمام في الفترة الزمنية نذكر كلا من بشير يلس ـ علي خوجه ـ وغانم .

ويشتغل هؤلاء الرسامون اساتذة في مدن الفنون الجميلة فنقلوا رسالة راسم الى اجيال ما بعد الاستقلال .

وهكذا تخرجت من مدرسة الفنون مجموعة من الشباب والمختصين في فن المينياتور نذكر منهم كلا من « بوبكر صحراوي » الذي واصل دراسته الفنية في ايران والذي يبدو واضحا اثر المدرسة الايرانية في اعماله وخاصة مدرسة رضا عباس ، كما نذكر كلا من « مصطفى اجعوط » ـ مصطفى بلكحلة ـ مقراني ـ بو عرورة .

وعلى كل فهذه نظرة شاملة لمدرسة المينياتور الجزائرية ابتداء من سنة ١٩١٤ الى هذه السنوات الاخيرة .

الرعيل الاول من الرسامين الجزائريين : (فن التصوير المسندي)

ان فن التصوير الجزائري المعاصر يرجع في اصوله الى مصدرين رئيسيين . فهو يرجع من ناحية الى الفن الموروث عن فن التاسيلي والفن البربري والفن العربي الاسلامي الذي نشأ عنه المينياتور .

اما المصدر الثاني فهو تاثير المدارس الغربية الذي روجته مدرسة الفنون الجميلة الرسمية وبعض المراسم الخاصة التي كان يقوم بادارتها بعض الفنانين الفرنسيين الذي كانوا يسكنون الجزائر قبل الاستقلال ، ومن هذه المراسم مرسم جمعية الفنون

الجميلة . لقد ساهمت مدرسة الفنون الجميلة وهذه المراسم الفرنسية في نشر تعاليم الفن الغربي بمدارسه المختلفة المعروفة فنشأ الفن الجزائري المعاصر متأثرا بها في اغلبه لهذا نجد في الفن الجزائري المعاصر كثيرا من الاتجاهات الفنية الحديثة من واقعية وتأثيرية ورمزية وتكعيبية وتجريدية وغيرها .

والحقيقة ان المدرسة الجزائرية المعاصرة في فن التصوير بشكلها المتكامل لم تعرف الثورة الا بعد الاستقلال وكلامنا هذا لا يعني اننا ننكر وجود فنانين قبل ذلك .

لقد عرفت الفترة ما بين سنة ١٩١٤ الى الاستقلال (سنة ١٩٦٢) اسماء بعض الفنانين الذين يعدون على الاصابع طوال هذه الفترة الطويلة لقد كان الاشتغال بالرسم او دراسته في تلك الفترة من اختصاص ابناء المعمرين ، وذلك بسبب الظروف الصعبة التي كان يحياها شعبنا طوال فترة الاحتلال .

وفي حوالي سنة ١٩٢٠ افتتحت مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر ابوابها ، ولم تكن لهذه المدرسة شخصيتها المستقلة بل كانت مدرسة جهوية تابعة لباريس ، وهي تهيء طلبتها للالتحاق بالمدرسة العليا للفنون الجميلة بباريس .

وهكذا تظهر في الفترة الاولى التي تتراوح ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢٠ اول مجموعة من الفنانين الجزائريين ، ونذكر منهم كلا من ازواو معمري سنة ١٩١٦ - عبدالحليم هامش سنة ١٩٢٨ .

وبعد فترة من الزمن ظهرت الى الوجود اسماء رسامين جزائريين اخرين نذكر منهم كلا من : زميرلي محمد الذي استطاع بمجهوده الخاص ان يكون لنفسه شخصية في الرسم وهكذا دخل اسمه الى عالم الرسم ابتداء من سنة ١٩٣٥ لقد كان محمد زميرلي رساما مغرما بتصوير المناظر الجزائرية الخلابة ، ونذكر من نفس الفترة كلا من بن سليمان وفراح سنة ١٩٤٠ وبوكرش سنة ١٩٣٨ .

مضت سنوات اخرى ، وبالضبط سنة ١٩٤٧ حين لمع اسم الرسامة « باية » التي عرضت في نفس السنة في باريس وهي طفلة لم تتجاوز سن الثالثة عشرة ويتميز فن باية بالفطرية وبالتكوينات الزخرفية الجميلة الساذجة .

وظهر في نفس الوقت فنان اخر وهو حسن بن عبورة الذي تميز اسلوبه بالفطرية والسذاجة وكان متخصصا في رسم مناظر مختلف احياء العاصمة الجزائرية .

وابتداء من سنة ١٩٥٠ الى ١٩٦٢ السنة التي تمكنت فيها الجزائر من افتكاك حريتها ظهرت الى الوجود مجموعة لا بأس بها من الرسامين الذين كان اغلبهم يعيش في فرنسا ، وهم كل من بن عنتر - بوزيد - قرماز - اسياخم - خده وبلس ، الذين كانوا متأثرين الى حد بعيد بالاتجاهات الفنية الحديثة في الرسم ، خاصة التجريدية او شبه التجريدية ، وكانوا في نفس هذه الفترة يقيمون المعارض في فرنسا وفي اوروبا .

هذه نظرة شاملة عن وضعية الفنون التشكيلية في بلادنا قبل الاستقلال . ونستطيع ان نطلق على بعض هؤلاء الاوائل اسم المخضرمين لانهم عاصروا فترتين مختلفتين ، فترة الاستعمار ، وفترة الاستقلال .

جيل ما بعد الاستقلال

بزغت شمس الحرية على الجزائر ولم تعرف البلاد وقتهامدرسة فنية بالمعنى المعروف ، فقد كان الفنانون الجزائريون الموجودون ذلك الوقت متفرقين هنا وهناك .

وبعد الاستقلال اخذ هؤلاء طريق العودة الى الوطن ، كما بدأت تتخرج مجموعات من الرسامين من مختلف اكاديميات العالم ، كما ساهمت المدرسة الوطنية للفنون في تخريج دفعات من الرسامين الجزائريين . وهكذا بدأت تلوح في الافق بشائر مدرسة فنية جزائرية ، ومدرسة الرسم الجزائرية الحديثة حديثة العهد ولم تتحدد معالمها بعد ، فهي في طور التكوين والنمو .

وقد واصل بعض فناني ما قبل الاستقلال انتاجهم الفني ، نذكر من هؤلاء كلا من بلس بوزيد - اسياخم - خده ، ومصلي .

وقد ساهمت الثورة التحريرية في خلق فنانين من بين ابنائها الذين كانوا اثناء فترة الكفاح جنودا في صفوف جيش التحرير الوطني ، نذكر من هؤلاء الرسام فارس بو خاتم الملقب بفنان الثورة لقد بدأ فارس فن الرسم وهو جندي في صفوف جيش التحرير، ثم بدأ في عرض انتاجه الذي خصصه لتصوير مشاهد من حياة الجندي ومناظر من حياة اللاجيء على الحدود ، وقد عرف هذا الفنان نجاحا منقطع النظير في الجزائر وفي الخارج . فقد عرض في كل من براغ - فارصوفيا - هافانا - بكين - ومدريد . ومن الفنانين الذين خصصوا اعمالهم للاشادة بثورة نوفمبر نذكر الرسام عابد مصباحي . واذا كان فارس قد خصص معظم انتاجه للثورة التحريرية فان اغلب الرسامين الجزائريين قد ساهموا بالعديد من اعمالهم لتخليد الثورة الجزائرية ، وكذلك للاشادة بالثورات الثلاث التي تعيشها الجزائر وهي الثورة الثقافية والثورة الصناعية ، والثورة الزراعية .

كما ساهموا في الدعوة لنصرة القضايا العالمية العادلة ، كقضية فلسطين قضية العرب الاولى ، وكذلك قضية فيتنام.

والحديث عن فناني الثورة يجرنا الى الحديث عن الرسامين الذين تكونوا فنيا في الخارج . فقد ساهم العديد من الاكاديميات العربية والاجنبية في تكوين فنانين جزائريين ، ومن الرسامين الذين تخرجوا في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة نذكر كلا من محمد سعيد شريف الذي تخرج في قسم الحفر وكذلك من مدرسة تحسين الخطوط ، وقد اهتم في انتاجه بالخط العربي والزخرفة العربية الاسلامية وتخرج في نفس الكلية في سنة ١٩٦٧ الرسام مردوخ الذي اهتم في اعماله بابراز مختلف معالم الجزائر ، وكذلك ساهم بالعديد من لوحاته للاشادة بثورة اول نوفمبر - ولا ننسى ان نشير الى عبدالقادر هومل الذي تخرج في اكاديمية الفنون الجميلة بروما والذي لا يزال يعيش في ايطاليا .

وبعد سنة ١٩٦٢ وصل الى الجزائر فنان كان يعيش في المغرب حيث بدأ حياته الفنية . هذا الرسام هو محمد الصغير الذي يتميز اسلوبه بالفطرية ، كما نشير الى اسماعيل صمصوم الذي كان يعيش في فرنسا ايام ما قبل الاستقلال . ومرة اخرى نعودالى الجزائر لنتعرض الى الافواج التي تخرجت من جمعية الفنون وفي مدرسة الفنون الوطنية .

فقد تخرجت مجموعة من الفنانين في جمعية الفنون وانضموا الى الاتحاد ابتداء من سنة ١٩٦٩ ، نذكر منهم نجارو بورديين وحمشاوي ودوادى ، وهؤلاء الرسامون واقعيون في اعمالهم .

اما المجموعة الحديثة من خريجي مدرسة الفنون فنذكر منهم شقران سعيداني - بن بغداد - حكار - حنكور - وهناك مجموعة من الرسامين الذين كونوا انفسهم بانفسهم نذكر منهم عبدون - وزرارتي .

اما بالنسبة لفن النحت فان اقل القليل من الفنانين الجزائريين تخصصوا في هذا الفن ، واغلبهم من الذين تكونوا بمجهوداتهم الخاصة - نذكر من هؤلاء كلا من عبدان - نوارة الطيب صوفاني - ومحمد دماغ .

الجمعيات الفنية في الجزائر :

الاتحاد الوطني للفنون التشكيلية هو التجمع الفني الوحيد الذي

يضم اغلب الفنانين التشكيليين الجزائريين ، وهو تجمع فني مستقل في تسييره الذاتي الداخلي عن كل منظمة اخرى ولكنه يتبع بصفة ادبية وشرقية كلا من وزارة الثقافة والاخبار وحزب جبهة التحرير الوطني الجزائري اللذين يقدمان له كل مساعدة مادية وادبية ، فهو تابع لوزارة الثقافة والاخبار مهنيا ويتبع الحزب فيما يتعلق بالناحية النقابية وناحية التوجيه السياسي .

وقد تأسس الاتحاد الوطني للفنون التشكيلية سنة ١٩٦٤ .

ويشرف على تسيير الاتحاد مكتب اداري ينبثق عنه مكتب تنفيذي وهو يقوم بالتسيير الفعلي للاتحاد ، بينما يقوم المكتب الاداري بالاشراف والسهر على السير المرضي للاتحاد ، وهذا المكتب الاداري يتكون من تسعة اعضاء ينتخبون من جانب الجمعية للاتحاد مرة كل سنتين .

وللاتحاد مركز رئيسي بالعاصمة الجزائرية وفروع في كل من وهران وقسطنطينة .

ويتوفر لدى الاتحاد قاعة للعرض في شارع باستور بالعاصمة حيث يقوم المكتب الاداري بتنظيم معارض خاصة وعامة للرسامين الجزائريين في مختلف المناسبات وخاصة المناسبات الوطنية كما يقوم بتنظيم معارض لاعمال الرسامين العرب والاجانب الواردين على الجزائر ، ولدى الاتحاد ناد في نفس المكان لتسهيل اتصال الفنانين ببعضهم مما يساهم في احياء الثقافة الوطنية .

ويضم الاتحاد الوطني فنانين من مختلف الاجيال ومن مختلف الاتجاهات الفنية حينما نجد داخل بوتقته جماعة من الرعيل الاول مثل تمام وزميرلي نجد جماعة اخرى من فناني الجيل الجديد تخرجوا حديثا مثل حكار وطالبي عكاشة .

ونجد من ناحية الاتجاهات الفنية مجموعات مختلفة داخل الاتحاد فمن مجموعة الواقعيين مثل ساصولي الى مجموعة التكعيبيين مثل يلس الى مجموعة التجرديين مثل خده ومصلى واكمون .

ويوجد داخل الاتحاد جماعات فنية مختلفة تتسمى بمختلف الاسماء فبينما نجد مجموعة (الاوشام) ، وهم جماعة من الرسامين الذين يرون في الزخارف الشعبية الجزائرية مصدر الهامهم الفني ، نجد جماعة (المجموعة الاولى) ومجموعة من خريجي مرسم جمعية الفنون الجميلة كما نجد في كل من جماعة (مجموعة ٤٠) وجماعة (الرسم الشاب) .

علاوة على مركز الاتحاد الوطني للفنون فان الحكومة الجزائرية المؤمنة بضرورة نشر الثقافة بين الجماهير الشعبية قد اسست مراكز ونوادي ثقافية تابعة لكل من الحزب ووزارتي الثقافة والشبيبة والرياضة وهي منتشرة في كافة انحاء البلاد .

وخلاصة القول ان فن الرسم الجزائري له مصدران رئيسيان : مصدر محلي يتجلى في كل من فن التاسيلي والفن البربري والفن العربي الاسلامي الذي نتج عنه فن المينياتور في مدرستنا المعاصرة ومصدر خارجي عربي ويتجلى في الرسم المسندي الذي نشا متاثرا باساليب الحركة العالمية المعاصرة في فن الرسم ويوجد ضمن مدرستنا المعاصرة العديد من الاتجاهات والاساليب الفنية فنجد الاتجاه الواقعي ، والاتجاه التعبيري والاتجاه التكعيبي والفطري والتجريدي وغيرها .

والمدرسة الجزائرية في فن الرسم لم تتجدد معالمها كما اسلفنا الا بعد الاستقلال الوطني ، والسبب في عدم ظهورها وتبلورها اثناء الاحتلال الفرنسي يرجع الى الحالة الصعبة التي كان يحياها شعبنا اثناء تلك الفترة ، فقد عمد الاستعمار الفرنسي الى تطبيق سياسة التجهيل والتجويع والتفقير على الشعب الجزائري.

لقد سلب المستعمر شعبنا كل حقوقه واستعمل في سبيل ذلك كل الوسائل وسلب الارض ليعطيها هدية الى المعمرين الاجانب الواردين من كل مكان من جنوب اوروبا ، حرم الشعب من نور التعليم وطبق عليه سياسة التجهيل ، فمنع كثيرا من المدارس العليا والكليات عن الجزائريين . عمد الى طمس الشخصية الجزائرية فحارب اللغة الوطنية واغلق المدارس العربية ، ولكنه بالرغم عن هذه الوسائل الجهنمية فان الشعب الجزائري لم يلن ولم يستكن طوال فترة الاحتلال الممتدة من ١٨٣٠ الى سنة ١٩٦٢ وقام بعدة ثورات مسلحة مثل مقاومة الامير عبدالقادر – ثورة المقراني – ثورة الزعاطشة – ثورة أولاد سيدي الشيخ وغيرها ، وقام علاوة على ذلك بمقاومة الغزو الفكري الاستعماري فانشأ المدارس العربية الاسلامية حفاظا على الشخصية العربية الاسلامية ، دخل من اجلها مع المستعمرين في صدامات ومعارك عنيفة مما اضطر الشعب في كثير من الاحيان الى التزام جانب الحذر والسرية في مزاولته لتدريس اللغة والاداب العربية ، وانشئت صحافة حرة وطنية لتبصير الشعب وفضح الاساليب الاستعمارية امام الرأي العام العالمي ، وقامت عدة حركات سياسية في البلاد مناهضة للاستعمار . ولكن جميع هذه الثورات المسلحة وكل هذه الحركات السياسية لم يكتب لها النجاح لانها كانت جهوية ومتفرقة مكنت الاستعمار من اضطهادها الواحدة تلو الاخرى الى ان قامت ثورة اول نوفمبر سنة ١٩٥٤ تحت قيادة حزب جبهة التحرير الوطني وقد امتازت بالوحدة والترابط والشمول ، فقد وحدت كافة افراد الشعب وشملت ارجاء الوطن من اقصاه الى اقصاه .

وتمكنت الجزائر من استرجاع حريتها بعد كفاح طويل وانشئت جمهوريتها الديمقراطية الشعبية ، وبدأت منذ الاستقلال تعمل جاهدة لتدعيم استقلالها السياسي باسترجاع شخصيتها الوطنية وتعميم الثقافة بين كافة افراد الشعب ، فشرعت في تعريب التعليم والادارة ودعمت استقلالها السياسي باستقلال اقتصادي ، وهكذا تمكنت الجزائر من استرجاع خيراتها التي كانت نهبا للاجنبي ، فانشأت المصانع المختلفة واممت البنوك والتجارة الخارجية وتوجت هذا الاستقلال الاقتصادي بتأميم البترول يوم ٢٤ فبراير ١٩٧١ وعمدت حكومة الثورة الجزائرية الى العمال والفلاحين المسيرين الحقيقيين للثورة الوطنية فمكنتهم من الاضطلاع بدور فعال تسيير الاقتصاد الوطني .

نظمت الفلاحين في اطار تعاونيات فلاحية اشتراكية مسيرة ذاتيا وضمنت حقوق العمال بتنظيمهم ضمن اطار الاتحاد الوطني للعمال الجزائريين بانشاء قانون المؤسسات الاشتراكية وهكذا تمكن العامل والفلاح من اخذ دوره الكامل في التعبير ولم يمنع الجزائر التي عمدت الى بناء كيانها الداخلي من الانفتاح على الخارج ، فقد كانت الجزائر دوما تتعاطف وتدعم الحركات التحريرية في العالم مثل الفيتنام التي تمكنت بفضل ايمانها ودعم الاصدقاء من قهر اعظم قوة امبريالية عرفها القرن العشرين وكذلك فلسطين العربية المجاهدة التي لا تزال تكافح دون هوادة لاسترجاع وطنها السليب ، لم تنفك الجزائر عن مدها بالدعم المادي والمعنوي .

وقد نتساءل او يتبادر الى الاذهان بعد هذا السرد للمواقف الجزائرية عن موقف الرسام الجزائري من كل هذا ؟

ان الرسام الجزائري قد تفاعل منذ الثورة التحريرية حتى بعد الاستقلال مع الاحداث الوطنية ، فنجده اثناء الكفاح وفي السنوات الاولى بعد سنة ١٩٦٢ يخصص جل انتاجه للاشادة بالثورة المسلحة وبالكفاح الوطني وعبر بعد ذلك عن تفاعله مع ثورات الجزائر الثلاث الثورة الثقافية ، والثورة الصناعية والثورة الزراعية ، ونظم في سبيل ذلك العديد من المعارض الفنية .

الجزائر

ابراهيم مردوخ

واقع الحركة الفنية
في اليمن الديمقراطية

بقلم علي غداف

ثمة اشارة هامة تطرح نفسها على الدارس الموضوعي للواقع اليمني بكل ابعاده القومية والتاريخية .. هي ان اليمن الديمقراطي بلد نام ومتخلف ، عاش ١٢٩ عاما تحت نير الاستعمار البريطاني السلاطيني ، في عزلة تامة عن شقيقاته البلاد العربية . وقد حجبت هذه العزلة كل الحياة اليمنية ، فلم يظهر للعالم الا بريق خافت من نور .

واذا ما حاول اي دارس او باحث عربي ان يستكشف كنوز اليمن الحضارية العريقة فانه يجد الصعوبة البالغة في مهمته الانسانية ، نظرا لضآلة المصادر الاصيلة التاريخية منها والجغرافية ، لسببين رئيسيين :

اولا : ان المكتبات العربية تكاد تكون خانية من اي مؤلف يمني عدا تلك المؤلفات والنتاجات الادبية التي قدمها (قلة) من ادباء اليمن في المهجر ، والتي تعبر عن مآسي وآلام الانسان اليمني .

ثانيا : ان المؤلفات التي قدمها بعض المستشرقين الاجانب وعربها نفر من المؤرخين العرب ليست الا محاولات تشويه مقصوده للحضارة اليمنية ، وللتراث الانساني الذي صنعته اجيال اليمن عبر تاريخها الطويل .. ولا غرابة في شيء اذا جاز لنا القول بان المستشرقين الاجانب جاءوا الى اليمن (للتلصص) على تراثه والاستفادة منه ، ونقله الى المتاحف البريطانية والفرنسية والايطالية والهولندية .

ومن هنا لا توجد امام الدارس اليمني او العربي اية مصادر او مراجع تاريخية عن الواقع اليمني ، سواء أكان فنيا ام اقتصاديا ام سياسيا أم جغرافيا .

واذا فان دراستنا هذه ستتناول (الواقع الفني التشكيلي) بصورة محدودة وربما لا تفي بالغرض المطلوب .. ولكننا سنحاول ان نسلط بعض الاضواء الخاطفة حول هذه القضايا :

** حضارة شعبنا اليمني عبر الاجيال الماضية ، وما مثلته من تطور فني تشكيلي كان له الريادة في عالم الفن التشكيلي القديم والحديث .

** عوامل الصراع الحتمية التي خاض خضمها الفن التشكيلي ومثل بها معارضة عنيفة في وجه الغزاة الاجانب من المستعمرين .

** مرحلة ما قبل الثورة ، وهي المرحلة التي جاءت لتمهد لاندلاع ثورة الرابع عشر من اكتوبر المجيدة بقيادة التنظيم السياسي للجبهة القومية والفصائل الوطنية الديمقراطية .

** واقع الحركة الفنية التشكيلية الراهن ، حيث انطلاقة الانسان اليمني الثوري وكسر طوق العزلة ، وفتح الباب على مصراعيه لكافة الطاقات البشرية الهائلة ليتسنى للعالم معرفة الحضارة اليمنية المدفونة والفن الاصيل الذي يضاهي في جودته الفنون التشكيلية العربية والاوربية .

الحضارات اليمنية القديمة

لا بد لنا من الاشارة السريعة الى الحضارات اليمنية العظيمة ، التي كانت منطلقا لكثير من الحضارات الاوربية القديمة ، واسهمت اسهاما فعالا في اغناء الحضارات والتجارب الانسانية في العالم .. ولا يعرف على وجه التحديد بروز هذه الحضارات . وتفيدنا كتب التاريخ القديمة انها ازدهرت في عهد ما قبل الاسلام او ما قبل القرن السابع بعد الميلاد . وتدلنا في ذلك الاطلال الباقية من الاثار المعمارية الفنية الخالدة ، التي تدل على المهارة والتذوق والابداع والشكل الهندسي الفريد الذي يضاهي في جودته الفن الاندلسي القديم اثناء ازدهار الحضارة الاسلامية حينذاك .. ولا تزال النقوش الجميلة تطرز اروقة المساجد وابواب القصور اليمنية القديمة .. ولعل الذين زاروا اليمن الشمالي ، مارب مثلا ، ستبهرهم هذه الاثار وربما اخذوا انطباعا يفوق تصوراتهم .

ولا مندوحة من القول : ان الموجات التي هاجرت من الجزيرة العربية قبيل الميلاد ، عقب انهيار سد مارب العظيم ، الى بلاد الشمال وافريقيا واسيا قد اسست حضارات فنية تشكيلية ـ بجانب حضارات اخرى ـ تلمح فيها سمات الانسان اليمني وعبقريته الاصيلة .. ولا عجب في ذلك اذا شاهدنا في عواصم كثيرة الوانا من التقاليد والعادات تشبه الى حد كبير عاداتنا اليمنية ، فروح الاصالة موجود مهما مرت السنوات .

ونحن نعلم علم اليقين أن اشقاءنا واصدقاءنا لا يعرفون شيئا عن هذه الاثار الا الشيء اليسير والقليل جدا ... وفي اعتقادنا ان معرفتهم محصورة في الاثار (المأخوذة نهبا) من ارض بلقيس وسبا وحمير والموجودة حاليا في المتاحف الاوربية .

ولكي نعرف الانسان العربي بتراثه وفنه الاصيل وحضارته العريقة نتناول في هذه الدراسة السريعة نماذج لاثارنا :

** نجد في متحف (الصهاريج) بالمحافظة الاولى اشياء صنعت صنعا متقنا ودقيقا مثل الاحجار الثمينة والنقوش وكتابات حميرية محفورة في احجار تدل على الصنعة الجيدة والهندسة الدقيقة .

** بعض الادوات الفنية الرائعة التي تعود الى ما قبل القرن الثالث بعد الميلاد وكذلك بعض القطع تعود الى ما قبل القرن السادس قبل الميلاد .

** بعض التماثيل للالهة القديمة وجدت في المحافظة الرابعة ويرجع تاريخها الى عهد الدولة الحميرية وهي مصنوعة من (المرمر) .

** بعض القطع (الرخامية) الصغيرة وتنقسم الى قسمين .. لانسان يمني .. او لحيوان معروف .

** بعض الملابس المزركشة التي يرتديها قدماء اليمنيين في الازمنة السحيقة .

** بعض الادوات المنزلية الرخامية المنقوشة نقشا عجيبا .. ومن هذه الادوات (الجرر) وبعض الاواني الخفيفة التي يحتمل ان تكون مخبأ لحفظ التوابل ... فبلاد اليمن كانت تتعامل مع الهند في تجارة البخور والتوابل ، حتى ان احد المستشرقين اطلق عليها (بلاد التوابل والبخور) .

** بعض القطع الرخامية التي وجدت في حضرموت وتبدو عليها النقوش والزخارف المنتشرة في جوانبها وترمز الى جمال المرأة وزينتها .. وهذا يدلنا ان للمرأة اليمنية دورا في صنع الحضارة .

** بعض الرسومات المختلفة .. ويلاحظ عليها تأثير الطبيعة على الفنان اليمني . وهذا ما ظهر جليا في رسوم الحيوانات والنباتات والبحر .

واذا ما تعمقنا هذه النماذج الفنية نجد انها تعبر عن افكار مختلفة ..كلاسيكية ، وتجريدية .. ولو كانت مدارس فنية حديثة لاسميناها (بالفنون التشكيلية التجريدية) فهل نقول ان الفنان اليمني كان رائدا في الفن التجريدي قبل مدارس اوربا ؟.

انطلاقة فنية من الريف :

تميزت حياة الانسان في الريف بقساوتها وجفافها وسيطرت عليها

حياة الانسان البدائي القديم .. فاغلب سكان الريف من البدو الرحل متنقلون من مكان لاخر تبعا للرعي والكلأ والماء .. يعتمدون في معيشتهم على صيد الحيوانات وما تدره ابلهم من الالبان .

وقد عاشوا مئات السنين يعانون من شظف العيش ، وقسوة الطبيعة لا يعرفون من حضارة الانسان الا اسمها فقط . فالاكثرية الساحقة منهم اميون فقراء ورغم هذه المأساة المؤلمة نجد ان البدوي المتنقل قد اوجد لنا فنا تشكيليا جميلا .. بامكاننا ان نحدده فيما يلي :

** الازياء الشعبية التي ترتديها النساء الريفيات والتي تضم تصاميم فنية دقيقة بواسطة (التطريز) بالابرة .. حيث تنتشر في جوانب الثوب الاسود الطويل وفي وسطه النقوش الذهبية التي تمثل اشكالا للحيوانات الاليفة والمفترسة معا .

** يلاحظ على الجزء الاسفل من وجه الفتاة الريفية نقوش رائعة تسمى (الوشام) وتضفي على هذا الوجه الخالي من كل المساحيق والمكياج جمالا الى جماله الريفي .

** تخضب الفتاة الريفية اثناء زواجها اطراف ايديها (بالحناء) وتتفنن في نقش هذه الاطراف بالرسومات المختلفة .

** تستعمل العائلة الريفية بعضا من الادوات المنزلية مصنوعة من الخزفمطلية ب (الكلس) الابيضلتظهر على جوانبها اشكالا زخرفية رائعة .

** يتفنن المعماريون الريفيون في نقش جدران منازلهم .. ونادرا ما تجد هذه النقوش تخلو من اي منزل ..

اليمنيون في المهجر :

عرف اليمني بشغفه بالهجرة ، خارج وطنه طلبا للعيش والتجارة. فقد استطاع اليمنيون الهجرة الى شرقي افريقيا واندونيسيا والفلبيين والصين والهند .. وكانوا ينقلون معهم عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وثقافاتهم . وقد اسهموا في الحركات الثقافية والادبية فاصدروا عددا من المجلات والصحف . وانشأوا عددا من المؤسسات الثقافية والدينية التي ساهمت في نشر الرسالة الاسلامية على اوسع نطاق . كما نبغ عدد منهم في الفلسفة والعلوم والاداب . وتولى البعض الاخر مناصب كبيرة . ومما يؤسف له ان تهمل هذه الابعاد التاريخية الى الشرق الاقصى وشرقي افريقيا من جانب ادبائنا العرب المعاصرين بينما نجد الدراسات والمحاضرات عن ادباء المهجر العرب الى امريكا .

التمهيد للثورة الثقافية :

كان للهجرة اليمنية لعواصم العالم مردودات طيبة جدا عكست نفسها على حياة المواطن اليمني في الريف والمدينة على السواء . واكسبته مجموعة من التجارب . فاولئك الذين اكملوا دراساتهم بالجامعات العربية في مصر وبغداد والهند واندونيسيا قد عادوا بروح جديدة متقدة حماسا. وهالهم ما رأوه من حياة التخلف والبؤس والشقاء والحرمان . واول شيء فعلوه هو التطوع لتعليم ابناء المدينة وانتشروا في عدد من المدارس التي انشأها الاهالي بواسطة الاموال المجلوبة من الخارج .. ورغم الحصار المستمر لهذه البداية الثقافية ووضع العراقيل امام المدرسين الخريجين تارة باسم الدين وتارة اخرى باسم الحفاظ على التقاليد والعادات والقيم .. وتحركت عجلة التطور الثقافي ببطء ومن خلال المدارس المقتصرة على البنين فقط ، لان الفتاة في نظرهم (عار) انتشر بين صفوف الجماهير شيء جديد اسمه (الوعي) والاحساس بتدهور الموقف وبالقضية الوطنية ، وبالحرمان المؤلم من كل مقومات الحياة الانسانية .

وهكذا كلما ازداد الوعي لدى جماهير الشعب كلما اتخذت السلطات الاستعمارية الرجعية تدابير جديدة .. تارة بمحاولات الاغراء المادي للمثقفين .. وتارة اخرى بافساح المجال امامهم لتولي مناصب كبيرة في السلطة .

اما العمال والفلاحون في الريف فكانوا يعانون اشد انواع القسر والتعذيب وابشع الوان الاستغلال .. فينظر اليهم كمخلوقات ضعيفة لا حول ولا قوة لها .. يجب ان تسخر لخدمة الاقطاع من رجالات القبائل والسلاطين والمشائخ والسادة . وظلوا في عزلة عن عالم الحضارة والتقدم ، خداما للاقطاع .. يكدحون وينتجون ويلتحفون الشمس في سبيل سعادة مالك الارض الذي ينفق الاموال الطائلة في سبيل نزواته وملذاته .. اما وسائل الانتاج فهي بدائية جدا .

ورغم هذه الحالة السيئة في المدينة والريف فقد استطاع ابناء المدينة من طلبة ومدرسين مثقفين ان يعبروا عن حالة البؤس هذه .. فقدموا بين الحين والاخر عددا من المسرحيات والتمثيليات والمعارض الفنية . وربما لمسنا فيها لونا من الفن التشكيلي العفوي عبر بصدق عن معاناة الجماهير اليومية وكشف عن كوامن عميقة تتصارع داخل الصدور ، صدور ذاك الجيل المتحمس للانطلاقة الجبارة .. فشاهدنا في هذه المعارض الرسومات الجميلة والزخارف والنقوش المختلفة واذا كان لنا ان نسجل بامانة وصدق هذا الحدث الهام من احداث اليمن فاننا نسجل معاناة جيل باكمله .. عاش حالة صراع عنيفة ضد ادوات الاستعمار والسلاطين والاقطاع .

ومن الناحية الثانية شهدت البلاد تطورات اخرى فانشئت المنتديات والمؤسسات الجماهيرية الصغيرة للشباب وغلب عليها الاهتمام بالشؤون الرياضية . اما الجانب الثقافي فقد استيقظ رويدا رويدا . وكان ردة فعل للتطورات السياسية في بعض البلاد العربية .. حيث تفجرت ينابيع الثورات فكانت اهتمامات الشباب اليمني بالمسرح والغناء والاحتفالات والمعارض الفنية وهنا نلاحظ هذا التيار الثقافي الذي اجتاح وطننا اليمني فاعطت الاندية والمؤسسات ما عندها من الوان الفنون .. في مناسبات قومية ودينية موسمية فظهر على السطح فنانون موهوبون وخاصة في مجال الرسم والتصوير والنحت . فكانت بداية البداية لحركة ثقافية فنية بشرت بانطلاقة جديدة للفنان اليمني وساهمت في ابراز نضاله وصموده ، وايقظت الوعي السياسي لدى الجماهير الفقيرة التي لا تستطيع ان تعبر عن احاسيسها .. فوسائل الاعلام والصحافة ادوات ترفيهية في خدمة السلاطين والمشائخ محاولة تعميق افكارها الاقطاعية والبرجوازية .

قيام ثورة ١٤ اكتوبر المجيدة :

في الرابع عشر من اكتوبر من عام ١٩٦٣ م انطلقت اول شرارة للثورة من على قمم جبال ردفان الشماء . بعد ان سقط الى غير رجعة حكم الامامة والاقطاع في شمال الوطن . فكان لقيام الثورة تغيير جذري في مسار حركة الجماهير في الريف والمدينة . ومدينة عدن بوجه خاص حيث كانت القاعدة البريطانية التي تعتبر القاعدة البريطانية الكبيرة في الشرق الاوسط . وقد جسدت حركة الفنانين اليمنيين التشكيليين اهداف الثورة المسلحة في اعمالها المختلفة .. فاغلبية فنانينا ينتمون الى طبقات فقيرة وكادحة وبرجوازية صغيرة .. فعبرت نتاجاتهم عن معاناة الفقراء من العمال والفلاحين والصيادين والمضطهدين وابرزت صراعهم مع الطبيعة القاسية والتخلف الرهيب وادوات القهر والعسف . وواكبت حركة الفنانين الثورة حتى انتصرت .. وتوج هذا الانتصار بالاستقلال الناجز في ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٧م .

بعد الاستقلال مباشرة سيطرت على السلطة القيادات اليمنية التقليدية واحتياطي الاستعمار الجديد العسكرية .. فلم تحدث اية تغييرات جذرية لمؤسسات الدولة ، فاكتفت بالاستقلال كمكسب سياسي ولم تفكر لحظة واحدة في التغيير الشامل للمجتمع . وعاشت الفصائل التقدمية صراعا عنيفا مع العناصر التقليدية حتى اعلان خطوة التصحيح في الثاني والعشرين من يونيو المجيد التي تولت بعدها الفصائل

الديمقراطية السلطة في التنظيم والدولة . وحدثت فورا التغييرات السياسية والاقتصادية والثقافية ومثلت طموحات الجماهير الفقيرة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة ، التي كان لها الدور الاساسي في الكفاح المسلح .

وحيث ان الحركة الثقافية تعيش ازمة خانقة وتسودها المفاهيم الخاطئة التقليدية .. استحدثت حكومة الثورة وزارة للثقافة والسياحة تحملت على عاتقها مهمة البحث والتنقيب عن الحضارة المدفونة والمواهب المبعثرة فانشأت عددا من المتاحف الوطنية للحفاظ على هذه الكنوز الحضارية . ولاطلاع الرأي العام المحلي والعالمي على نضالات شعبنا اليمني وحياته وصموده عبر مئات السنين .. كذلك اهتمت الوزارة بالفنانين اليمنيين الموسيقيين منهم والتشكيليين وبذلت جهودا كبيرة في ان تصب نتاجاتهم في بحيرة واحدة بدلا من التفكك والاتكالية وعدم التركيز فدعت الى قيام تجمع فني تشكيلي على ان يتحمل مسئولية الحفاظ على التراث الفني تقديم العروض المشرفة للثورة ولحركتها المستمرة ومتابعة مبادرات الجماهير في الريف .

وانطلاقا من هذه الثقة التي اولتها حكومة الثورة للفنانين التشكيليين تأسس الاتحاد للفنانين اليمنيين التشكيليين في ديسمبر ١٩٧٢م وتم انتخاب هيئة تنفيذية من المهتمين بقضايا الفن من ذوي الخبرات والطاقات النشطة .

وبقيام الاتحاد في اليمن الديمقراطية تكاملت الصورة للفن اليمني التشكيلي .. وستبرز الصورة اكثر عندما تتوحد التجمعات اليمنية في الشمال والجنوب .

ولسنا في حاجة في هذه الدراسة الى ان نقدم سردا لما انجزه الاتحاد منذ تكوينه وحتى الان فهذا مجال اخر الا ان الامل يحدونا في ان تكون مساهمات الاتحاد دفعا جديدا للاتحادات الفنية العربية وسندا قويا للقضية الفلسطينية والثورة في الخليج والجزيرة العربية .

علي غداف

رئيس اتحاد الفنانين التشكيليين
في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ملاحظات جانبية على المؤتمر ..

بقلم ماجد السامرائي

في « مهرجان الواسطي » الذي عقد ببغداد في نيسان العام الماضي تبنى العراق فكرة عقد المؤتمر الاول للاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب ، الذي كان قيامه تعبيرا عن ضرورة ملحة لانشاء تجمع فني تشكيلي عربي ، يضم في اطاره كافة التجمعات العربية ، وفق صيغة تكفل لهذه التجمعات ظروفا افضل للعمل ، لا على الصعيد القطري حسب ، وانما على الصعيد القومي ايضا .. محققا ما عاشه الفنانون التشكيليون العرب من تطلعات خاصة وعامة .

وقد سبقت اللقاء في « مهرجان الواسطي » وتلته لقاءات اخرى ، بلورت الكثير من الافكار بصدد قيام الاتحاد ، وطبيعة الامور الذي يمكن ان ينهض به في واقع حركة الفن التشكيلي العربي المعاصر ..

فقد تم اول لقاء لعدد من الفنانين العرب بدعوة من نقابة الفنون الجميلة بدمشق في كانون الاول ١٩٧١ .. حيث أعتبر ذلك اللقاء المؤتمر التأسيسي الاول للاتحاد . وفي البداية تشكلت الهيئة المؤسسة للاتحاد من رؤساء الوفود المشاركة في ذلك اللقاء ، وهي : تونس ، ليبيا ، مصر ، فلسطين ، لبنان ، سوريا ، والكويت .. انضمت اليها فيما بعد : العراق ، المغرب ، الجزائر ، واليمن الديمقراطية الشعبية ..

.. ثم كان « مهرجان الواسطي » ببغداد ، تلاه الملتقى العربي للفنانين بتونس في العام ذاته (١٩٧٢) ، ثم لقاء آخر في دمشق في مطلع هذا العام ، ورابع في الكويت في آذار هذا العام ..

هذه اللقاءات ساعدت مساعدة كبيرة في بلورة الكثير من الافكار عن الاتحاد ، وطبيعته ، ومهماته ، مؤكدة ضرورة قيامه ، كشكل تنظيمي يمكن ان يسهم اسهاما جادا وفاعلا في اغناء واقع الحركة الفنية في الوطن العربي ..

وفي الفترة ما بين ٢٠ الى ٢٤ نيسان الماضي عقد المؤتمر .. الذي شاركت فيه كافة الاقطار المذكورة ، باستثناء ليبيا .. مضافا اليها السودان ، والاردن (بصفة مراقب ، لعدم انضمامهما رسميا للاتحاد).. ليكون ـ هذا المؤتمر ـ فرصة طيبة لتعرف الفنانين العرب بعضهم على بعض ، وتدارس مشاكلهم ، وتبادل وجهات نظرهم في عديدة من قضايا واقعهم وممارساتهم ، وبالتالي ، لتبادل الخبرة ، بالحدود التي يتيحها لقاء كهذا ، من خلال التعرف على الاتجاهات الفنية في الاقطار المشاركة ، ولو تعرفا جزئيا ، ولكنه لا يخلو من فائدة .. ربما سيكون المستقبل كفيلا باتاحة فرص اكبر لذلك ..

اعتمد المؤتمر ، في دورته الاولى هذه ، أسلوبا قريبا من أسلوب مؤتمرات الادب . وهذا هو أول خطأ فيه . فبالاضافة الى التقارير التي قدمها رؤساء الوفود عن واقع الحركة الفنية في اقطارهم ، وما عرضوه من « سلايدات » لاعمال عدد من فنانيهم .. بالاضافة الى هذا، اغرق المؤتمر نفسه بعدد غير قليل من البحوث ، وعن قضايا فنية مختلفة معظمها نظرية ، كان يمكن الاستغناء عنها في الجلسات ، وتوزيعها للقراءة ، ليستغل الوقت المخصص لالقائها بمناقشات جادة عن واقع الحركة الفنية التشكيلية في كل قطر عربي ، وفي تدارس واقع الفنان العربي ، والمعضلات التي يجابهها ..

ولكن .. حتى مع هذا الواقع ، فان بعض البحوث لم تعدم الجدوى . ولعل المناقشات التي أعقبت العديد منها قد فجرت مسائل كثيرة ، بعضها على جانب كبير من الاهمية . وبالتالي ، فهي ، حتى في ما داخلها من سلبيات كثيرة ، ومن تعميمات احيانا ، قد شخصت بعض امراض الحركة الفنية التشكيلية العربية .. والقليل منها رسم آفاق تطلع جديد في ميدان هذا الفن . ولعل الامنية الملحة التي عاشت في نفوس الكثيرين ، هي تحرر اغلب البحوث التي استمعوا اليها من صفتين :

ـ الاولى : ما فيها من « صيغ رسمية » جعلتها تدور في جو بعيد عن طبيعة مؤتمر كهذا يفترض به ان يكون منطلقا لعمل بعيد عن مثل هذه الصيغ ..

ـ والثانية : ما فيها من انشائية ، وتعميمات مطلقة .. وتقريرية..

.. لتقدم ، بدل ذلك ، دراسات نقدية هدفها التعبير عن واقع قائم ، وتشخيص ما يعانيه هذا الواقع من اختلاطات كثيرة ، بعضها له خطورته الكبيرة على حاضر ومستقبل هذا الفن (كتداخل التيارات الغربية في واقع هذا الفن بشكل حرفي .. وسوى ذلك) .. وبعضها الاخر يتعلق بظروف الفنان نفسه ، وبوضع القلق في اكثر من قطر ..

ولكن .. وعلى الرغم مما ساد الجانب الكبير من المناقشات من

سطحية ، وديماغوجية .. ومن ثرثرة جوفاء احيانا .. فانها قد فجرت امورا جديرة بالمناقشة ، والتأمل ، والدراسة .. وهي ، دون ادنى شك ، من صميم واقع الحركة الفنية التشكيلية العربية .. كما تهم الفنانين انفسهم كمبدعين ، فهي تهم مستقبل الحركة ، ككل . وللاسف، فان الكثير من هذه الامور ظلت بعيدة عن اهتمام المؤتمر . وكان يمكن لهذه المناقشات ان تكون اكثر جدوى لو انها حظيت بتوجيه علمي دقيق، وموضوعي .. ولو ان الوقت لم يختصرها ، او يقمعها في احيـان كثيـرة ..

الا انه ، بجانب هذه الملاحظات ، والتي يمكن اعتبارها ملاحظات أساسية ، فان المؤتمر يكتسب نوعا من الاهمية .. وأهميته هذه ، التي نراها ، نابعة من اكثر من مسألة ..

فأولا : انه اللقاء الذي انبثق عنه الشكل التنظيمي لاتحاد عـام يضم كافة التجمعات الفنية التشكيلية العربية .. ليكون الناطق باسمها، والمعبر الاكبر عن وجودها ، والمنظم لنشاطاتها المشتركة ..

وثانيا : من خلال هذا « الشكل التنظيمي » الذي يمثل « بؤرة » تلتقي فيها تجمعات عديدة ، يمكـن ان تتاح اكبر الفرص للفنانين العرب لتبادل الخبرة ، وتدارس المشاكل المشتركة ، بهدف وضع ما يمكن من حلول ناجعة لمعضلات الواقع الفني التشكيلي العربي .. بعيدا عـن محدودية النظرة الاقليمية ، او الفردية ..

وثالثا : انه يمكن للاتحاد ، اذا ما توافر على وعي كامل لمهماته ، واضطلع ، بجدية ، بدوره الحقيقي المرسوم له ، أن يشكل طاقة دافعة لتنظيم خلاق ، يساعد ، وبكثير من الجدية والفاعلية ، في اغناء الواقع الحضاري للامة العربية في ظرفها الراهن .. وليرسي دعائم بنـاء مستقبلي ينفي عن واقع الحركة الفنية التشكيلية العربية ما تعاني من تشتت ، وما يداخلها من أزمات .. فيخرجها الى أفق انساني أرحب ، يستطيع فيه الفنان ان يمارس دوره الحضاري والانساني والابداعي ، على مستوى واحد .. فلا يظل اسير نزعات فردية ، او اقليمية ضيقة تجعل الكثير من تجاربه تعيش حالة حصار قاتلة ..

ويمكن لهذا ان يتحقق من خلال عدة وسائل :

ـ باقامة المعارض العربية المشتركة ، ولعل « البينالي العربـي الاول » الذي سيقام في بغداد في الاسبوع الاول من كانون الاول من هذا العام هو الخطوة الاولى في هذا الطريق ..

ـ بتبادل المعارض العربية ما بين أقطار الاتحاد .. الامر الـذي سيتيح للفنانين العرب في كل قطر الاطلاع على تجارب زملائهم فـي الاقطار الاخرى .

ـ بقيام الاتحاد بمهمة اصدار مجلة خاصة بالفن التشكيلي العربي، مضافا اليها مطبوعات اخرى ، دورية ، عن الفن والفنانين العرب .. مما سيساعد مساعدة كبيرة في اغناء واقع الفنان العربي ، وفي كسر الحصار الاقليمي المفروض على تجاربه ضمن أوضاعنا العربية الراهنة ..

هذه ، باعتقادي ، هي الخطوط العريضة لما هو مطلوب من الاتحاد عمله وهو يمارس مهماته الفعلية .. ومنها يمكن الانطلاق الى عمل اكبر .. يؤكد للاتحاد وجوده ، ويخلق مبرر قيامه ..

.. أما اذا استحال الى شكل تنظيمي مجرد من كل فاعلية حقيقية، قاصرا عمله على تنظيم المؤتمرات مرة كل سنتين ـ كما هو مقرر فانـه سيستحيل الى شكل آخر مشابه للاتحاد العام للادباء العـرب .. وبالتالي ، سيفقد مبرر وجوده ، ومنطق استمراره .. كما يفقد قناعة أعضائه بجدوى استمراره .

أقول هذا .. لانني أضع في الاعتبار ان الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب اتحاد فني .. بدأ الخطوة الاولى في مؤتمره هذا .. وما تزال أمامه مسافة الالف ميل .

بغـداد — ماجد صالح السامرائي